أنور أحمد

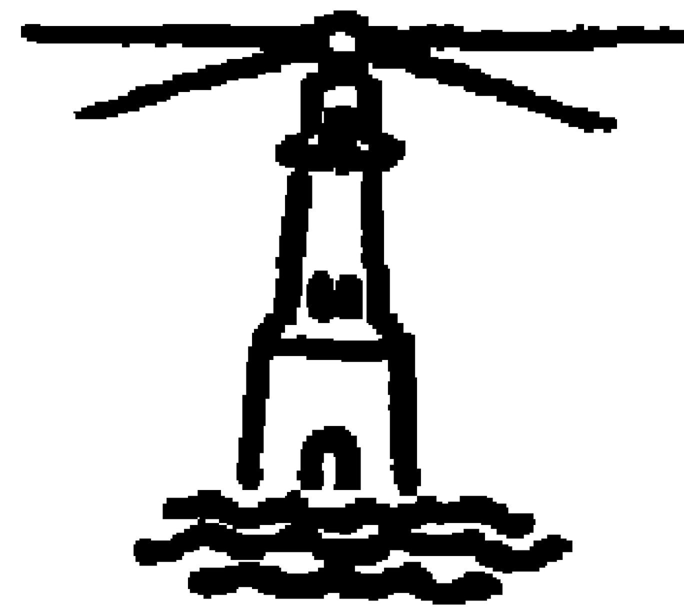
ألباء صنعوا التاريخ





تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير : أنيس منصور



دار المعارف بمصر



أنـــور أحـــمـد

علماء صنعوا التاريخ

اقرأ ٤١٣

دار المعارف بمصر

(اقرأ - ٤١٢)

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى روح الزعيم الخطيب « مصطفى كامل » الذى أيقظت خطبه روح أمته فانطلقت تكافح لصنع تاريخها الحديث .

المؤلف

هذا الكتاب

ليس هذا الكتاب ترجمة لحياة هؤلاء الخطباء بالمعنى المألوف للتراجم ، ولكنه محاولة لدراسة فنهم الخطابى وإلقاء الضوء على الشخصية الخطابية لكل منهم ، وبيان ملامح هذه الشخصية والعوامل التى ساعدت على تكوينها وتحديدها . فهو بهذا لا يعتبر من كتب التراجم ، لأنه لا يسرد تاريخ حياة الخطيب ويتتبع أحداثها إلا بالقدر الذى يتصل بحياته الخطابية ويساعد على جلائها وتوضيحها .

وقد اخترت طائفة من الخطباء الذين كانت العبقرية الخطابية أبرز صفاتهم أو من أبرزها ، وكانت وسيلة معظمهم للوصول إلى الحكم والسلطة أو مراكز القوة التى تمكنوا من خلالها أن يسيطروا على الأحداث ويسهموا بذلك فى صنع التاريخ .

ولم أتقيد فى هذا الاختيار بعصر محدد أو بيئة معينة ، وإنما اخترت من كل بيئة وعصر أعظم شخصية خطابية فرضت نفسها على الأحداث وأصبحت جزءاً من تاريخ عصرها .

وأبادر إلى القول إن هذا الكتاب لم يستوعب كل العباقرة من خطباء التاريخ الذين أسهموا فى صنعه ، فهذا جهد يحتاج إلى موسوعة ضخمة ، وإنما اخترت بعض النماذج الفريدة ، ليس من بينها أحد من المعاصرين .

والواقع أن فكرة هذا الكتاب كانت تراودنى وتلح علىّ منذ زمن طويل . ذلك أنه برغم ما للخطابة من جليل الأثر وعظيم الخطر فى حياة الأمم ،

فقد لاحظت أن المكتبة العربية تكاد تخلو من الدراسات والبحوث الخاصة بالخطباء ، على كثرة ما تقذف المطابع كل يوم إلى سوق الأدب .

ولست أزعم أن هذا الكتاب الصغير سوف يسد هذا الفراغ ، ولكنى أرجو أن يلفت أنظار الكتاب إلى هذا المجال البكر ، فتظفر المكتبة العربية منهم بما يشفى الغليل بعد أن أسهمت فيه بجهد المقل .

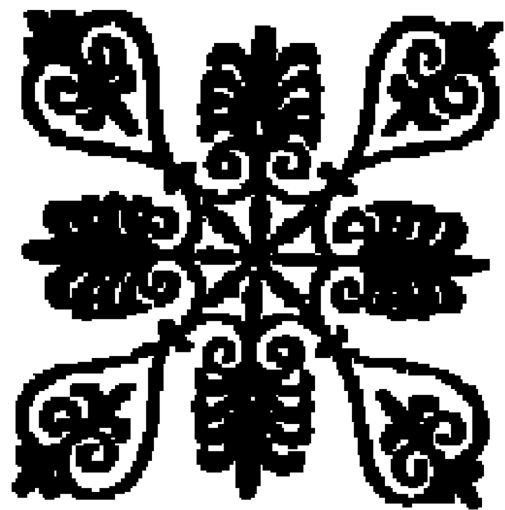
القاهرة يوليو ١٩٦٩

المؤلف

ديموستين

« إننا عندما نسمع ديموستين لا نفكر فى كلماته ، فهو يُبرق و يرعد وهو سيلٌ يجرف كل ما يعترض سبيله ، فلا نستطيع أن ننقده أو نُعجب به ، لأننا نكون قد فقدنا السيطرة على مشاعرنا » .

المؤرخ فنيلون



ديموستين

تعتبر حياة « ديموستين » نموذجاً فريداً للخطيب العبقرى فى كل زمان ومكان . كانت حياته أسطورة تشبه الأساطير الإغريقية القديمة ، وكانت عبقريته الخطابية أبرز معالم شخصيته ، فكانت خطبه موضوعا لدراسة الخطباء فى الأجيال التى تعاقبت بعده ، حتى لقد قال « كونتيليان » إن طلاب البلاغة يجب عليهم ألا يدرسوا خطبه فحسب ، بل أن يحفظوها عن ظهر قلب .

ولد « ديموستين » فى أثينا عام ٣٨٤ قبل الميلاد ، وتوفى أبوه وهو فى السابعة من عمره ، وترك له ثروة كبيرة ومصنعين أحدهما لصنع الأسلحة . ولكن أوصياءه الثلاثة بددوا ثروته ، فلما بلغ الثامنة عشرة من عمره طالب برفع الوصاية عنه ، كما طالب الأوصياء بحساب عن الثروة ، ودخل معهم فى نزاع قضائى دام ثلاثة أعوام .

وإذا كان « ديموستين » لم يكسب من هذا النزاع مالا كثيراً ، فقد اكتسب معرفة بالقانون وإجراءات القضاء ، وامتلأت نفسه بغضاً لكل ظلم واعتداء . أراد أن يدرس القانون لكى يتمكن من مخاصمة أوصيائه ومناقشتهم ، فتتلمذ على « إسايس » الذى كان من علماء القانون اشتهر بالفصاحة والأسلوب الأنيق .

ولاحظ فى أثناء مرافعاته الأولى فى قضيته عجزه واضطرابه وخفوت صوته وتلعثمه فى الكلام ، فصمم على أن يستكمل ما ينقصه ليكون خطيباً

قادراً على الكلام والمرافعة . لقد أدخلته أمه المدرسة فى طفولته فنال حظاً من التعليم ، ثم قرأ كتب التاريخ والأدب ، وأعجبته فصاحة الخطباء ، وفتنه ما يحظون به من تصفيق الناس وإعجابهم ، فتاقت نفسه أن يكون خطيباً . وكانت بلاد اليونان مقسمة فى ذلك التاريخ إلى ولايات ومدن مستقلة ، وكانت أثينا أعظمها حضارة ومدنية ، كما كانت تتمتع بنظام ديمقراطى ساذج ، فكان لها مجلس للشورى أو « جمعية وطنية » تتألف من خمسمائة عضو من أفراد الشعب ، يرجع إليهم الأمر فى شئون الحكم . وكان النظام القضائى يبيح لأى شخص أن يطلب إلى القضاء محاكمة من يرى أنه ارتكب أمراً يستحق عليه العقاب ، ويقوم الطالب فى هذه الحالة بمهمة المدعى العام .

وفى ظل هذا النظام تزكو الخطابة ، ويستطيع الخطيب النابغ أن يكون ذا شأن كبير ، وإنه ليطمح إلى أن يكون خطيباً يشترك بفصاحته فى إدارة شئون الحكم والسياسة ، ولكنه يرى أن محاولاته الأولى لا تبشر بخير ، فهو ضعيف الصوت ، قصير النفس ، مرتبك فى إشارته ، وبلسانه لثغة تزيد فى ارتباكه عند الكلام . وفى غمرة يأسه وحيرته صادفه « ساتيروس » الممثل الشهير الذى استكشف ما يتمتع به « ديموستين » من عقل يتوقد ذكاء ، وقلب يشتعل حماسة ، ونفس تضطرم بالطموح ، فشجعه ونفخ فيه من روحه وأعاد إليه الثقة بنفسه ، وأقنعه أن لديه مواهب الخطيب ولا ينقصه إلا حسن الإلقاء وإجادة النطق ، وهو شىء يكسب بالمران .

ويتحدث الرواة عن الجهود المضنية التى بذلها « ديموستين » فى تذليل ما اعترضه من صعاب ، فقد شعر بأن الطبيعة وهبته نفساً طموحاً إلى التحليق

ولكنها قصت من جناحيه ، فصمم على أن يناضل حتى يصل إلى القمة التي يريدها ، وبدأ رياضة شاقة بعزيمة لا تعرف اليأس .

ويروى المؤرخ « بلوتارك » أن « ديموستين » شيد لنفسه حجرة تحت الأرض كان ينفرد فيها ليتمرن على الخطابة ، وكان يقف أمام المرآة ليتخير الإشارات المناسبة وقت الإلقاء ، وكان يضع الحصى فى فمه وهو يتكلم ليحل عقدة لسانه ، ويصعد الجبل عدواً وهو ينشد أبياتاً من الشعر بصوت مرتفع ، أو يقف على ساحل البحر ويرفع صوته بالكلام حتى يطغى على هدير الأمواج ، وكان يحلق نصف رأسه ليرغم نفسه على ملازمة حجرته الشهر والشهرين لا يرى الناس منقطعاً إلى دراسته وتمرينه .

وبعد سنوات من هذه الرياضة الشاقة تكلل جهاده بالنجاح ، ولم يعد يخشى الجمهور ، فلما ارتقى بعد ذلك منبر الخطابة ملك الأسماع والقلوب ، ولم يلبث أن أصبح خطيب الجمعية الوطنية ، بل خطيب أثينا الأعظم .

ومن عجب أن هذا اللسان الذى كان يثقل فى فمه ، أصبح لسان أثينا الذى ينفث السحر ويلهب الحماسة ، حتى قال عنه « فنيلون » المؤرخ الكبير :

« إننا إذ نسمع ديموستين لا نفكر فى كلماته ، فهو يبرق ويرعد ، وهو سيل يجرف كل شيء يعترض سبيله ، فلا نستطيع أن ننتقده أو نعجب به ، لأننا نكون قد فقدنا السيطرة على مشاعرنا . . »

والواقع أن من يقرأ خطب « ديموستين » اليوم يشعر فيها بصدق اللهجة والإخلاص الذى يوحى إليه الثقة فى الخطيب ، ويروعه منها التدفق

وغزارة المادة والمنطلق السليم ، ويجدها مزاجاً رائعاً من الموضوعية التى تقنع العقل والحماسة التى تثير الشعور. وكانت هذه أخص خصائص أسلوبه الخطابى .

وكانت عبقرية ديموستين متشعبة متعددة الجوانب ، مما جعله فريداً فى العالم القديم ، فقد جمع فى شخصه بين الوطنى المتحمس والسياسى البعيد النظر ، والفنان النابغ الذى لا يشق له غبار .

وقد خصص « دايونيسياس » Dionysius بحثاً عنه فقال إنه سما بالنثر اليونانى إلى حد الكمال بما قام به من مزج رائع بين عناصر كانت لا تزال متفرقة فى ذلك الوقت بل لقد فاق المتخصصين فى كثير من الفنون . فاق مدرسة « أنتيفون » Antiphon فى الوضوح والصفاء ، ومدرسة « ليسياس » Lysias فى الحماسة ، ومدرسة « إيزوكرات » Isocrates فى التنوع والقوة والشعور العميق .

هذا هو « ديموستين » وقد نضجت عبقريته ، واكتملت قوته ، فما هو ذا الدور الذى هيأه له القدر ليلعبه على مسرح الحياة ؟

لقد سخر مواهبه وعبقريته لخدمة وطنه ، وقضى حياته كلها مجاهداً فى سبيل مثل أعلى فى السياسة وحكم الشعوب ، ومات فى سبيل ذلك كما يموت الأبطال والشهداء .

* * *

عندما درس « ديموستين » القانون كان يهدف إلى الانتفاع بذلك فى مباشرة قضيته وشئونه الخاصة ، ولكنه لم يلبث أن اتخذه مهنة يتكسب

بها ، واحترف كتابة الخطب والمرافعات لمن يطلبها لإلقائها فى المحافل أو أمام المحاكم ، ثم نال إجازة رسمية فى الحقوق ، وطفق يترافع بنفسه فى مجالس القضاء ، وجمع ثروة كبيرة .

وأخذ « ديموستين » يهتم بالسياسة ، وكانت مناقشات المجلس الأثينى العام ، – وهو البرلمان الشعبي الذى يعقد فى سوق المدينة ويشترك فى مناقشاته كل مواطن حر متمتع بحقوقه المدنية – ودراسته لتاريخ أثينا الحافل بالأمجاد ، تدفعه إلى الاهتمام بشئون السياسة والمشاركة فى مناقشة قضايا وطنه .

وكانت المرحلة الأولى لكفاحه السياسى موجهة إلى النهوض بروح الشعب الأثينى الذى كان قد نبذ تقاليده ، وخمدت حميته وانغمس فى اللهو . كان يرى أن أثينا هى الزعيمة الطبيعية لمدن اليونان التى يجب أن تعيش فى تعاون فلا تعتدى إحداها على الأخرى . ولكى تضطلع أثينا بهذا الدور يجب أولاً أن تكون جديرة به ، ولهذا قدم ديموستين برنامجاً عملياً لإصلاح الأنظمة السائدة بصورة تعزز الديمقراطية ، وتزيد فى ثروة الدولة ، وتضاعف قوتها العسكرية . وأخذ يطالب بإصلاح القوانين وإجراءات التقاضى ، ويهاجم محترفى السياسة والمتطفلين على التشريع ، وينادى بأن تنتصر أثينا لكل مدينة يعتدى عليها حتى تسود العدالة السياسية ويزول الظلم والطغيان . ومن كلماته قوله « إن الظلم والخداع ونقض العهود لا يمكن أبداً أن يؤدى إلى قوة حقيقية . إنها قد تؤدى إلى سيادة وقتية ، ولكن الزمن لا يلبث أن يعصف بما شيدته من أحلام . وكما أن الطبقات السفلى للمنزل يجب أن تكون قوية متينة ، كذلك يجب أن

تقوم كل سياسة على دعائم من الصدق والشرف . . » .

ولكن جهاد « ديموستين » الأكبر الذى وقف عليه حياته ، ومات فى سبيله ، كان فى تنبيه الأثينيين إلى خطر « فيليب » ملك مقدونيا ، وحثهم على الاستعداد للقائه ثم تحريضهم بعد ذلك على مقاتلته .

وكان « فيليب » والد الإسكندر الأكبر ملكاً لمقاطعة مقدونيا فى شمال بلاد اليونان ، وكان يريد أن يبسط نفوذه على بلاد اليونان كلها ، فهب ديموستين واتخذ من فصاحته سلاحاً شهره فى وجه فيليب ليصده عن سلب الإغريق حريتهم واستقلالهم ، وقضى بقية حياته يستنفر شعب أثينا للقتال ، ويحث شعب الإغريق على الثبات والنضال . وقد اشتهرت هذه الخطب باسم الخطب الفيلبية أو الفيليبات Philipics .

فلنستمع إليه فى الخطبة الفيلبية الأولى يحاول أن يشعل الحماسة الوطنية فى شعب أثينا فيقول :

أيها الأثينيون . حتى متى سكونكم وإخلادكم إلى التوانى ؟ متى تدب الحياة فى عروقكم ، ويسرى الشعور بالواجب فى أعصابكم ؟ ماذا تنتظرون ؟هل تنتظرون معجزة تهبط عليكم من السماء ؟ ! أى دافع للنفوس الأبية لعمل الواجب أقوى من تهديد مجدها بالزوال وشرفها بالتمزق وكلمتها بالتفرق ؟ إنه لعار لن يفارقكم ولن يمحوه الموت يوم يواريكم فى قبوركم .

هل الوطنية أن تكتفوا بالذهاب هنا وهناك يسأل بعضكم بعضاً عما جاءه من أنباء فيليب ، فيقول واحد إنه مات ، ويقول الآخر بل هو مريض ! ! ياعجباً . . ! ! عجباً يمزق القلب . أى نبأ هناك غير أن مقدونياً يسعى لقهر أثينا وسحق مجدها واستعباد اليونانيين جميعاً . ماذا

عسى أن تصيبوا من المغانم لو مرض فيليب أو مات أو انقضت على رأسه مصيبة من السماء؟ وحق الآلهة لئن لم تهبوا من رقادكم ليسلطن عليكم فيليب آخر ليس دون هذا فى الشدة عليكم . فإن فيليب ما قوى اليوم إلا بضعفكم ولا تحرك إلا بسكونكم .

ثم يستنكر ديموستين فكرة الاعتماد على الجنود المرتزقة المأجورين فيقول :

— لا تقولوا المرتزقة . نريد رجالاً أحراراً أنبتتهم تربة أثينا يرون سعادتهم فى عزها وشقاءهم فى ذلها ، من أرضها كانت بدايتهم ، وفى أرضها نهايتهم ، منها خلقوا وإليها يعودون كرة أخرى . أولئك هم أباة الضيم الذين يبذلون دماءهم لتخليص شرفها من الأذى » .

ثم يحذرهم من الحرب المباغتة ويدعو إلى الاستعداد لها قبل وقوعها ويقول :

— إن الحروب لا ضابط لها ولا قانون . فهل تريدون الانتظار حتى يأتيكم نبأ الإغارة المفاجئة فيضيع الوقت فى المشاورة وحشد الجيوش وتدبير نفقاتها حتى تفوت الفرصة . وتسقط المواقع التى نريد الدفاع عنها فى يد أعدائنا قبل أن نخف لنجدتها . إذا كنا فعلنا ذلك فيما مضى فلأنه لم تكن لنا تجارب ولم نكن قد ابتلينا بمثله . أما الآن وقد عظم الخطب ، وتفاقم الأمر ، وأصبح فيليب على أبوابنا ، فقد وجبت علينا المبادرة إلى تغيير هذه الخطة الخرقاء . » .

وقد كانت هذه الخطبة . وتهيؤ فيليب للاستيلاء على حصن للأثينيين بالقرب من بيزنطة ، باعثاً لهمة أثينا ، فأصدرت قراراً بتجهيز عدة أساطيل

لحماية ذلك الحصن ، فعدل فيليب عن عزمه ، ولكنه هاجم بعد ذلك « أولنتوس » وهي المدينة الوحيدة من مدن بحر إيجه التي بقي في وسعها أن توقف زحفه ، فاستنجدت بأثينا ، فأسرع ديموستين إلى المنبر يدعو إلى نجدتها ، ويصف سياسة فيليب ويرميه بالنفاق ، ويؤكد لأهل أثينا أن مصلحتهم تقضى عليهم بمقاومة طغيان فيليب ويقول :

– إنكم لا يمكن أن تكونوا أخطأتم أيها الأثينيون إذا أخذتم على عاتقكم عبءالقتال من أجل الحرية والسلامة للجميع . لا وحق آبائنا الأولين الذين قابلوا العدو عند « ماراثون » ، لا وحق بحارة « سالاميس » ، لا وحق أولئك الأبطال من الرجال الشجعان الذين ترقد عظامهم في أرض الوطن ، والذين كللوا هاماتنا بالمجد . أقسم بهم جميعاً ، وبكل من مات في سبيل البلاد . . »

وقد استجابت أثينا لندائه ، وأرسلت حملة عسكرية تضم ثلاثين سفينة وألفين من الجنود المرتزقة ، غير أن سلوك القواد أضاع فائدة هذا المدد ، وبذل « فيليب » الأموال لقضاة « أولنثوس » ففتحوا له أبوابها وسلموه المدينة ، فأباحها للنهب والسلب ، وباع أهلها بيع السلع ، وأقام حفلات فخمة حضرها كثيرون من أنحاء اليونان ، فأحسن لقاءهم وملك قلوبهم بالمال والعطاء ، وعادوا إلى بلادهم فكانوا دعاة للهزيمة وأعواناً لفيليب .

وبسقوط أولنثـوس وإخفاق أثينا في إنقاذها ، قوى في أثينا الحزب الذي يدعو إلى مسالمة فيليب ، والذي يضم خليطاً من الزعماء ، منهم المخلص ، ومنهم المنافق ومنهم الخائن مثل « ديمادس » الذي كان صنيعة فيليب .

وكان ديموستين قد انتخب عضواً فى مجلس الخمسمائة ، وأخذ يعلن فيه آراءه السياسية التى فرضتها عليه الأوضاع الجديدة ، واضطر إلى مسايرة دعاة السلم ، فأرسلت أثينا وفداً للصلح مع فيليب ، وقد نص اتفاق الصلح على أن يكف الطرفان عن الحرب مع احتفاظ كل منهما بما تحت يده من البلاد .

ولكن هذا الصلح ما كان ليدوم مادام فيليب لا يعدل عن أطماعه ، فقد أخذ يعمل لعزل أثينا عن باقى المدن الإغريقية ، وعاد ديموستين يجوب أنحاء اليونان ليكشف عن نيات فيليب ، ويحث المدن اليونانية على التحالف مع أثينا ويحرض الأثينيين على الاستعداد والتأهيب للقتال ، ويقول لهم :

– إن الصداقة التى تعقد بين الجمهوريات وبين الطغاة ليست بالصداقة الوثيقة التى يركن إليها . ماذا تريدون ؟ الحرية ؟ ألا ترون إذن أن ألقاب فيليب نفسها هى إنكار لهذه الحرية التى تنشدونها ؟ إن كل حاكم مستبد هو عدو للحرية وعدو للقانون . إنكم تحاولون تجنب الحرب ، ولكننى أخشى أن تقودكم هذه المحاولة إلى الوقوع تحت نير الاستعباد . . » .

ومضى « ديموستين » يخطب ويخطب ، ومهما حاولنا نقل بعض ما جاء فى خطبه فستظل كلماتها رماداً متخلفاً عن نار الحياة وحرارتها بعد أن قام بينها وبين العالم ستار الموت والخلود ، وسيظل الحجاب قائماً بيننا وبين الخطيب ومنصة ، والجمهور وحماسته ، والزعيم وحرارته .

هذا هو ديموستين يرسم لأهل أثينا سياسة عملية فيقول فى خطبة له فى المجلس :

– إن منكم ياأهل أثينا من يعتقد أنه يحرج الخطيب إذا سأل : فماذا نفعل ؟ ولكنى أتلقف هذا السؤال وأجيب عليه فأقول لكم لا تفعلوا شيئاً مما تفعلونه الآن وافعلوا كل شيء لم تفعلوه ! وإنه لجواب حق وصدق . ولكنى سأزيد لكم الأمر إيضاحاً ، ولعل أولئك الذين سارعوا إلى السؤال يسارعون أيضاً إلى العمل . اذكروا أولاً أن فيليب قد نقض عهدكم ؛ وهذه حقيقة لامراء فيها ولا محل للخلاف عليها . ثم اذكروا أيضاً أنه عدو أثينا الألد ، عدوها الذى يكره أرضها وأسوارها ، بل يكره أولئك الذين يظنون منكم أنهم نالوا حظوة لديه . إن أعظم ما يخشاه فيليب ويمقته هو حريتنا ونظامنا الديمقراطى ، وإنه ليهيىء أشراكه لكي يقضى على هذه الحرية وهذا النظام ، لأنه يعلم جيداً أنه لو أخضع جميع بلاد الإغريق فسوف يظل غير آمن مادامت ديمقراطيتكم سليمة لم تمس . وهو يعلم أنه لو أصابته الأقدار بهزيمة فإن جميع هذه البلاد التى قهرها سوف تسارع إلى الانضمام إليكم لاستعادة حريتها . إن فيليب لا يطيق الصبر على هذه الحرية الأثينية التى تقف موقف الجاسوس يرقب شروره وآثامه ، فهو يعبىء جيوشه وينصب أشراكه لقتالنا .

والآن ماذا يجب عليكم أن تفعلوا ؟ يجب أن يسارع كل منكم إلى التبرع بنسبة ما يملك ، ثم انهضوا بالجيش واحتفظوا بقوت مسلحة قوية حتى إذا تهيأ فيليب لغزو الإغريق وجدتم الجيش اللازم لصده وإمداد حلفائكم . لا تحدثونى عما يحتاج إليه هذا العمل من نفقات ومتاعب ، فإنى لست أنكرها ولكنها تهون كلها إذا نظرنا إلى الخطر الذى يتهددنا .

هل تظنون أن فيليب لن ينالكم بأذى إذا ظللتم وادعين لا تحفلون بما

يعمل ؟ لو أكد لكم ذلك أحد الآلهة فإنى لا أشير به عليكم ! أجل . . إنه لخير لى أن أهلك من أن أشير عليكم بهذا ، فليشر به من يشاء غيرى ، واستمعوا لأقواله إذا أردتم . أما إذا كنتم تشعرون بما أشعر به ، وترون معى أنه كلما امتدت فتوحات فيليب كان فى ذلك تقوية له وسند يشد أزره علينا حين نضطر إلى مكافحته . . إذا كنتم ترون ذلك فلم ترددون ؟ وماذا تنتظرون ؟ هل تنتظرون حتى تقع الواقعة ويضيع الشرف ؟ هل تنتظرون حتى تشاهدوا رجال فيليب فى طرقات أثينا يلقونكم بالصفع والجلد ؟ ألا لا قدرت الآلهة . . فإن مجرد النطق بهذه الكلمات ذل ومهانة . . »

بهذه الكلمات التى تتقد حماسة وإخلاصاً كان ديموستين يدعو الأثينيين إلى القتال ، ولم تكن هذه الخطب مجرد عبارات حماسية تستهوى السامعين . ولكنها كانت تحوى من أدلة الإقناع ما جعل فيليب نفسه يقول عن ديموستين : « إنى لأعطيه صوتى ليعلن الحرب على بلادى وأسلمه قيادة الجيوش . . »

وما أعظم هذه الشهادة من عدوه الذى كان هدفاً لسهام بلاغته ، والفضل ما شهدت به الأعداء .

* * *

ولا يتسع المجال هنا لتفصيل ما كان من نزاع وحروب بين مقدونيا وأثينا وحسبنا أن نذكر أن الحوادث كانت تجد ديموستين دائماً فى انتظارها ، وأن الخطوب كانت تلقاه مترصداً لها يلقاها أقوى ما يكون إيماناً ، وأثبت جناناً ، وأفصح لساناً ، لا يخشى العدو الظافر الذى كان يكتسح البلاد من حوله ، بل كان ذلك يزيده إيماناً بصحة فكرته ، وصدق دعوته . وعبثاً حاول « فيليب » أن يشتريه بالمال كما اشترى غيره من زعماء أثينا وخطبائها .

وقد جرد فيليب الحملات على تراقيا واحتل كثيراً من مدنها ، ولما رأت بلاد الفرس تقدم « فيليب » وتوغله عملت على محاربته ، فقام ديموستين يحث أثينا فى الخطبة الفيلبية الأخيرة على انتهاز الفرصة وتخليص بيرنثوس وبيزنطة من فيليب ، فسيرت أثينا إليها أسطولا ضخماً ، تبرع ديموستين بشراء وتجهيز إحدى سفنه من ماله الخاص ، فلم ينجح فيليب فى الاستيلاء على بيزنطة واضطر إلى رفع الحصار عنها والعودة خائباً . وارتفعت مكانة ديموستين فى أعين أهل أثينا ، فأهدوه تاجاً من الذهب اعترافاً بفضله وتقديراً لجهاده .

ولكن فيليب عاد فاستولى على بعض المدن التى تفتح أمامه الطريق لجنوب اليونان ، وهدد بذلك أثينا ، فدعا ديموستين إلى الحرب ، وسافر إلى بيوثيا ، وحملها بسحره على التحالف مع أثينا ، والتقى الجيشان ، ولكن فيليب هزمهما هزيمة نكراء ، وإن كان قد قتل بيد أحد ضباطه وهو يحتفل بانتصاره وخلفه ابنه الإسكندر الأكبر .

وعندما ذاع خبر قتل « فيليب » عمت الفرحة بلاد اليونان ، وحمل أهل أثينا ديموستين على الأعناق وأدخلوه إلى المجلس العام وعلى رأسه إكليل من الزهر ، فهاجم سياسة مقدونيا ، ودعا مواطنيه إلى الثورة على الإسكندر . وأرسلت أثينا بناء على نصيحة ديموستين سفراءها إلى البلاد اليونانية تدعوها إلى مقاومة خليفة « فيليب » والثورة عليه ، فتمردت مدينة « ثيبا » وأعلنت العصيان .

ولكن الإسكندر أسرع بالعودة من آسيا الصغرى لإخماد حركات التمرد ، وزحف على « ثيبا » وسحق ثورتها ، ونكل بأهلها ، ودمر جميع

منازلها ولم يبق منها غير منزل واحد هو منزل الشاعر « بيندار » .

وبدأت « أثينا » تستعد للحصار وقد عصف بها الرعب ، ولكن الإسكندر لم يزحف عليها ، واكتفى بإرسال وفد يطلب باسمه تسليم عدد من الزعماء والقواد اعتبرهم مسئولين عن الحركات المعادية له ، وكان فى طليعتهم ديموستين .

واستولت الحيرة على أثينا بشأن هذا الطلب ، وتناقش فيه مجلسها ، واشترك ديموستين فى المناقشة ، وروى قصة قال فيها إن الذئاب عاهدت الرعاة مرة على ألا تهاجم القطيع إذا سلموها كلاب الحراسة ، فقبل الرعاة ؛ ولكن الذئاب عندما رأت الحظيرة بعد ذلك خالية من كلاب الحراسة هاجمت القطيع وفتكت به .

ورفض المجلس طلب تسليم الزعماء والقواد ، وأرسل إلى الإسكندر وفداً يلتمس منه العفو عن خصومه ، فنجح الوفد فى مسعاه ، وتم الصلح بين أثينا والإسكندر المقدونى .

واندفع الإسكندر يتابع سياسة أبيه ، وحقق انتصارات كبيرة فى كل مكان ، ثم انحدر بجيشه الظافر حتى بلغ الهند .

وكان « ديموستين » فى خلال ذلك يتبع سياسة الحذر حتى لا يعرض أثينا لما تعرضت له « ثيبا » من دمار . وامتزجت حياة ديموستين فى هذه الفترة بقصة غريبة . ذلك أن « هار بال » الذى كان وزيراً لمالية الإسكندر تمرد عليه ، وانتهز فرصة انشغاله بالحرب فى آسيا فاستولى على مبلغ طائل من أمواله ، وجهز أسطولاً من ثلاثين سفينة ، وجيشاً من المرتزقة ، وهرب إلى شاطئ أثينا ليشعل الثورة على الإسكندر . ولكن أثينا رفضت قبوله

بنصيحة ديموستين ، فذهب « هاربال » بمفرده إلى « أثينا » وأعلن فى مجلسها العام أنه يضع نفسه وأمواله وجنوده ومراكبه تحت تصرفها ، موهماً إياها أن قواد الإسكندر يتحفزون للتمرد عليه . وانقسم أهل أثينا إلى فريقين ، فكان فريق يرى التعاون مع « هاربال وإعلان الحرب على الإسكندر الذى كان مشغولاً بحربه فى آسيا ، ورأى فريق آخر على رأسه ديموستين إبعاد « هاربال » وعدم الزج بأثينا فى حرب لا تملك فيها من القوى ما يؤهلها لمواجهة قوى الإسكندر التى بلغ من تعاظمها أنها أطمعت صاحبها فى غزو العالم كله . وفى غمرة هذه الحيرة أرسلت أم الإسكندر والقائد المقدونى « أنتيباتر » الوصيين على مقدونيا ، وفداً إلى المجلس الأثينى العام يطلبان منه تسليم « هاربال » والمال الذى فى حوزته . واقترح « ديموستين » القبض على « هاربال » وحراسته حتى يعود الإسكندر وحفظ المال الذى معه فى الأكربول . فوافق المجلس على الاقتراح . ولكن « هاربال » هرب بعد ذلك من المعتقل ، وتبين أن نصف المال الذى كان مودعاً فى الأكروبول قد اختفى . ولما كان هذا المال محفوظاً تحت إشراف لجنة يرأسها ديموستين ، فقد اتهمه خصومه بالإهمال الجسيم فى مراقبة الحراس ، وأثاروا الشك حوله ، فطلب ديموستين من المجلس تكليف لجنة لتحقيق الموضوع وأعلن أنه يقبل حكم الموت إذا تبين أنه أخذ شيئاً من هذا المال . وانتهى التحقيق بإدانة ديموستين ، دون تقديم دليل مادى على هذه الإدانة ، فحكم عليه بأن يدفع غرامة قدرها خمسون وزنة .

ولكن ديموستين هرب إلى إحدى الجزر حيث أقام فى منفاه بعيداً عن أثينا .

ولم تمض شهور على مغادرة ديموستين وطنه ، حتى توفى الإسكندر فى مدينة بابل عام ٣٢٣ ق . م بتأثير الحمى . وهبت أثينا مرة أخرى للتخلص من النفوذ المقدونى ، وانهارت مكانة صنائع مقدونيا ، وأصدر المجلس العام قراراً بدعوة ديموستين للعودة إلى بلاده ، فعاد إلى أثينا كما يعود الأبطال الظافرون ، وخرج لاستقباله الأهالى يتقدمهم القضاة والحكام والكهان .

وبهذا الاستقبال سقطت عن ديموستين العقوبة المعنوية . ولجأ المجلس العام إلى نوع من الحيلة لإعفائه من الغرامة الضخمة التى حكم بها عليه والتى لم يكن يجيز القانون إلغاءها . فقد كان من المعتاد أن يمنح الرجل الذى يقدم الضحية لمذبح الإله « زيوس » مبلغاً من المال ، فعهد المجلس إلى ديموستين القيام بهذه المهمة فى مقابل « خمسين وزنة » وهى قيمة الغرامة .

وكانت الحرب قد اشتعلت بين أنتيباتر Antipater الذى خلف الإسكندر على حكم مقدونيا واليونان ، وبين البلاد الإغريقية الثائرة على حكمه وعلى رأسها أثينا ، وحققت البلاد الثائرة بعض الانتصارات اللامعة فى أول الأمر ، ولكنها لم تلبث أن هزمت فى موقعة كرانون Crannon سنة ٣٢٢ ق . م ، واقتربت الجيوش المنتصرة من أثينا .

وبدأت البلاد المحاربة ترسل وفودها إلى القائد المقدونى لمفاوضته فى الصلح ، واستعاد الحزب الموالى لمقدونيا فى أثينا نفوذه القديم فأرسلت أثينا تطلب الهدنة من أنتيباتر .

وأعلن انتيباتر استعداده للتوقف عن مهاجمة أثينا بشرط أن تخضع لمطالبه ومنها تسليم عدد من الزعماء الوطنيين فى مقدمتهم ديموستين .

واستطاع « ديمادس » أكبر خصوم ديموستين أن يحمل المجلس على قبول شروط القائد المنتصر .

وأدرك الخطيب العظيم أنها النهاية . فهرب إلى جزيرة كالوريا ، ولجأ إلى معبد الإله « بوسيدن » الذى كان حرماً يقدسه أهل اليونان .

وكان « أنتيباتر » قد أرسل عملاقاً من أتباعه يدعى « أركياس » الذى بدأ حياته ممثلاً للقبض على ديموستين ، فحاصر المعبد مع فرقة من فرسان تراقيا ، وحاول أن يحمل ديموستين على الخروج من المعبد المقدس ، فأخذ يؤكد له أن القائد المقدونى سيعفو عنه لو سلم نفسه .

وجلس ديموستين صامتاً يحدق فى الأرض وكأنما كان يدبر فى رأسه أمراً ثم نظر إلى أركياس وقال له متهكماً :

– إنك يا أركياس لم تستطع يوماً أن تؤثر فى بتمثيلك ، ولن تستطيع اليوم أن تؤثر فى بوعودك .!

فغضب أركياس ، وبدأ يهدد ويتوعد ، فقال له ديموستين :

– إنك تتكلم الآن كمقدونى ، أما قبل ذلك فقد كنت ممثلاً زائفاً .

ولمعت عينا ديموستين بعزم رهيب ، فقال لرسول أنتيباتر :

– انتظر حتى أكتب لأصدقائى .

ثم انسحب إلى داخل المعبد ، ولكنه كان ظاهراً لمن فى الخارج ، وتناول قصاصة ورق ، ثم جلس أمام منضدة فى الهيكل كأنه يريد الكتابة ، ووضع القلم فى فمه وعض عليه بأسنانه كما كانت عادته عند الكتابة ، ثم تقلصت عضلات وجهه فمال برأسه إلى الخلف ، وسحب عباءته فغطى بها وجهه . ورأى ذلك الواقفون بباب المعبد ، فظنوا أن الخوف قد

استولى على الخطيب العظيم ، ودخل إليه أركياس يريد أن يشجعه على النهوض ويكرر وعوده ومساوماته .

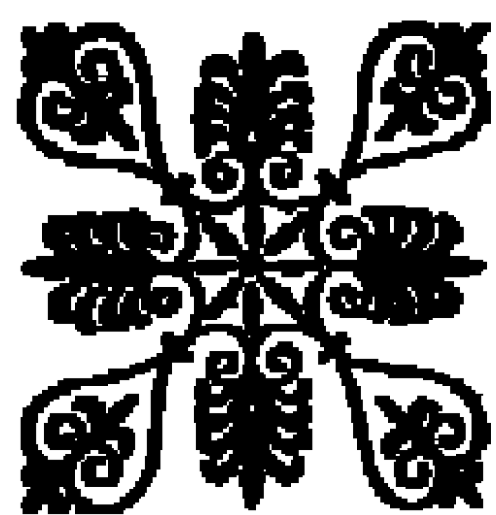
وكان ديموستين قد شعر بأن السم الذى امتصه من القلم بدأ يسرى فى أوصاله ، فأزاح العباءة عن وجهه وقال لأركياس :

– يمكنك الآن أن تلعب فى المأساة دور « كريون » كما تشتهى ، ويستطيع أعداء أثينا أن يطرحوا جثتى للجوارح بغير اكتراث ، ولكننى أيها الإله الكريم « بوسيدن » أترك معبدك ومازلت حياً كى لا أسمح لأنتيباتر ورجاله أن يدنسوا قداسته .

وتحرك ديموستين نحو الباب وهو يناديهم ويطلب إليهم أن يساعدوا خطواته المترنحة . ولم يكد يتخطى عتبة معبد الإله حتى انهارت قواه فسقط ، وفى صيحة أخيرة أسلم الروح .

الإمام عليّ

« لا يفتينّ أحد فى المسجد « وعليٌّ » حاضر »
عمر بن الخطاب



الإمام على

كان « على بن أبى طالب » إمام الفصحاء ، وسيد البلغاء ، وكان كلامه أبلغ كلام بعد القرآن والحديث . وقد فاضت كتب التاريخ العربى بالكثير المأثور عن فصاحته ومنزلته العلمية ، ومقدرته الخطابية :

قال « عبد الحميد بن يحيى » :

– حفظت سبعين خطبة من خطب الأصلع ، ففاضت ثم فاضت . .

وقال ابن نباتة :

– حفظت من الخطابة كنزاً لا يزيده الإنفاق إلا سعة وكثرة . حفظت مائة فصل من مواعظ على بن أبى طالب .

وكان الإمام على رضى الله عنه واسع المعرفة ، فما سمعنا بعلم من العلوم الإسلامية أو العلوم القديمة لم ينسب إليه ، فكان أبرع الصحابة فى علوم الدين ، إماماً فى الفقه والتفسير ، حجة فى الفتيا . وكان عمر ابن الخطاب يرجع إليه فى كثير مما يشكل عليه من المسائل ، وروى عنه أنه كان يقول : « لولا علىّ لهلك عمر » ، ويقول « لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن » . كما روى عنه أنه قال « لا يفتين أحد فى المسجد وعلىّ حاضر » .

وكان النبى عليه الصلاة والسلام يقول « أقضاكم علىّ » ، وكان النبى قد دعا له عندما بعثه قاضياً إلى اليمن فقال « اللهم اهد قلبه وثبت لسانه » .

والإمام على هو الذى ابتدع علم النحو . وأملى أصوله الأولى على أبى الأسود الدؤلى ، وقد اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الكلام والتوحيد ، كما اتصلت بينه وبين علماء الفقه والشريعة ، وعلماء الأدب والبلاغة ، فهو أستاذ هؤلاء جميعاً ، وكان لذلك أحق الأئمة بلقب الإمام .

سئل عبد الله بن عباس ، وكان من أعلم الصحابة فى الفقه والدين والتفسير: « أين علمك من علم ابن عمك ؟ » فقال « كنسبة قطرة المطر إلى البحر المحيط . . » .

وكانت هذه الثقافة الواسعة ، والإحاطة الشاملة مادة خصبة تغذى خطبه وأحاديثه فتضفى عليها الجد والرصانة ، وتهيئ له الحكمة وفصل الخطاب .

وكان رضى الله عنه يعتز بعلمه ، ويؤثر عنه أنه كان يقول : « اسألونى قبل أن تفقدونى ، فو الذى نفسى بيده ، لا تسألونى فى شىء فيما بينكم وبين الساعة ، ولا عن فئة تهدى مائة وتضل مائة ، إلا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ومناخ ركابها ومحط رحالها . . » .

أما أسلوبه فى الكتابة فكان أسلوب الأديب الذى سبق غيره إلى التفنن والتجويد ، وأضفى على الكتابة صبغة الإنشاء الذى يقتدى به فى الأساليب .

وقد نسب إليه ديوان من الشعر يحوى ألفاً وأربعمائة بيت أكثرها فى الحكمة والزهد والابتهال ، غير أن هذا الشعر مشكوك فى صحة نسبه إليه . أما النثر فقد وصل إلى أيدينا الكثير مما جمعه الرواة ، وهو يشمل خطبه وكلماته فى الحكم والمواعظ والأمثال وغير ذلك . وأشهر هذه الكتب « نهج البلاغة » وهو ما جمعه الشريف الرضى من خطب الإمام

ورسائله وكلماته ، وإن كان يشتمل بدوره على جزء مشكوك فيه . مما أقحمه الرواة على كلام الإمام .

هذا هو الإمام العالم الفقيه الأديب ، ومن هذه العناصر يبرز الإمام الخطيب . فإذا قرأنا خطبه ، تمثل لنا الأمام خطيباً نادر المثال . عقل ذكى ، واسع الأفق ، يلم بشتى العلوم ، ومعرفة دقيقة بطبائع الأشخاص وخصائص الأشياء ، وأسلوب يمتاز بالجزالة والفحولة ، يتدفق بالقول البليغ المقنع ، يخاطب العقول والقلوب .

وكانت له من الصفات ما يلزم الخطيب فى مثل عصره والمجتمع الذى عاش فيه . فكان شجاعاً تضرب الأمثال بشجاعته ، ويروى عنها ما يشبه الأساطير . فكان الخطيب الصريح الجرىء الذى يجهر بما يعتقده حقًّا لا يعرف نفاقاً أو رياء ، يجبه الناس برأيه واضحاً صريحاً . ويخاطبهم وقد تثاقلوا عن نصرته وحرب أعدائه فيقول لهم : « يا أشباه الرجال ولا رجال ، وياطغام الأحلام ، وياعقول ربات الحجال . . ! »

ويقول لهم من خطبة فى غارة الضحاك بن قيس على الحيرة :

— أيها الناس المجتمعة أبدانهم ، المختلفة أهواؤهم . كلامكم يوهى الصم الصلاب ، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء . ما عزت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم . أعاليل بأضاليل ! أى دار بعد داركم تمنعون ! ؟ ومع أى إمام بعدى تقاتلون ؟

المغرور والله من غررتموه ، ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخيب . أصبحت لا أصدق قولكم ، ولا أطمع فى نصركم ، ولا أوعد العدو بكم . ما بالكم ؟ ما دواؤكم ؟ ما طبكم ؟ القوم رجال أمثالكم .

أقولا بغير علم ، وغفلة عن غير ورع ، وطمعاً فى غير حق . . ؟ »

وكان حاضر البديهة ، سريع الجواب ، يسعفه علمه الواسع بالرد المطلوب .

كان يخطب على المنبر فى الكوفة ، فسأله رجل عن نصيب الزوجة فى ميراث ميت ترك زوجة وأبوين وابنتين ، فأجابه على الفور « صار ثمنها تسعاً . » . ومضى فى خطبته .

وقد اشتهر عليه السلام بسماحة الخلق ، وطلاقة الوجه ، وكثرة الابتسام ، وهى صفات محبوبة فى الخطيب . وقد روى عن عمر بن الخطاب أنه كان يقول له : « لله أبوك لولا دعابة فيك » . !

وقد حاول عمرو بن العاص استغلال هذا الأمر فى محاربة على ، فأخذ يردد بين أهل الشام أن علياً ذو دعابة شديدة ، ليقدح بذلك فى صلاحيته للخلافة ، حتى اضطر الإمام إلى الرد عليه ، فقال فى إحدى خطبه :

— « عجباً لابن النابغة ، يزعم لأهل الشام أن فىّ دعابة ، وأنى امرؤ تلعابه[1] . لقد قال باطلا ، ونطق آثماً . إنه ليقول فيكذب ، ويعد فيخلف ويسأل فيلحف ، ويُسأل فيبخل ، ويخون العهد ، ويقطع الآل . . إلخ »

ولكن هذه الدعابة المنسوبة إليه إن صحت ، كانت تقربه إلى القلوب ولا تنتقص من هيبته .

قال معاوية لقيس بن سعد :

— رحم الله أبا الحسن ، لقد كان هاشاً بشاً ذا فكاهة .

(١) كثير اللعب والمزاح

فقال قيس :

– أما والله لقد كان مع تلك الفكاهة والطلاقة أهيب من ذى لبدتين(١) قد مسه الطوى(٢) .

وقال « ضرار » من كلام له فى وصفه رضى الله عنه ، عندما ألح عليه معاوية أن يصفه ، قال :

– كان يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه . كان فينا كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه ، وينبئنا إذا استنبأناه ونحن مع تقريبه إيانا وقربه منا ، لا نكاد نكلمه لهيبته ، ولا نبتدئه لعظمته .

هذه بعض صفات الإمام الخطيب ، وملامح نفسه التى تشترك فى تكوين شخصيته كخطيب .

أما ملامح جسمه فقد ذكر من وصفوه أنه كان ربعة فى الرجال ، أسمر اللون ، أصلع الرأس ، طويل اللحية ، له عينان دعجاوان واسعتان ، حسن الوجه ، واضح البشاشة ، عريض المنكبين ، قوى العضل ، يميل إلى السمنة فى غير إفراط ، يتكفأ فى مشيته على نحو يقارب مشية النبى صلى الله عليه وسلم وكان رائع الصوت قويه ، يصيح الصيحة فى الحرب فتنخلع لها قلوب الشجعان .

هذا هو علىّ ، الفارس الشجاع ، والفقيه العالم ، والخطيب البليغ ، تمتزج هذه الصفات كلها بنفسه ، لتكمل لنا ملامح الخطيب ، فإذا

(١) كناية عن الأسد .

(٢) الجوع

هو سيد المنابر فى عصره ، ونموذج رائع للخطيب العظيم فى كل العصور .

فما هى العوامل التى هيأت له هذه المنزلة الرفيعة فى عالم البلاغة والخطابة ؟

هذا سؤال يسهل الجواب عليه لمن ينظر فى نشأة الإمام وتاريخه .

فالإمام عليه السلام كان من البيت الهاشمى ، أكرم عناصر قريش ، وأفصح العرب لساناً ، وكان جده « كعب بن لؤى » وهو الجد السابع له وللنبي ، من أقدم خطباء العرب ، ولما مات أكبروا موته وأرخوا به حتى كان عام الفيل . وكان أجداده قصى وهاشم وعبد المطلب ، وأبوه أبو طالب ، كلهم من خطباء العرب المعدودين .

ولما بلغ « على » السادسة من عمره أصابت قريشاً أزمة وقحط . فأشار النبي على عميه حمزة والعباس أن يعاونوا أبا طالب فى تربية أولاده ، فكان « على » من نصيب النبي عليه الصلاة والسلام . وهكذا نشأ « على » فى بيت النبوة ، ينعم برعاية ابن عمه العظيم ، حتى إذا أظهر الرسول دعوته ، كان (على) أول من آمن به من الصبيان ، وكرم الله وجهه عن السجود للأوثان .

شب على فى حجر النبي ، أفصح الناس وأبلغهم ، فكان النبي أستاذه الأول ، ثم تعلم الكتابة وهو صغير ، ودرس الكلام البليغ من روايات الألسن وتدوين الأوراق . ولما نزل القرآن كان من كتاب وحى النبى ، وكان أول من حفظ القرآن كله ، واشتغل بجمعه وتدوينه ، فتتلمذ بعد الرسول على القرآن ، أبلغ كلام عربى عرفه الناس ، وجعله موضوعاً للدرس والتفكير ، ومصدراً للاقتباس والإلهام .

ولقد ساعده على ذلك أنه بقى نحو ثلاثين سنة بعيداً عن مشاغل الحكم والسياسة ، متفرغاً أو يكاد يتفرغ لفنون البحث والدراسة ، ثم بويع بالخلافة بعد فتنة من أروع الفتن الدامية فى تاريخ الإسلام ، وهى مقتل الخليفة عثمان بن عفان . ومنذ اليوم الأول لخلافته لم تهدأ الفتن ، بل زادت واستفحل أمرها ، وثارت فى وجهه عناصر مختلفة الأغراض والأهداف ، ولكنها كلها تجتمع على مقاومته وحربه ، وهكذا قضى أيام خلافته كلها يجاهد العناصر الثائرة ، ففجرت هذه الأحداث والخطوب فى قلبه ينابيع البلاغة ، وجرت على لسانه الخطب الخالدة فيما اقتضته تلك الظروف العصيبة من أغراض ، واتسع المجال أمام فصاحته للظهور .

* * *

هذه لمحة عن العوامل التى هيأت للإمام « على » الوصول إلى تلك المنزلة الرفيعة من البلاغة بحيث كان أفقه العلماء ، وأبلغ الخطباء فى زمانه . فما هى الأغراض التى كانت تدفع به إلى المنبر ، ليلقى فى سمع التاريخ تلك الكلمات البليغة الخالدة ؟

كانت الأغراض التى تناولها الإمام فى خطبه مختلفة منوعة . وإن من يطالع مجموع هذه الخطب ليأخذه العجب من تنوع أغراضها ، وتعدد نواحيها ودواعيها . وقد سبق غيره إلى الكلام فى موضوعات لم يطرقها الخطباء ، ولم يدون لأحد من الخلفاء والصحابة مثل مادون له من خطب كثيرة تدل على اتساع أفق تفكيره ، وشمول ثقافته . كما أن الأحداث العصيبة التى واجهها فى سنوات خلافته ، فتحت أمامه أبواباً جديدة للخطابة ، فكان « نهج البلاغة » كما قال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده :

« حاوياً جميع ما يمكن أن يعرض للكاتب والخطيب من أغراض الكلام فقد تعرض للمدح والذم الأدبى ، وللترغيب فى الفضائل ، والتنفير من الرذائل وللمحاورات السياسية ، والمخاصمات الجدلية ، ولبيان حقوق الراعى على الرعية وحقوق الرعية على الراعى ، وأتى على الكلام فى أصول المدنية ، وقواعد العدالة ، وفى النصائح الشخصية والمواعظ العمومية . . . »

ولقد جاء الإسلام ففرض على الناس صلاة الجمعة ، ومن أركانها خطبة يلقيها الإمام قبل أن يصلى بالناس . والغرض من هذه الخطب وعظ الناس وإرشادهم إلى ما ينفعهم فى أمور دينهم ودنياهم . وإننا حين نقرأ خطب الإمام فى هذا الغرض نجده قد طبعها بطابعه ، وأفاض عليها من علمه وتفكيره . فهو يتحدث فيها عن الله سبحانه وتعالى حديث المفكر المتأمل ، يستدل على وجوده تعالى ببدائع صنعه ، وعجائب مخلوقاته ، فتراه يصف لسامعيه فى بعض خطبه الطاووس والخفاش والنملة وصفاً هو آية فى الدقة والبلاغة ، ليبين لهم حكمة الله ومقدرته ، ويذكر فى بعض هذه الخطب من صفات الله ما كان فى الواقع أساساً لعلم التوحيد وهو يعظ السامعين ليزهدهم فى التكالب على الدنيا ، ويحبّب إليهم التزودللآخرة بالعمل الصالح ، والجهاد فى سبيل الله . ويصف لهم الأنبياء السابقين ، والقرون الماضية ، والعهود الخالية ، ويستخلص من ذلك العبرة والموعظة الحسنة .

ولهذا كانت خطب الإمام فى الوعظ فريدة فى بابها . كانت مزيجاً من حرارة إيمانه ، وغزير علمه ، وعمق تفكيره . وكان يلقى ذلك كله على الناس فى أسلوب جزل بليغ .

فمن كلامه فى خطبة طويلة سميت بالخطبة الغرّاء يعظ الناس ويحذرهم وسوسة الشيطان :

– أوصيكم بتقوى الله الذى أعذر بما أنذر ، وحذركم عدواً نفذ فى الصدور خفياً ، ونفث فى الآذان نجياً ، فأضل وأردى ، ووعد فمنى ، وزين سيئات الجرائم ، وهوّن موبقات العظائم ، حتى إذا استدرج قرينته ، واستغلق رهينته أنكر مازين ، واستعظم ما هوّن .

ومنها يصف خلق الإنسان :

« أم هذا الذى أنشأه فى ظلمات الأرحام ، نطفة دهاقاً ، وعلقة محاقاً ، وجنيناً وراضعاً ، ووليداً ويافعاً ، ثم منحه قلباً حافظاً ، ولساناً لافظاً ، حتى إذا قام اعتداله ، واستوى مثاله ، نفر مستكبراً ، وخبط سادراً ، ماتحا فى غرب هواه(١) ، كادحاً سعياً لدنياه . . »

ثم يصف لهم سكرة الموت ، ووحشة القبر ، وعذاب الآخرة ، حتى قيل فى خبر هذه الخطبة ، إنه لما خطبها اقشعرت الجلود ، وبكت العيون ، ورجفت القلوب .

ومن خطبة له فى وصف الله سبحانه وتعالى :

– لا يشغله شان ، ولا يغيره زمان ، ولا يحويه مكان ، ولا يصفه لسان . لا يغرب عنه عدد قطر الماء ، ولا نجوم السماء ، ولا سوافى الريح فى الهواء ، ولا دبيب النمل على الصفا ، ولا مقيل الذر(٢) فى الليلة الظلماء ، يعلم مساقط الأوراق ، وخفىّ طرف الأحداق . . إلخ .

---

(١) متح الماء نزعه ، والغرب هو الدلو ، أى لا يستقى إلا من هواه .

(٢) الذر صغار النمل .

ومن كلام له يذكر فيه حكاية أخيه « عقيل » عندما جاءه يطلب منه أن يعطيه من بيت المال ما يستعين به على إطعام أولاده . وكان عقيل قد كبر وكف بصره ، فأحمى الإمام حديدة وقدمها إليه ، فظنها عقيل صرة مال ، فأهوى إليها بيده فأحرقتها ، قال :

– والله لقد رأيت عقيلاً وقد أملق حتى استماحنى من بُركم[١] صاعاً ، ورأيت صبيانه شعث الشعور ، غبر الألوان من فقرهم ، وعاودنى مؤكداً ، وكرر على القول مردداً ، فأصغيت إليه سمعى ، فظن أنى أبيعه دينى وأتبع قياده مفارقاً طريقتى . فأحميت له حديدة ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها ، فضج ضجيج ذى دَنَف[٢] من ألمها ، وكاد أن يحترق من ميسَمها[٣] . فقلت له ثكلتك الثواكل يا عقيل ، أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه ، وتجرنى إلى نار سجرها[٤] جبارها لغضبه ، أتئن من الأذى ولا أئن من اللظى ؟

والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصى الله فى نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت . وإن دنياكم عندى لأهون من ورقة فى فم جرادة تقضمها . ما لعلى ولنعيم يفنى ، ولذة لا تبقى ؟ ! نعوذ بالله من سبات العقل ، وقبح الزلل ، وبه نستعين » .

---

(١) البر بضم الباء القمح .
(٢) المرض الشديد .
(٣) الميسم المكواة .
(٤) أحماها .

وقال فى خطبة له يصف بها المتقين ، وكان صاحب له يدعى « همام » قد ألح عليه أن يصف له المتقين حتى كأنه ينظر إليهم ، فقال :

« المتقون هم اهل الفضائل ، منطقهم الصواب ، وملبسهم الاقتصاد . عرضت لهم الدنيا فلم يريدوها ، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها . . » إلى أن قال :

— ومن علامة أحدهم أنك ترى له قوة فى دين ، وحزماً فى لين ، وإيماناً فى يقين ، وحرصاً فى علم ، وعلماً فى حلم ، وقصداً فى غنى ، وخشوعاً فى عبادة ، وتجملاً فى فاقة ، وصبراً فى شدة ، وطلباً فى حلال ، ونشاطاً فى هدى ، وتحرجاً عن طمع ، يعفو عمن ظلمه ، ويعطى من حرمه ، ويصل من قطعه . نفسه منه فى عناء ، والناس منه فى راحة ، أتعب نفسه لآخرته وأراح الناس من نفسه . إلخ »

بمثل هذه الكلمات البليغة القوية كان يعظ الناس . وعندما بويع بالخلافة فى المدينة ، خطب الناس ، فكان مما قاله فى خطبته :

— ذمتى بما أقول رهينة ، وأنا به زعيم . إن من صرّحت له العبر عما بين يديه من المثلات ، حجزته التقوى عن تقحم الشبهات . ألا وإن بليّتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيكم صلى الله عليه وآله . والذى بعثه بالحق ، لتبلبلن بلبلة ، ولتغربلن غربلة ، ولتساطن سوط القدر ، حتى يعود أسفلكم أعلاكم ، وأعلاكم أسفلكم . ألا وإن الخطايا خيل شُمْس ، حُمل عليها أهلها ، وخلعت لجمها ، فتقحمت بهم النار . ألا وإن التقوى مطايا ذُلُل حُمل عليها أهلها ، وأعطوا أزمتها فأوردتهم الجنة .

* * *

لم تكن خطب الإمام « على » وعظاً وإرشاداً فحسب ، فإن أروع خطبه تلك التى تتصل بالفتن التى امتزجت بسنوات خلافته . ذلك أنه لم يكد يبايع بالخلافة حتى بدأت متاعبه ، فتجلت فى الخطابة مواهبه . فقد نقض طلحة والزبير البيعة ، وانضمت إليهما السيدة عائشة ، وخرج عليه معاوية بالشام ، ثم انقسم أتباعه بعد موقعة « صِفِّين » وعصته فئة سميت بالخوارج . ووقف الإمام وسط هذه العواصف الهوج يكافح ويناضل ، ويجاهد بيده ولسانه ، ورويت عنه فى هذا الكفاح أروع خطبه .

فعندما أحاط الثائرون بالخليفة الشهيد عثمان بن عفان وقتلوه ، اتجه الناس إلى على بن أبى طالب ليبايعوه بالخلافة ، فتردد الإمام فى قبول الخلافة ، وخطب فيهم قائلاً :

— دعونى والتمسوا غيرى ، فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان ، لا تقوم له القلوب ، ولا تثبت عليه العقول . إن الآفاق قد أغامت ، والمحجة قد تنكرت ، واعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب . وإن تركتمونى فأنا كأحدكم ، ولعلى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم . وأنا لكم وزيراً ، خير لكم منى أميراً . . . »

كانت هذه كلمات الإمام لمن أرادوه على البيعة . رأى الأفق يضطرب بالأحداث فزهد فى الخلافة بعد أن كان يرى أنه أحق الناس بها بعد وفاة النبى .

إن الآفاق قد أغامت . . ! هكذا قال لهم الإمام . وقد أغامت الآفاق حقاً ، وبدأت متاعبه منذ اليوم الأول لخلافته ، وقضى عليه أن يقضى سنوات خلافته القصيرة فى نضال متصل مع خصومه والخارجين عليه ،

وفاضت بلاغته فى هذه الفترة بأروع خطبه الخالدة .

عندما نقض طلحة والزبير بيعتهما وخرجا من المدينة إلى البصرة حيث انضم إليهما خلق كثير ، أسرع إليهم الإمام بجيشه ، وظفر بهم فى الموقعة المعروفة بموقعة الجمل .

وكان معاوية والياً على الشام ، فلما بويع لعلى بالخلافة أيقن أنه سيعزله ، فامتنع عن مبايعته ، واتهمه بالاشتراك فى قتل عثمان . وخرج « على » لحربه ، والتقى بجيش معاوية فى سهل « صفين » . فلنستمع إليه يخطب جنوده ويأمرهم بما يتفق مع المبادئ الإنسانية ، وآداب الفروسية فيقول :

– « لا تقاتلوا القوم حتى يبدءوكم ، فأنتم بحمد الله على حجة ، وترككم إياهم حتى يبدءوكم حجة أخرى لكم . فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم فلا تقتلوا مُدبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثلوا بقتيل . فإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا ستراً ، ولا تدخلوا داراً إلا بإذن ، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلا ما وجدتم فى عسكرهم ، ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم ، وسببن أمراءكم ، فإنهن ضعاف القوى والأنفس . . »

وبعد مناوشات طويلة اشتد القتال بين الجيشين . وكان « على » يخرج كل يوم فيقف بين الصفين ثم ينادى :

– يا معاوية . . . علام يقتل الناس ؟ ابرز إلى وأبرز إليك ، فيكون الأمر لمن غلب .

ولكن معاوية لم يخرج إليه ، ورجحت كفة جيش الإمام ، وكاد أن

يكسب المعركة ، لولا الحيلة المشهورة التى أشار بها « عمرو بن العاص » على صاحبه « معاوية » فرفع جيشه المصاحف على أطراف الرماح ، ونادوا بتحكيم كتاب الله . فلما رآها أصحاب « على » اختلفوا ، ورأى فريق كبير منهم قبول التحكيم ، فخطب فيهم « على » قائلا :

– عباد الله . . امضوا على حقكم وصدقكم وقتال عدوكم ، فإن معاوية وعَمراً وأصحابهما ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن . أنا أعرف بهم منكم ، فقد صحبتهم أطفالاً ، وصحبتهم رجالاً ، فكانوا شر أطفال وشر رجال . ويحكم . إنهم ما رفعوا المصاحف إلا خديعة ومكيدة . . ! »

ولكن هذه الصيحات ذهبت أدراج الرياح ، واضطره أصحابه إلى الكف عن القتال وقبول التحكيم . وكان بعد ذلك ما هو معروف من اختيار الحكمين ، وكتابة العهد بينهما ، واتفاقهما على الاجتماع بدومة الجندل فى شهر رمضان ليحكما بين الفريقين . ورجع « على » إلى الكوفة التى اتخذها مقراً لخلافته ، وجيشه فى شقاق واختلاف . ولم يلبث أن انشق عليه من أصحابه جماعة الخوارج ، رموه بالكفر لأنه قبل ذلك التحكيم ، وزعموه قبولاً للتحكيم فى كلام الله وفى دماء المسلمين ! وقام « على » يخطب الناس ويقول :

– الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدث الجلل . أما بعد ، فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحيرة ، وتعقب الندامة . وقد كنت أمرتكم فى هذه الحكومة أمرى ، ونخلت لكم مخزون رأيى ، لو كان يطاع لقصير أمر ، فأبيتم على إباء المخالفين الجفاة ، والمنابذين العصاة ، حتى ارتاب الناصح بنصحه ، وضنّ الزند بقدْحه ، فكنت

وإياكم . كما قال أخو هوازن :

أمرتكم أمرى بمنعرج اللوى فلم تستبينوا الرشد إلاضحى الغد
وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

ولما يئس « على » من توبة الخوارج خرج إليهم بجيشه فسحقهم .

أما التحكيم فقد أخفق عندما اجتمع الحكمان ، وانتهى بمهزلة محزنة ، فأراد « على » أن يتوجه لحرب « معاوية » بعد أن قضى على الخوارج ، ولكن أصحابه تثاقلوا عن الحرب ، وانتحلوا المعاذير لعودتهم ، وطلبوا تأجيل الحرب فترة يستعدون فيها ، ولكنهم لم يخرجوا بعد ذلك أبداً .

ورأى « معاوية » ضعفهم فكان يرسل جيوشه إلى أطراف الأقاليم التابعة لعلى فتغير عليها وتقتل من فيها من الجند وتنهب الأموال . وقضى « على » هذه السنوات يحرض أصحابه على القتال ، وهم يتثاقلون ويسوفون . وقد روى عن الإمام فى هذه الفترة أروع خطبه التى تنضح بالمرارة ، وتنم عن ضيقه بأصحابه ويأسه منهم ، وتفيض باللوم والتأنيب والتقريع .

هذا هو الإمام يقارن فى إحدى خطبه بين أصحابه وأصحاب معاوية فيقول :

— أما والذى نفسى بيده ليظهرن هؤلاء القوم عليكم ، ليس لأنهم أولى بالحق منكم ، ولكن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم ، وإبطائكم عن حقى . ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها ، وأصبحت أخاف ظلم عيتى . استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا ، وأسمعتكم فلم تسمعوا ، ودعوتكم سراً وجهراً فلم تستجيبوا ، ونصحت لكم فلم تقبلوا . أشهود كغياب ؟ عبيد كأرباب ؟ أتلو عليكم الحكم فتنفرون منها ، وأحثكم على جهاد

أهل البغى فما آتى على آخر القول حتى أراكم متفرقين أيدى سبا . أيها الشاهدة أبدانهم ، الغائبة عقولهم ، المختلفة أهواؤهم ، المبتلى بهم أمراؤهم ، صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه ، وصاحب أهل الشام يعصى الله وهم يطيعونه . لوددت والله أن معاوية صارفنى بكم صرف الدينار بالدرهم ، فأخذ منى عشرة منكم وأعطانى رجلا منهم . يا أهل الكوفة . . منيتُ منكم بثلاث واثنتين ، صُم ذوو أسماع ، وبُكم ذوو كلام ، وعمى ذوو أبصار . لا أحرار صدق عند اللقاء ، ولا إخوان ثقة عند البلاء . يا أشباه الإبل غاب عنها رعاتها ، كلما جمعت من جانب تفرقت من جانب آخر » .

وجاءته الأنباء يوماً بأن خيلا لمعاوية أغارت على « الأنبار » ، وأن المغيرين قتلوا عاملا له ، فخرج الإمام مغضباً يجر ثوبه حتى أتى النخيلة ، وتبعه الناس ، فرقى رباوة من الأرض وارتجل هذه الخطبة الخالدة .

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

— « أما بعد ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل ، وشمله البلاء ، ودُيّث(١) بالصغار وقد دعوتكم إلى حرب هؤلاء القوم ليلا ونهاراً ، وسراً وإعلاناً ، وقلت لكم اغزوهم قبل أن يغزوكم فو الذى نفسى بيده ما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا ، فتخاذلتم وتواكلتم وثقل عليكم قولى ، حتى شنت عليكم الغارات » . .

وبعد أن وصف لهم الحادث كما بلغه قال :

— يا عجباً كل العجب ! عجب يميت القلب ، ويشغل الفهم ،

---

(١) ديث بمعنى ذلل .

ويكثر الأحزان ، من تضافر هؤلاء القوم على باطلهم ، وفشلكم عن حقكم . فقبحاً لكم وترحاً حين صرتم غرضاً ترمون ولا ترمون ، ويُغار عليكم ولا تغيرون ، ويعصى الله وترضون . إذا قلت لكم اغزوهم فى الشتاء ، قلتم هذه صبارة القر(١) ، أنظرنا حتى ينصرم القر عنا . وإذا قلت لكم اغزوهم فى الصيف ، قلتم هذه حمارّة القيظ(٢) ، أنظرنا حتى ينصرم الحر عنا . فإذا كنتم من الحر والبرد تفرون ، فأنتم والله من السيف أفر . يا أشباه الرجال ولا رجال ، ويا طغام الأحلام ، ويا عقول ربات الحجال . وددت أن الله قد أخرجنى من بين ظهرانيكم ، وقبضنى إلى رحمته من بينكم . والله لوددت أنى لم أركم ولم أعرفكم ، معرفة جرّت ندماً وملأت صدرى غيظاً . لقد أفسدتم علىّ رأيى بالعصيان ، حتى قالت قريش إن ابن أبى طالب شجاع ولكن لا علم له بالحرب . لله أبوهم . . ومن ذا يكون أعلم بها منى أو أشد لها مراساً ؟ لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ، ولقد نيفت اليوم على الستين . ولكن لا رأى لمن لا يطاع » .

* * *

هذه أمثلة من خطب الإمام فى الحث على الجهاد ، وهى كثيرة يمكن . الرجوع إليها فى « نهج البلاغة » لمن يريد المزيد .

ولقد ظل الإمام يهدر بالقول البليغ محاولاً استنهاض الهمم لحرب معاوية الذى استقل بالشام ، حتى قرر أخيراً أن يخرج لحسم هذا الأمر الذى طال . وأعلن عزمه هذا فى آخر خطبة رويت عنه قبل مقتله . فقد

(١) شدة البرد .

(٢) شدة الحر .

روى عن « نوف البكالى » أنه قال :

« خطبنا هذه الخطبة أمير المؤمنين بالكوفة ، وهو قائم على حجارة نصبها له جعدة بن هبيرة المخزومى ، وعليه مدرعة من صوف ، وحمائل سيفه ليف ، وفى رجليه نعلان من ليف . وقد بدأ الإمام بذكر الله وأفاض فى صفاته ، وحدثهم عن الحياة والموت حديثاً بليغاً ، ثم ختم كلامه قائلاً :

— أيها الناس . . إنى قد ثبتت لكم المواعظ ، وأدبتكم بسوطى فلم تستقيموا ، وحَدَوْتكم بالزواجر فلم تستوسقوا ، لله أنتم ! أتتوقعون إماماً غيرى يطأبكم الطريق ويرشدكم السبيل ؟ ! ألا إنه قد أدبر من الدنيا ما كان مقبلا ، وأقبل منها ما كان مدبراً ، وأزمع الترحال عباد الله الأخيار ، وباعوا قليلا من الدنيا لا يبقى ، بكثير من الآخرة لا يفنى .

ثم نادى بأعلى صوته :

— الجهاد الجهاد عباد الله . ألا وإني معسكر فى يومى هذا ، فمن أراد الرواح إلى الله فليخرج .

قال « نوف البكالى » :

— وجهز الإمام جيشه ، فعقد للحسين فى عشرة آلاف ، ولقيس بن سعد فى عشرة آلاف ، ولأبى أيوب فى عشرة آلاف ، ولغيرهم على أعداد أخر ، وهو يريد الرجعة إلى « صفين » . فما دارت الجمعة حتى ضربه « ابن ملجم » ، فتراجعت العساكر . فكنا كأغنام فقدت راعيها تختطفها الذئاب من كل مكان .

* * *

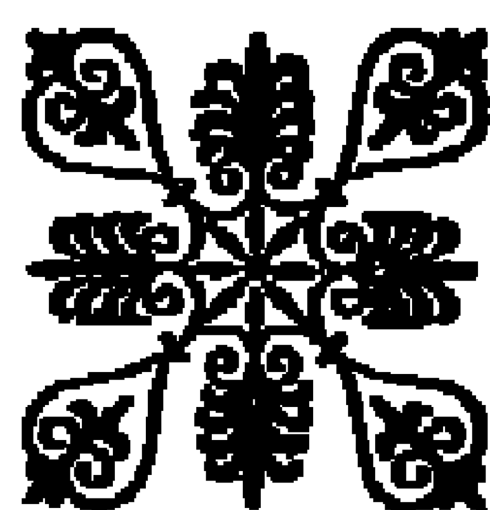
ونختم الحديث عن الإمام الخطيب . بالخطبة القصيرة المؤثرة التى

ألقاها عند دفن زوجته السيدة فاطمة ، بنت النبي صلى الله عليه وسلم . لقد تزوجها الإمام وعاش معها لا يقرن بها زوجة أخرى ، حتى ماتت بعد موت النبي بستة أشهر ، ولم تبلغ الثلاثين من عمرها ، فدفنها إلى جوار أبيها العظيم . وألقى عند دفنها هذه الكلمات التى تصور حزن الرجل القوى المؤمن ، وكيف يثبت للمصائب الكبار ، فلا يخرجه الحزن عما يجمل به من وقار : قال :

– السلام عليك يارسول الله عنى وعن ابنتك النازلة فى جوارك والسريعة اللحاق بك . قلَّ يا رسول الله عن صفيتك صبرى ورقَّ عنها تجلدى . إلا أن لى فى التأسى بعظيم فُرقتك ، وفادح مصيبتك موضع تعزّ . فلقد وسَّدتك فى ملحودة قبرك ، وفاضت بين نحرى وصدرى نفسك . إنا لله وإنا إليه راجعون ، فلقد استرجعت الوديعة ، وأخذت الرهينة . أما حزنى فسرمد ، وأما ليلى فمسهد ، إلى أن يختار الله لى دارك التى أنت بها مقيم . وستنبئك ابنتك بتضافر أمتك على هضمها ، فاصفها السؤال ، واستخبرها الحال . هذا ولم يطل العهد ، ولم يخل منك الذكر ، والسلام عليكما سلام مودع لا قالٍ ولا سئِم . فإن أنصرف فلا عن ملالة ، وإن أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين .

زياد بن أبيه

« ما سمعتُ متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن »
« إلا أحببتُ أن يسكت خوفاً أن يسيء إلا »
« زياداً فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً »
الشعبي



زياد ابن أبيه

خطيب من دهاة العرب وساستها ، اشتهر بالذكاء والشجاعة ، كما اشتهر بالفصاحة والبلاغة ، حتى لقد روى عن « الشعبي » أنه قال : « ما سمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت . خوفاً أن يسيء ، إلا زياداً ، فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً » .

ذلك هو زياد بن عبيد ، أو زياد بن أبي سفيان ، كما سمى نفسه عندما ألحق معاوية نسبه بوالده أبي سفيان ، أو زياد ابن أبيه كما يسميه المتورعون ، وهو الاسم الذى اشتهر به فى التاريخ .

كان للحارث بن كلدة ، الطبيب الثقفى ، جارية تدعى « سمية » فزوجها من عبد رومى له يدعى « عبيداً ».فولدت له زياداً هذا فى السنة الأولى من الهجرة ، وقد نشأ هذا الغلام شجاعاً قارئاً كاتباً ، واشتهر بالذكاء والفصاحة ، وعرف ذلك عنه ، فاستعمله « المغيرة بن شعبة » كاتباً له ، ثم كتب لأبي موسى الأشعرى عندما ولاه عمر بن الخطاب البصرة ، فأظهر ذكاء نادراً كان محسوباً عليه ، إذ عزله ابن الخطاب من عمله وهو يقول : « إننى لم أعزله لعجز أو خيانة ، وإنما كرهت أن يحمل على الناس فضل عقله » .

ومع ذلك فقد ظل عمر بن الخطاب يكلفه ببعض المهام فيقوم بها خير قيام ، وحدث أن استكفاه أمراً فقام فيه مقاماً مرضياً ، وعاد إلى

الخليفة وعنده المهاجرون والأنصار ، فأمره « عمر » أن يخطب الناس على المنبر بما لديه من أنباء ، فخطب خطبة رائعة حتى قال عمرو بن العاص :

– لله هذا الغلام . . . ! لو كان أبوه من قريش لساق العرب بعصاه .

وكان بين الحاضرين أبو سفيان بن حرب يجلس إلى جوار على بن أبي طالب ، فهمس أبو سفيان فى أذن الإمام على بأنه يعرف أباه الحقيقى ، فسأله الإمام على :

– من هو ؟

قال أبو سفيان :

– أنا أبوه .

وروى أبو سفيان كيف اشتملت عليه أمه « سمية » منه وهو مشرك فى رحلة له بالطائف ، فقال له الإمام على :

– فما يمنعك أن تدعيه ؟

قال أبو سفيان :

– أخشى هذا الجالس أن يخرق علىّ إهابى .

يقصد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

ولما بويع لعلى بن أبي طالب بالخلافة ، وعُيِّن « ابن عباس » والياً على البصرة أرسل معه زياداً ، وعيَّنه على الخراج وبيت المال ، وأمر « ابن عباس » أن يسمع منه ويستشيره .

وعندما قتل عامل الإمام على بلاد فارس ، واضطرب عليه أهلها وطمعوا فى التخلص من الخراج وثاروا بعماله ، استشار الإمام على أصحابه فيمن يوليه فارس ، فقال له « جارية بن قدامة » :

— ألا أدلك يا أمير المؤمنين على رجل صلب الرأى ، عالم بالسياسة ، كاف لما وُلّى ؟

قال الإمام :

— من هو ؟

قال قدامة :

— زياد .

فأمره الإمام بالمسير إليها ، وهناك تمكن زياد بدهائه من إيقاع النفور بين زعماء المشاغبين ، وأخذ يضرب بعضهم ببعض ، حتى قضى عليهم بأيديهم ، واستتب له الأمر بغير حرب ، وهكذا أخضع بلاد الفرس بذكائه ودهائه لعلى بن أبى طالب ، حتى قال أهل فارس « ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنو شروان من سيرة هذا العربى فى اللين والمداراة والعلم بما يأتى » .

ولقد ساء ذلك « معاوية » الذى كان قد خرج على الإمام على ، وأسس الدولة الأموية بالشام ، فكتب إلى زياد يهدده ويغريه بالانضمام إليه . فلما رأى زياد كتاب معاوية قام فى الناس خطيباً فقال :

يا عجباً كل العجب من ابن آكلة الأكباد ورأس النفاق . . . ! يتهددنى ويخوفنى بقصده إياى ، وبينى وبينه ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبعين ألفاً من المهاجرين والأنصار يحملون سيوفهم على عواتقهم ، أما والله لئن خلص إلى ليجدني أحمر مَخْشياً ضرّاباً بالسيف . . »

ولكن الأحداث تتابع مسرعة ، ويقتل الإمام على ، ويستتب أمر الخلافة لمعاوية ، ويلقى ببصره إلى فارس فيهمه أمر زياد ويخيفه . ويصبح

« معاوية » فيكاشف المغيرة بن شعبة بمخاوفه ويقول له :

– إنى ذكرت زياداً واعتصامه بفارس فلم أنم ليلتى ، وإنه لداهية العرب ، معه أموال فارس يدبر الحيل ! ما يؤمننى أن يبايع لرجل من أهل هذا البيت فإذا هو قد أعاد الحرب جَذَعة[١] .

فعرض عليه المغيرة أن يكون رسوله إلى زياد ، ويفد عليه فيتلطف له ، وينصح له بالشخوص إلى الخليفة الذى يكتب له بأمانه .

ووفد زياد على معاوية فأحسن لقاءه ، وثبته على فارس .

وأراد معاوية أن يوثق صلته بزياد ويستميله ويظفر برضاه ، فادعاه أخاً له وألحقه بنسب أبيه ، وبحث القصة القديمة وأشهد عليها الشهود فأصبح زياد يسمى بزياد بن أبى سفيان .

وقد ولاه معاوية بعد ذلك البصرة وخراسان وسجستان ، ثم جمع له السند والبحرين وعمان ، ثم ضم إليه الكوفة ، فأصبح والياً على العراقين وهو أول من جمع له بينهما .

* * *

عندما ولى زياد البصرة ، كانت قد فشت فيها المنكرات واستيقظت الفتن ، فاستعمل فى حكمها شدة لم يألفها العرب ، وقسوة لم يعهدوها ، حتى خافه الناس خوفاً شديداً . وزاد فى شرطته فجعلها أربعة آلاف رجل ، وكان يأخذ بالشبهة ويعاقب بالظنة ، حتى استتب الامن ! فكان الشىء يسقط من يد الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتى صاحبه فيأخذه .

---

(١) أى أعادها جديدة كما بدأت .

وكان يقول : « لو ضاع حبل بينى وبين خراسان لعرفت آخذه . . » .

وكان يعلق فى مجلسه عنوان سياسته مجملة فى هذه العبارة « شدة فى غير عنف ، ولين فى غير ضعف ، المحسن يجازى بإحسانه ، والمسيء يعاقب بإساءته » .

ولا شك فى أن زياداً قد أسرف على الناس ، وقد قيل بعد ذلك فى رواية عن أبى الحسن المدائنى « تشبه زياد بعمر فأفرط ، وتشبه الحجاج بزياد فأهلك الناس » .

ولقد اشتهر زياد منذ حداثته بالفصاحة ، وكان خطيباً بليغاً ، إذا وقف للكلام تدفق بالقول تدفق السيل . وكان طويل النفس ، كلما أطال كان أجود كلاماً .

ولم يحفظ لنا التاريخ كثيراً من خطبه ، ولكن القليل الذى وصل إلينا يكفى للدلالة عليه .

عندما قدم البصرة والياً لمعاوية ، ارتقى المنبر ، وخطب خطبة لم يبدأ كلامه فيها بحمد الله على عادة الخطباء فسميت خطبته الخطبة البتراء . وقد يصح أن نذكر بتعبيرنا الحديث أنه أعلن فى هذه الخطبة الأحكام العرفية ، وفرض « حظر التجول » ليلا ، واصطنع سياسة لم يسبقه إليها حاكم فى الإسلام . ولكن الخطبة البتراء نموذج فريد من الفصاحة والبلاغة ، تدل على عبقرية زياد كحاكم وخطيب .

إنه يبدأ باستعراض الفساد الذى ساد واستشرى فيقول :

— إن الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والغى الموفى بأهله على النار ، ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم ، من الأمور العظام ،

ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته فى الزمن السرمدى الذى لا يزول . . !

إنه ليس منكم إلا من طرفت عينه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث الذى لم تسبقوا اليه .

ما هذه المواخير المنصوبة ، والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر والعدد غير قليل . . ؟ ! ألم يكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار ؟

حرام علىّ الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً . ثم يمضى زياد موضحاً سياسته الرهيبة لمحاربة الفساد والقضاء عليه فيقول :

إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لين فى غير ضعف ، وشدة فى غير عنف . وإني أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصى ، والصحيح منكم فى نفسه بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول « أنج سعد فقد هلك سعيد » أو تستقيم لى قناتكم . !

إن كذبة المنبر بلقاء مشهورة ، فإذا تعلقتم علىّ بكذبة فقد حلت لكم معصيتى . من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب منه . فإياى ودلج(١) الليل ، فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه . وإياى ودعوى الجاهلية ، فإنى لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه .

---

(١) السير بالليل .

وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة : فمن غرَّق قوماً أغرقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه ، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه حياً فيه ، فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم يدى ولساني .

ولا يتركهم زياد قبل أن يؤكد لهم أن عواطفه الشخصية لن يكون لها تأثير فى أحكامه أو تقديره للأمور ، فيقول هذه العبارات الرائعة :

وقد كانت بيني وبين أقوام إحن[١] ، فجعلت ذلك دبر أذنى وتحت قدمي إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضى لم أكشف له قناعاً ولم أهتك له ستراً ، حتى يبدى لى صفحته ، فإن فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم ، وأعينوا على أنفسكم ، فرب مبتئس بقدومنا سيسر ، ومسرور بقدومنا سيبتئس .

أيها الناس :

إنا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ونذود عنكم بفىء الله الذى خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا . فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا . واعلموا أني مهما قصرت فلن أقصر عن ثلاث : لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو أتانى طارقاً بليل ، ولا حابساً عطاء ولا رزقاً عن إبانه[٢] ، ولا مجمراً[٣] لكم بعثاً .

---

(١) جمع إحنة أى أحقاد وضغائن .

(٢) أوانه .

(٣) لا أحبس جيشاً عن العودة أكثر من الوقت الضرورى .

ثم ختم زياد خطبته بهذه الجملة .

– وأيم الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة . . فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاى . . !

ويروى أنه عندما انتهى من خطابه قام إليه رجل فقال :

– أشهد أيها الأمير أنك قد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب . فقال له زياد :

– كذبت . . ذاك نبي الله ، داود عليه السلام .

فقام الأحنف بن قيس فقال :

– إنما الثناء بعد البلاء ، والحمد بعد العطاء ، وإنا لن نثنى حتى نبتلى .

فقال له زياد :

صدقت

وقام رجل من الخوارج وهو يهمس :

– انبأنا الله بغير ما قلت . قال الله عز وجل « وإبراهيم الذى وفى ، ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » . وأنت تزعم أنك تأخذ البرىء بالسقيم ، والمطيع بالعاصى ، والمقبل بالمدبر !

فسمع زياد قوله فقال له :

– إنا لن نبلغ ما نريد فيك وفى أصحابك حتى نخوض إليكم الباطل خوضاً .

وخطب زياد مرة فقال :

– استوصوا بثلاثة منكم خيراً : الشريف ، والعالم ، والشيخ . فوالله

لايأتيني شيخ بشاب قد استخف به إلا أوجعته ، ولا يأتيني عالم بجاهل استخف به إلا نكلت به ، ولا يأتيني شريف بوضيع استخف به إلا انتقمت له منه .

وعندما وصل زياد إلى الكوفة والياً عليها خطب الناس ، فحصبه بعضهم وهو على المنبر ، فدعا خاصته وأمرهم فأخذوا أبواب المسجد ، وجلس على كرسي بالباب ، ثم دعا الناس أربعة أربعة يحلفون « مامنا من حصبك » ، فمن حلف أطلقه ، ومن لم يحلف حبسه ، حتى حبس ثلاثين ، وقيل ثمانين ، فقطع أيديهم جميعاً .

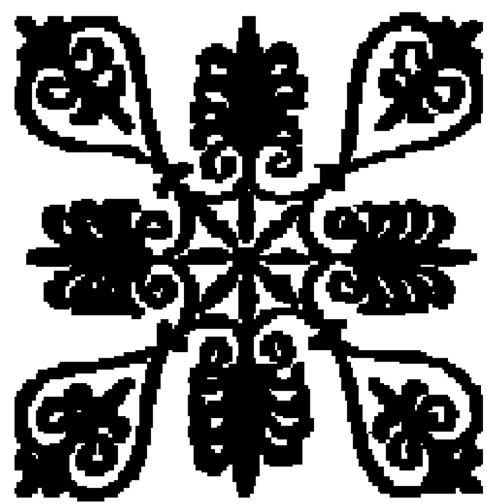
وحكم زياد ثمانية أعوام ، وتوفى بالكوفة ، وروى أنه أصيب بالطاعون فى يده ، وأشير عليه بقطعها ، فأبى ومات سنه ٥٣ هجرية . وكان زياد فيه حمرة فى وجهه ، وفى عينه اليمنى انكسار ، أبيض اللحية مخروطها ، عليه قميص ربما رقعه ، وهو أول من لبس الخفاف الساذجة ، وثياب الكتان .

روى ابن عبد ربه فى « العقد الفريد » :

– قالوا إن الدهاة أربعة ، معاوية للروية ، وعمرو بن العاص للبديهة ، والمغيرة بن شعبة للمعضلات ، وزياد لكل صغيرة وكبيرة .

الحجّاج

« إن أمير المؤمنين نثر كنانته بين يديه ، وعجم »
« عيدانها فوجدنى أمرّها عوداً وأصلبها مكسراً »
الحجاج



الحجاج

خطيب من جبابرة العرب ، لم يرث ملكاً ولا حكماً ، ولكنه وصل بمواهبه إلى الحكم والإمارة ، وكانت الفصاحة إحدى وسائله الكبرى . ذلك هو أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفى .

ولد الحجاج بالطائف سنة إحدى وأربعين للهجرة ، أى فى السنة التى أسس فيها معاوية الدولة الأموية . وكان أبوه « يوسف بن الحكم » من مشايخ ثقيف ورُوى أنه كان معلم صبيان ، كما روى أن الحجاج كان فى أول أمره يعلم الصبيان مع أبيه ، ثم صار دباغاً ، وقيل إنه كان يبيع الزبيب بالطائف . ولكن أخبار الرواة قد اضطربت بشأن هذا الشطر من حياة الحجاج الأولى بالطائف والحجاز ، بحيث لا نستطيع أن نستخلص منها صورة صحيحة نطمئن إليها .

والواقع أن الرواة قد نسجوا كثيراً من الأساطير حول الحجاج ، ومن ذلك مثلا ما رواه المسعودى فى « مروج الذهب » حول ولادته . قال :

– كانت أم الحجاج عند الحارث بن كلدة ، فدخل عليها فى السحر فوجدها تتخلل فبعث إليها بطلاقها فسألته عن السبب فقال « دخلت عليك فى السحر وأنت تتخللين ، فإن كنت بادرت الغداء فأنت شرهة ، وإن كنت بت والطعام بين أسنانك فأنت قذرة » فقالت كل ذلك لم يكن

ولكن تخللت من شظايا السواك. ثم تزوجها من بعده يوسف الثقفى فولدت له الحجاج مشوهاً لا دبر له ، فثقب عن دبره . وأبى أن يقبل ثدى أمه وغيرها فأعياهم أمره ، فيقال إن الشيطان ظهر لهم فى صورة الحارث بن كلدة ، وقال لهم « اذبحوا جدياً أسود وأولغوه دمه ، فإذا كان اليوم الثانى فافعلوا به كذلك ، فإذا كان فى اليوم الثالث فاذبحوا له تيساً أسود وأولغوه دمه ، ثم اذبحوا له أسود سالخاً فأولغوه دمه واطلوا به وجهه فإنه يقبل الثدى فى اليوم الرابع . ففعلوا به ذلك فكان بعد لا يصبر على سفك الدماء . . !

ومن الواضح أن هذه الحكاية وأمثالها إنما قصد بها الرواة تفسير قسوة الحجاج وبطشه وإسرافه فى سفك الدماء .

مهما يكن من الأمر فالمعروف أن الحجاج حفظ القرآن فى صباه ، وروى الأحاديث وأشعار العرب . ولما كانت الطائف وسط بيئة عربية تحوطها البادية فقد نشأ الحجاج على فصاحة البدو وجفوة طباعهم .

ولقد نشأ فى عصر فتن وشغب وحروب اتصلت منذ مقتل الخليفة عثمان . وعندما توفى معاوية وقام من بعده ابنه يزيد . تحدث الناس بسوء سيرته فى الحجاز والعراق ، وامتنع عن البيعة له الحسين بن على وعبد الله بن الزبير ، وخرج الحسين إلى الكوفة حيث قتل فى الطريق . فبايع الناس فى مكة عبد الله بن الزبير . وأرسل يزيد جيوشه فحاصرت مكة ، ثم جاءت الأخبار بموت يزيد ، فرجع عنها الجيش ، وبايع أهل الحجاز والعراق عبد الله بن الزبير ، فولى أخاه « مصعب » العراق ، وبقى هو فى مكة . أما فى الشام فقد بايع الناس « معاوية بن يزيد » الذى تنازل عن الخلافة ، فبايع الأمويون « مروان بن الحكم » الذى لم تطل خلافته

غير شهور ثم مات ، فقام من بعده عبد الملك بن مروان .

وكان الحجاج قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره عندما قام عبد الملك بن مروان بالخلافة . ويروى المؤرخون أن أباه خرج به إلى الشام حيث وفد على أمير المؤمنين وكان الحجاج قد سمع الكثير عن سير الولاة والقواد . وفتنته بوجه خاص سيرة « زياد بن أبيه » فطمحت نفسه إلى التشبه بهم والسير على نهجهم ، فاتصل بروح بن زنباع الجذامى ، وزير عبد الملك ، والتحق بشرطته .

وهنا يبدأ التاريخ السياسى للحجاج ، فقد أظهر من الذكاء والجرأة والحزم ما لفت إليه أنظار الخليفة واستثار إعجابه .

وروى المؤرخون أن « عبد الله بن مروان » أراد أن يخرج لقتال « زفر ابن الحارث » الذى كان قد تمرد على حكم بنى أمية ، فلما مضى بجيشه فى الطريق لاحظ من عساكره تخاذلاً وعصياناً . إذ كانوا لا ينزلون بنزوله ولا يرحلون برحيله . وشكا الخليفة ذلك إلى « روح بن زنباع » فقال له :

— يا أمير المؤمنين . . إن فى شرطتى رجلا يقال له الحجاج بن يوسف لو ولاه أمير المؤمنين أمر عسكره لأرحلهم برحيله وأنزلهم بنزوله .

ففعل « عبد الملك بن مروان » . فكان لا يقدر أحد أن يتخلف عن الرحيل والنزول إلا أتباع « روح بن زنباع » . فوقف الحجاج عليهم يوماً وقد رحل الناس . وهم على طعام يأكلون . فقال لهم « ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين ؟ » فقالوا « انزل فكل معنا يا بن اللخناء . . ! » .

فقال الحجاج « هيهات . . ذهب ما هنالك » ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط وطوفهم فى العسكر . وأمر بخيامهم فأحرقت : فدخل روح -

ابن زنباع على عبد الملك باكياً شاكياً يقول :

– إن الحجاج بن يوسف . الذى كان فى عديد شرطتى . ضرب عبيدى . وأحرق فساطيطى .

فاستدعى الخليفة الحجاج وسأله عما فعل فقال الحجاج :

– ما أنا فعلته يا أمير المؤمنين .

قال الخليفة .

– ومن فعله ؟

قال الحجاج :

– أنت والله فعلت ، إنما يدى يدك . وسوطى سوطك وما على أمير المؤمنين أن يُخلف على روح بن زنباع للفسطاط فسطاطين . والغلام غلامين ولا يكسرنى فيما قدمنى له .

وقد أعجبت هذه الجرأة « عبد الملك بن مروان » : فعوض وزيره عن خسائره . وزاد تقديره للحجاج . فلما أراد الخروج إلى العراق لمحاربة « مصعب بن الزبير » جعل يستنصر أهل الشام فيتثاقلون عن الخروج للحرب : فقال له الحجاج :

– سلطنى عليهم فوالله لأخرجنهم معك . .

فسلطه عليهم . فكان الحجاج لا يمر على باب رجل قد تخلف عن الخروج إلا أحرق عليه داره . فلما رأى ذلك أهل الشام خرجوا . وسار بهم « عبد الملك » بعد أن ولى الحجاج قيادة قسم من الجيش : وأخضع العراق وقتل مصعب بن الزبير .

ثم بعث الحجاج لمحاربة عبد الله بن الزبير ، فزحف الحجاج إلى

مكة ، وحاصرها خمسين ليلة ، وضربها بالمجانيق ، وهزم عبد الله بن الزبير وقتله وصلبه ؛ فأرسل إليه عبد الملك يعينه والياً على الحجاز واليمن واليمامة ، فبقى بها ثلاثة أعوام أخضع فيها أهل الحجاز واشتد عليهم .

ويُروى أنه كتب بعد ذلك إلى عبد الملك يقول : « إنى حُزت الحجاز بشمالى ، وبقيت يمينى فارغة » ، وكان قد توفى والى العراق بشر بن مروان ، فبعث عبد الملك عهده إلى الحجاج يوليه العراق أيضاً .

ولم تكن السنوات الأولى من حكم الحجاج بالعراق هادئة مستقرة ، فقد ثارت الفتن فى أطراف العراق ، واتصلت الحروب . ولكن الحجاج بذل جهداً عظيماً فى إخضاع الخارجين عليه وعلى ملك بنى أمية ، فوجه « المهلب » لقتال الأزارقة ، ثم نهض بنفسه لقتال ابن الأشعث ، وكانت بينه وبين الخارجين من أهل الكوفة والبصرة حروب طويلة ، انتهت بموقعة « دير الجماجم » التى استمرت مائة يوم ، وانتهت بانتصار الحجاج .

وهكذا أنقذ الحجاج ملك بنى أمية مما كان يتهدده من أخطار ، وأخمد الثورات فى الحجاز والعراق وفارس والأهواز ، ومد حدود الدولة الإسلامية إلى نهر السند ، وفتح إقليم ما وراء النهر حتى بخارى وسمر قند . ولهذا كان عبد الملك بن مروان يقول : « إن الحجاج جلدة ما بين عينى » . .
ولما مات عبد الملك وخلفه « الوليد » أقر الحجاج على ما بيده وظل الحجاج عشرين عاماً والياً على العراق ، حتى توفى سنة ٩٥ للهجرة وله من العمر أربع وخمسون سنة .

* * *

هذه لمحات سريعة عن حياة الحجاج ، والظروف التى عاش فيها ،

فأين من هذا كله الحجاج الخطيب ؟

الواقع أن الحجاج كان أخطب الناس فى زمانه ، قديراً على ارتجال الكلام ، مبتكراً للمعانى يستلهمها من طبعه الفياض ، وبديهته الحاضرة . إلى جانب حفظه القرآن ، وعلمه بالسنة ، وروايته للأدب ، وخبرته بنفوس الجماهير ، فكان يعرف كيف يستشهد بما يؤيد عمله ويبرر سياسته .

وكان أسلوبه يمتاز بالجزالة والفحولة ، فكان أشبه بأساليب البدو فى قوته وتأثيره فى النفوس .

ومما زاد فى قوة أسلوبه الخطابى الأغراض التى كانت تدفعه إلى الخطابة ، ذلك أن سياسة الحجاج كانت تقوم فى جملتها على البطش والقمع ، وكان يقول : « إنى والله ما أرى أن أرد بنى اللكيعة إلى طاعتى إلا بالسيف » . وهكذا مثل دور الطاغية ، واتخذ أسلوب الدكتاتور ، وكانت معظم خطبه . سلسلة متصلة من الوعيد يرهب بها الناس ، ويصبها عليهم قذائف حاصدة ، وحمماً ملتهبة ، ويرسل النذر فى كلمات لها بريق السيوف ، ودوى القنابل .

أجل . . كان يحكم الناس بسيفه ولسانه .

ومن عجب أن هذا الطاغية الجبار كان يعنى بهيئته وملبسه .

روى صاحب العقد الفريد عن الرياشى ، عن العتبى عن أبيه قال « ما رأيت مثل الحجاج . كان زيه زى شاطر ، وكلامه كلام خارجى ، وصولته صولة جبار فسألته عن زيه فقال كان يرجل شعره ويخضب أطرافه » وروى أنه حينما وفدت وفود العراق على سليمان بن عبد الملك وسألهم عن الحجاج قالوا : « يا أمير المؤمنين ، إنا نخبرك عن عدو الله بعلم ، كان يتزين تزين المومسة ، ويصعد المنبر فيتكلم بكلام الأخيار ، فإذا نزل عمل عمل الفراعنة » .

وقال ابن عبد ربه : « كان الحجاج إذا صعد المنبر تلفع بمطرفه ، ثم تكلم رويداً فلا يكاد يسمع ، حتى يتزايد فى الكلام ، فيخرج يده من مطرفه ، ثم يزجر الزجرة فيفزع بها أقصى من فى المسجد . ! » .

إن هذه الصورة التى نقلها صاحب العقد الفريد تدل على أن الحجاج كان أستاذاً ماهراً يعرف كيف يلعب بأعصاب المستمعين .

وهذه خطبته الشهيرة : عندما ذهب والياً على العراق تصور أسلوبه وخصائصه وطابعه الفنى . فهو يبدأ أول خطبة له بأسلوب تمثيلى يستدرج به أهل العراق ويسترعى انتباههم ، ثم يستشهد بالشعر والقرآن ، ويقذف وجوههم بعبارات خشنة كأنها قطع الصخر . ومن الواضح أنه كان متأثراً كما قلنا بزياد بن أبيه ، وكأنى به قد استحضر فى خياله خطبته البتراء التى استهل بها ولايته على البصرة .

انظر إليه وقد خرج إلى الكوفة فى اثنى عشر راكباً على النجائب ، ثم دخلها فجأة حين انتشر النهار ، وبدأ بالمسجد فدخله وقال « علىّ بالناس » . وصعد المنبر وقد تلثم بعمامة خز حمراء غطى بها أكثر وجهه ، متقلداً سيفاً ، متنكباً قوساً ، وجلس ساعة لا يتكلم حتى قال الناس بعضهم لبعض : « قبح الله بنى أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق » وقال « عمير بن ضابئ البرجمى » :

ألا أحصبه لكم ؟

فقال له الناس « أمهل حتى ننظر » .

فلما رأى الحجاج أن عيون الناس إليه ، قام فكشف عن وجهه وقال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا　　　متى أضع العمامة تعرفونى

يا أهل الكوفة :

إني لأرى أبصاراً طامحة ، وأعناقاً متطاولة ، ورءوساً قد أينعت وحان قطافها ، وإني لصاحبها . وكأني أنظر إلى الدماء تترقرق بين العمائم واللحى .

ثم أنشد :

هذا أوان الشد فاشتدى زيم(١) قد لفها الليل بسواق حُطم(٢)
ليس براعى إبل ولا غنم ولا بجزار على ظهر وضم(٣)

* * *

قد لفها الليل بعصلبي(٤) أروع(٥) خراج من الدوى(٦)
مهاجر ليس بأعرابي

* * *

قد شمرت عن ساقها فشدوا وجدّت الحرب بكم فجدوا
والقوس فيها وتر عُرُدّ(٧) مثل ذراع البكر أو أشد
لا بد مما ليس منه بد

---

(١) اسم فرسه أو ناقته .

(٢) السواق الحطم أي الشديد القاسي الذى يسوقها بعنف فتتدافع فيحطم بعضها بعضاً .

(٣) الوضم خشبة الجزار التي يقطع عليها اللحم .

(٤) العصلبي هو الشديد القوى .

(٥) ذكى .

(٦) الدوى والدوية الفلاة المتسعة التي يسمع لها دوى بالليل، والمعنى أنه شديد ذكى يخرج من كل شدة .

(٧) شديد .

إنى والله يا أهل العراق ما يقعقع لى بالشنان [١] ، ولا يغمز جانبي كتغماز التين [٢] . ولقد فررت عن ذكاء ، وفتشت عن تجربة ؟ وإن أمير المؤمنين – أطال الله بقاءه – نثر كنانته [٣] بين يديه ، فعجم [٤] عيدانها ، فوجدنى أمرها عوداً وأصلبها مكسراً ، فرماكم بى ، لأنكم طالما أوضعتم [٥] فى الفتنة ، واضطجعتم فى مراقد الضلال . والله لأحزمنكم حزم السلمة [٦] ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل [٧] ، فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

إنى والله لا أقول إلا وفيت ، ولا أهم إلا أمضيت ، ، ولا أخلق إلا فريت [٨] . فإياى وهذه الجماعات ، أما والله لتستقيمن على طريق الحق ، أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا فى جسده .

ثم أنهى خطبته بأول أمر له فى الكوفة قال :

---

(١) جمع شن وشنة وهى القربة اليابسة يضرب عليها فيسمع لها صوت كالطبل فتخاف الإبل .

(٢) أى لست لين المغمز .

(٣) الكنانة وعاء السهام .

(٤) عضها بأسنانه ليختبر صلابتها .

(٥) أسرعتم .

(٦) السلمة شجرة كثيرة الشوك .

(٧) الإبل الغريبة عن المرعى .

(٨) قطعت،والمعنى لا أعزم على أمر إلا أتممته .

— إن أمير المؤمنين أمرنى أن أعطيكم أعطياتكم . وأن أوجهكم لمحاربة العدو مع « المهلب بن أبى صفرة » ، وإنى أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه . . »

قال ابن نباتة : « فلما سمع أهل الكوفة هذه الخطبة تساقط الحصى من أيديهم حزناً ورعباً ، وثبتت مهابته فى قلوبهم ، وتحكم حينئذ فى رقابهم » وأراد الحجاج أن يخرج للحج فخطب فى الناس قائلا :

— أيها الناس . إنى أريد الحج ، وقد استخلفت عليكم ابنى هذا ، وأوصيته بخلاف ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأنصار . إن رسول الله أوصى أن يقبل من محسنهم ، وأن يتجاوز عن مسيئهم . وإنى أمرته ألا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم ! !

ألا وإنكم ستقولون بعدى مقالة ما يمنعكم من إظهارها إلا مخافتى ، ألا وإنكم ستقولون بعدى : « لا أحسن الله له الصحابة » . ألا وإنى معجل لكم الإجابة « لا أحسن الله الخلافة عليكم . . »

ثم نزل دون أن يجرؤ أحد على توجيه كلمة إليه .

ورجف الناس يوماً بموت الحجاج ، وبلغته الإشاعة ، فخرج إلى المسجد وخطب قائلاً :

— إن طائفة من أهل الشقاق والنفاق ، ومساوئ الأخلاق ، نزغ الشيطان بينهم فقالوا مات الحجاج ومات الحجاج . فمه . . ؟ ! وهل يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت ؟ والله ما يسرنى ألا أموت وإن لى الدنيا وما فيها ، وما رأيت الله رضى بالتخليد إلا لإبليس أهون خلقه عليه . ولقد دعا الله العبد الصالح فقال : « رب اغفر لى وهب لى ملكاً لا ينبغى

لأحد من بعدى » فأعطاه ذلك إلا البقاء

وبعد انتصاه فى دير الجماجم خطب فى أهل العراق خطبة كانت آية فى البلاغة والإبداع الفنى قال :

– ياأهل العراق

إن الشيطان قد استبطنكم [١] فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والأعضاء والشغاف [٢] ، ثم أفضى إلى المخاخ والأصماخ [٣] ، ثم ارتفع فعشش ، ثم باض وفرخ ، فحشاكم شقاقاً ونفاقاً . اتخذتموه دليلا تتبعونه ، وقائداً تطيعونه ، ومؤامراً تستشيرونه ، فكيف تنفعكم تجربة ، أو تعظكم وقعة ، أو ينفعكم بيان ؟

ثم أخذ يذكرهم بمواقفهم فى الحرب والمواقع فيقول :

– ألستم أصحابى بالأهواز حيث رمتم المكر ، وسعيتم بالغدر ، واستجمعتم للكفر . وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته ؟ وأنا أرميكم بطرفى وأنتم تنسلون لواذاً ، وتنهزمون سراعاً ؟

ثم يوم الزاوية وما يوم الزاوية ! بها كان فشلكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ، إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها ، النوازع إلى [٤] أعطانها ، لا يسأل المرء عن أخيه ، ولا يلوى الشيخ على بنيه ، حتى عضكم السلاح ، وقصمتكم الرماح .

---

(١) نفذ إلى باطنكم .

(٢) غلاف القلب .

(٣) فتحات الأذن الداخلية .

(٤) مبارك الإبل .

ثم يوم دير الجماجم وما يوم دير الجماجم ! بها كانت المعارك والملاحم ، بضرب يزيل الهام عن مقيله ، ويذهل الخليل عن خليله !

يا أهل العراق

هل استخفكم ناكث ، أو استغواكم غاو ، أو استنصركم ظالم ، أو استعضدكم خالع ، إلا تبعتموه ونصرتموه ؟

هل شغب شاغب ، أو نعب ناعب ، أو زفر زافر ، إلا كنتم أتباعه وأنصاره ؟

ثم التفت إلى أهل الشام وهم حول المنبر ، وقال يمدح موقفهم :

يا أهل الشام

إنما أنا لكم كالظليم[١] الرامح عند فراخه ، ينفى عنها المدر[٢] ويباعد عنها الحجر ، ويكنها من المطر ، ويحميها من الضباب[٣]، ويحرسها من الذئاب .

يا أهل الشام

أنتم الجنة(٤) والرداء ، والعدة والحذاء[٥] .

وهذا هو الحجاج يذهب إلى البصرة ، فيخطب فى أهلها خطبة

---

(١) ذكر النعام ويضرب به المثل فى الدفاع عن صغاره فيرمح من يقترب منها أى يرفسه .

(٢) الطين اليابس .

(٣) جمع ضب .

(٤) الوقاية .

(٥) من حاذى بمعنى ساعد وآزر .

تذكرهم بخطبة زياد فيقول :

– « أيها الناس

من أعياه داؤه فعندى دواؤه . ومن استطال أجله فعليّ أن أعجله ، ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله . ومن استطال ماضى عمره قصرت عليه باقيه .

إن للشيطان طيفاً ، وللسلطان سيفاً ، فمن سقمت سريرته صحت عقوبته ، ومن وضعه ذنبه رفعه صلبه ، ومن لم تسعه العافية لم تضق عنه الهلكة ، ومن سبقته بادرة فمه سبق بدنه بسفك دمه . إنى أنذر ثم لا أنظر ، وأحذر ثم لا أعذر وأتوعد ثم لا أعفو ، إنما أفسدكم ترنيق ولاتكم ، ومن استرخى لببه ساء أدبه إن الحزم والعزم سلبانى سوطى وأبدلانى به سيفى ، فقائمه فى يدى ، ونجاده فى عنقى ، وذبابه قلادة لمن عصانى . والله لا آمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد ، فيخرج من الباب الذى يليه إلا ضربت عنقه ! .. » .

* * *

هذه بعض خطب الحجاج تدل عليه وعلى سياسة حكمه ، وبهذه السياسة القائمة على البطش والشدة وطد ملك بنى أمية ، وحفظه من الفتن .

ولكن خطب الحجاج لم تكن كلها وعيداً وصواعق يصبها على رءوس السامعين .

فقد كان من واجباته أن يؤم الناس فى صلاة الجمعة وأن يخطبهم فكانت له خطب دينية تختلف عن خطبه السياسية . وقد ضاعت أكثر خطبه لأن عصره لم يكن عصر تدوين للخطب ، بل كان عصر حفظ ورواية ، وحفظ

النثر وروايته أصعب من حفظ الشعر .

ومن خطبه التي تدل على ذكائه ولباقته هذه الخطبة القصيرة التي ألقاها على الناس فى مكة بعد مقتل عبد الله بن الزبير ، فقد ارتجت مكة بالبكاء ، فخطب الناس قائلا :

— ألا إن عبد الله بن الزبير كان من أحبار هذه الأمة حتى رغب فى الخلافة ونازع فيها ، وخلع طاعة الله ، واستكن بحرم الله . ولو كان شيء مانعاً للعصاة لمنع آدم حرمة الجنة . لأن الله تعالى خلقه بيده ، وأسجد له ملائكته ، وأباحه جنته ، فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته . وآدم أكرم على الله من ابن الزبير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة . . ! » .

ومن كلامه فى خطبه الدينية قوله فى خطبة الجمعة :

— نِعم امرؤ حاسب نفسه ، امرؤ راقب ربه ، امرؤ زود عمله ، امرؤ فكر فيما يقرؤه غداً فى صحيفته ويراه فى ميزانه ، امرؤ كان عند همه آمراً ، وعند هواه زاجراً ، امرؤ أخذ بعنان قلبه كما يأخذ الرجل بخطام جمله ، فإن قاده إلى حق تبعه ، وإن قاده إلى معصية الله كفه . إننا والله ما خلقنا للفناء وإنما خلقنا للبقاء ، وإنما ننتقل من دار إلى دار .

وقوله فى خطبة أخرى .

— أيها الناس .

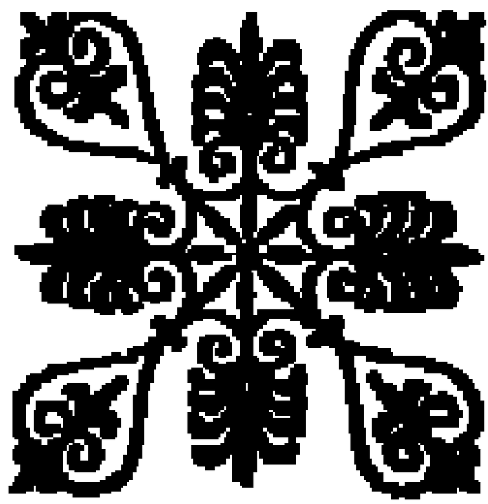
قد أصبحتم فى أجل منقوص ، وعمل محفوظ . رب ساع لغيره ، فالموت فى أعناقكم ، والنار بين أيديكم ، والجنة أمامكم . خذوا من أنفسكم لأنفسكم ، ومن غناكم لفقركم ، ومما فى أيديكم لما بين أيديكم ، فكأن ما قد مضى من الدنيا لم يكن ، وكأن الأموات لم يكونوا أحياء ، وكل

ما ترونه فإنه ذاهب . هذه شمس عاد وثمود ، هذه الشمس التى طلعت على الأكاسرة وخزائنهم السائرة بين أيديهم وقصورهم المشيدة ، ثم طلعت على قبورهم ! أين الملوك الأولون ؟ أين الجبابرة المتكبرون ؟ المحاسب الله . والصراط منصوب وجهنم تزفر وتتوقد ، وأهل الجنة فى روضة ينعمون . جعلنا الله وإياكم من الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً » .

ويروى أنه عندما حضرته الوفاة كتب إلى الوليد بن عبد الملك يقول : « أما بعد ، فقد كنت أرعى غنمك ، أحوطها حياط الناصح الشفيق برعية مولاه ، فجاء الأسد فبطش بالراعى ومزق المرعى كل ممزق ، وقد نزل بمولاك ما نزل بأيوب الصابر ، وأرجو أن يكون الجبار أراد بعبده غفراناً لخطاياه . وتكفيراً لما حمل من ذنوبه » . .

عبدُ اللهِ بنُ الزّبير

« إنّا والله ما نموت على مضاجعنا ، ولكن »
« قعصاً بالرماح وموتاً تحت ظلال السيوف »
ابن الزبير



عبد الله بن الزبير

إن سيرة هذا الفارس الخطيب تعرض لنا صورة رائعة لحياة حافلة بالشجاعة والطموح ، زاخرة بأعمال البطولة الجريئة ، حتى لتكاد تشبه أساطير المغامرين. كان أبوه الزبير بن العوام ، حواريّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن عمته ، وأمه أسماء بنت أبى بكر ، ذات النطاقين . وقد ولد فى السنة الثانية للهجرة ، وكان أول مولود للمهاجرين بالمدينة ، ففرح المسلمون بولادته وكبروا ، لأن اليهود كانوا يزعمون أنهم قد سحروهم فلن يولد لهم . . ! وقيل إن النبي حنكه بتمرة لا كها بفمه ، وسماه عبد الله .

ونشأ عبد الله فى رعاية أبويه العظيمين، فصيحاً ، جريئاً .

قال هشام بن عروة « كان أول ما أفصح به عمى عبد الله بن الزبير وهو صغير ، السيف ، فكان لا يضعه من يده ، فكان الزبير يقول : والله ليكونن لك منه يوم وأيام . . . ! »

وحدث فى صباه أنه كان يلعب مع الصبيان فى الطريق ، فمر بهم عمر بن الخطاب ، ففر الصبيان من وجه عمر ، وبقى هو ، فقال له عمر :

— مالك لم تفر معهم ؟

فأجابه الصبي الجرىء :

— لم أجرم فأخافك ، ولم تكن الطريق ضيقة فأوسع لك .

ولقد امتاز عبد الله بن الزبير بعد ذلك فى حياته بخصال ثلاث سيطرت

على حياته كلها ، وكانت مقومات شخصيته . أولها الشجاعة التى سنرى مظاهرها فى وقائع حياته ، وثانيها الفصاحة التى جعلت منه خطيباً ممتازاً ، وأخيراً إيمانه العميق ، وورعه وتدينه ، فقد كان صواماً قواماً . ورد فى تاريخ ابن الأثير أنه لم يكن باب من أبواب العبادة يعجز عنه الناس إلا تكلفه ابن الزبير ، وأنه حدث أن سيلا أحاط بالبيت الحرام ، فكان ابن الزبير يطوف بالبيت سباحة .

وعندما أمر عثمان بن عفان عامله على مصر بفتح شمال أفريقيا ، أمده بجيش يرأسه عبد الله بن الزبير ، فاشترك فى إدارة الموقعة الفاصلة بشجاعة وذكاء ومهارة ، وفاجأ « جريقوريوس » عامل الروم على طرابلس والمغرب وشتت جنوده وقتله بيده .

ورجع إلى الخليفة عثمان فقص عليه كيف كانت الموقعة ، فأعجب عثمان بما سمع ، وطلب إليه أن يروى للناس حديث الفتح الجديد وسأله :

— أتقوم بمثل هذا الكلام على الناس ؟

فقال عبد الله :

— يا أمير المؤمنين ، إنى أهيب لك ، منى لهم .

فقام عثمان خطيباً فى الناس وبشرهم بفتح أفريقيا وقال لهم إن ابن الزبير سوف يخبرهم خبرها . وكان ابن الزبير إلى جانب المنبر فقام خطيباً ، وكان أول من خطب إلى جانب المنبر ، فوصف للناس فى بلاغة وتدفق ما حدث من فتح ، حتى إذا انتهى نهض إليه أبوه الزبير ، فقبله بين عينيه وقال « ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ، مازلت يابنى تنطق بلسان أبى بكر حتى صمت . . »

وكان عبد الله مع أبيه فى وقعة الجمل ، وجرح جراحاً كثيرة ، ولكنه نجا وشفى من جراحه . ولما استقرت الخلافة لمعاوية كان ابن الزبير من زعماء جنده ، واشترك فى غزوة القسطنطينية التى جهزها معاوية . وإن من يتتبع أخباره وأحاديثه مع معاوية يشعر بأنه كان ينفس على معاوية ما وصل إليه ، ويلمح أنه كان يطمح إلى الإمارة ، ويرى أنه جدير بها وكانت له فى مجالس معاوية مخاصمات ومناقشات أغلظ فيها القول لمعاوية وتفاخر عليه .

حدث يوما أن رد على معاوية فخاطب الحاضرين فى مجلسه قائلا :

— أسألكم بالله ، أتعلمون أن أبى حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن أباه أبا سفيان حارب رسول الله ؟ وأن أمى أسماء بنت أبى بكر الصديق وأمه هند آكلة الأكباد ؟ وجدى الصديق وجده المشدوخ ببدر ورأس الكفر وعمتى خديجة ذات الخطر والحسب وعمته أم جميل حمالة الحطب . وجدتى صفية وجدته حمامة ؟ وزوج عمتى خير أبناء آدم محمد صلى الله عليه وسلم ، وزوج عمته شر بنى آدم أبو لهب ، سيصلى ناراً ذات لهب ؟ وخالتى عائشة أم المؤمنين وخالته أشقى الأشقين ؟ وأنا عبد الله وهو معاوية ! ؟ »

بهذه اللهجة كان يخاطب معاوية ، وبهذه الجرأة كان يتحداه على الملأ ، وكان معاوية يحسب حسابه ، ويخشى منه على ابنه وولى عهده يزيد ، فقال فى وصيته الأخيرة ليزيد يحذره من ابن الزبير :

— لست أخاف عليك غير « عبد الله بن عمر » ، « والحسين بن على » و « عبد الله بن الزبير » .

أما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذه [1] الورع ، وأما الحسين فإنى

---

(١) صرعه .

أرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه ، وأما ابن الزبير فإنه خبّ[١] ضب ، فإن ظفرت به فقطعه إرْباً إرْباً . . » .

وعندما أراد معاوية أن يروض الناس على البيعة لابنه يزيد قال لابن الزبير :

– ما ترى فى بيعة يزيد ؟

فقال له ابن الزبير :

– يا أمير المؤمنين . . . إنى أناديك ولا أناجيك . إن أخاك من صدقك ، فانظر قبل أن تتقدم ، وتفكر قبل أن تندم ، فإن النظر قبل التقدم ، والتفكر قبل التندم . . » .

فضحك معاوية وقال :

– ثعلبٌ روَّاغ . . ! فى دون ما سجعت به على ابن أخيك ما يكفيك .

وعندما جمع معاوية الوفود ليحدثهم فى أمر البيعة ليزيد ، وتكلم الخطباء بين مؤيد ومعارض ، قام عبد الله بن الزبير فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه .

– أما بعد ، فإن هذه الخلافة لقريش خاصة ، تتناولها بمآثرها السنية ، وأفعالها المرضية ، مع شرف الآباء وكرم الأبناء . فاتق الله يا معاوية ، وأنصف من نفسك ، فإن هذا عبد الله بن عباس ، ابن عم رسول الله صلى عليه وسلم وهذا عبد الله بن جعفر ذى الجناحين ابن عم رسول الله ، وأنا عبد الله بن الزبير ابن عمة رسول الله ، وعليّ خلف حسناً وحسيناً وأنت تعلم من هما وما هما . فاتق الله يا معاوية ، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك » .

---

(١) الخب الخداع ، والضب الحقد الدفين ، ورجل خب ضب يعنى مراوغ .

هكذا كان شأن ابن الزبير مع معاوية ، فلما توفى سنة ستين هجرية وخلفه ابنه يزيد ، كان ابن الزبير ممن امتنع عن مبايعته ، وكان أشدهم عليه ، ولكنه لم يجاهر بطموحه إلى الخلافة لعلمه أن أعداء بنى أمية يؤثرون الحسين بن على . فلما قتل الحسين سنة إحدى وستين هجرية ، وجد الفرصة سانحة ، والثمرة ناضجة ، فثار بالحجاز ، وأخذ البيعة لنفسه ، وكاتب أهل العراق واليمن وخراسان ومصر فوافقه الجم الغفير منهم على خلع بنى أمية ، فأرسل العمال ، وولى الولاة . فلنستمع إليه الآن يخطب فى أهل مكة بعد مقتل الحسين ، يعظم مقتله ، ويلوم أهل العراق والكوفة خاصة ؟ ويحرك العواطف ضد بنى أمية فيقول :

— إن أهل العراق أهل غدر وشر إلا قليلا ، وإن أهل الكوفة شرار أهل العراق . لقد دعوا الحسين لينصروه ويولوه عليهم ، فلما قدم عليهم ثاروا إليه فقالوا له إما أن تضع يدك فى أيدينا فنبعث بك إلى ابن زياد بن سمية سلماً ، فيمضى فيك حكمه ، وإما أن تحارب . فرأى والله — وأصحابه قليل بين كثير — أنه مقتول . ولكنه اختار الميتة الكريمة على الحياة الذميمة . فرحم الله الحسين وأخزى قاتله . لعمرى لقد كان من خلافهم إياه وعصيانهم ، ما كان فى مثله واعظ وناه عنهم . ولكنه ما حم نازل ، وإذا أراد الله أمراً لن يدفع ، أفبعد الحسين نطمئن إلى هؤلاء القوم ؟ أيمكن أن نصدق قولهم ونقبل لهم عهداً ؟ لا . . ولا نراهم لذلك أهلا . أما والله لقد قتلوه طويلاً بالليل قيامه ، كثيراً فى النهار صيامه ، أحق بما هم فيه منهم ، وأولى به فى الدين والفضل » .

ثم يختم خطابه معرضاً بيزيد فيقول :

— أما والله ماكان يبدل بالقرآن الغناء ، ولا بالبكاء من خشية الله الحداء ، ولا بالصيام شرب الحرام ، ولا بالمجالس فى حلق الذكر ، الركض فى تطلاب الصيد ، فسوف يلقون غياً . .

وكانت بين ابن الزبير ويزيد حروب كثيرة ؛ فلما توفى يزيد سنة ٦٤ هجرية اشتد أمر عبد الله بن الزبير ، ودانت له أكثر البلاد الإسلامية ، عدا بلاد الشام ، فقد بايع أهلها معاوية بن يزيد ، ثم مروان بن الحكم الذى سار إلى مصر ففتحها ، ثم توفى بعد شهور من خلافته وخلفه ابنه عبد الملك ابن مروان ، فاتصلت الحروب بينه وبين ابن الزبير الذى ثارت عليه فتن كثيرة ، ففارقه الخوارج ، وانتقض عليه أهل الكوفة ، واشتغل ابن الزبير بقتالهم جميعاً .

وكان ابن الزبير قد ولى أخاه مصعباً على العراق ، فخرج عبد الملك ابن مروان لقتاله بنفسه فى جيش كبير من أهل الشام فأخضع العراق وقتل مصعب بن الزبير .

وعندما وصل خبر مقتل مصعب إلى أخيه عبد الله سكت أياماً ثم صعد المنبر فجلس عليه ملياً لا يتكلم والكآبة على وجهه وجبينه يرشح عرقاً ، فقال رجل من قريش لجاره :

— ماله لا يتكلم ؟ أتراه يهاب المنطق ! فوالله إنه للبيب الخطباء .

ثم تكلم ابن الزبير فقال :

— الحمد لله الذى له الخلق والأمر ، وملك الدنيا والآخرة ، يؤتى الملك من يشاء ؛ وينزع الملك ممن يشاء . ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، ألا وإنه قد أتانا خبر من العراق : بلد الغدر والشقاق ،

فساءنا وسرنا . أتانا أن مصعباً قتل رحمة الله عليه ومغفرته فأما الذى أحزننا من ذلك ، فإن لفراق الحميم لذعة ولوعة يجدها حميمه عند المصيبة ، ثم يرعوى من بعد ذو الرأى والدين إلى جميل الصبر وكريم العزاء . وأما الذى سرنا منه فإنا قد علمنا أن قتله شهادة له . فقد أسلمه الطغام الصم الآذان إسلام النعم المخطمة[١] ، وباعوه بأقل من الثمن الذى كانوا يأخذون منه فإن يقتل فمه[٢] . . ! ؟ لقد قتل أبوه وعمه وأخوه وكانوا الخيار الصالحين . إنا والله ما نموت على مضاجعنا ، ولكن قعصاً[٣] بالرماح ، وموتاً تحت ظلال السيوف ، وليس كما يموت بنو مروان . والله ما قتل منهم رجل فى زحف فى جاهلية ولا إسلام . ألا إنما الدنيا عارية من الملك القهار الذى لا يزول سلطانه ولا يبيد ملكه . فإن تقبل الدنيا علىّ ، لم آخذها أخذ الأشر البطر ، وإن تدبر عنى لم أبك عليها بكاء الخرق المهين . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . . . »

* * *

ولقد أدبرت عنه الدنيا ، إذ أرسل عبد الملك بن مروان الحجاج لقتاله ، فحاصر مكة طويلاً ، ورمى الكعبة بالمنجنيق . ولما طال الحصار واشتدت المجاعة تفرق الناس عنه وخرجوا إلى الحجاج بالأمان .

ودخل ابن الزبير على أمه أسماء بنت أبي بكر فقال لها :

---

(١) الإبل المربوطة من أنوفها .

(٢) فماذا فى الأمر ؟ .

(٣) قعصه أى قتله وأجهز عليه ومات فلان قصعاً أى أصابته ضربة أو طعنة فمات مكانه .

– خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ، فلم يبق عندى إلا اليسير ممن ليس عنده أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا . . فما رأيك ؟

فأجابته أمه جوابها الخالد الجدير ببنت الصديق ، قالت :

– أنت والله يا بنى أعلم بنفسك . إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بنى أمية . وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت . أهلكت نفسك ومن معك . وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت عزيمتى ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين . كم خلودك فى الدنيا ؟ القتل أحسن ما ينزل بك يابن الزبير.

فوالله لضربة بالسيف فى عز أحب إلى من ضربة بالسوط فى ذل .

فقال لها :

– إنى أخاف إن قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى .

قالت :

يابنى . . إن الشاة لايضرها السلخ بعد ذبحها . . !

فدنا منها فقبل رأسها ، فعانقته فوقعت يدها على درع كان يلبسه .

فقالت له :

– ما هذا صنيع من يريد ما تريد .

قال :

– ما لبسته إلا لأشد متنك .

فقالت :

– فإنه لا يشد متنى .

فنزع الدرع وانطلق فقاتل قتالا شديداً حتى أثخن بالجراح وقتل ، فأرسل الحجاج رأسه إلى عبد الملك ، وصلب جثته .

ومرت الأم العظيمة بابنها المصلوب فلم تزد على أن قالت :

– أما آن لهذا الفارس أن يترجل . . ؟ !

وكتب عبد الملك إلى الحجاج يلومه على صلبه ، فأمر بتسليم جثته إلى أمه فغسلته ودفنته ، وكان له من العمر اثنتان وسبعون سنة ، ودامت خلافته تسع سنين .

وقد لقى الحجاج بعد ذلك أمه فقال لها :

– كيف ترينى صنعت بابنك ؟

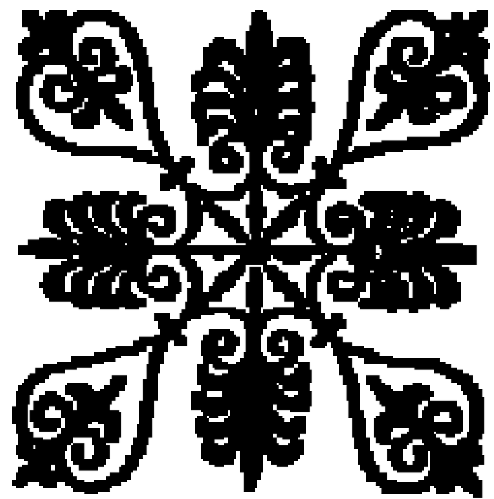
فأجابته قائلة :

– أفسدت عليه دنياه ، وأفسد عليك آخرتك .

ولحقت به بعد قليل .

ميرابو

« اذهب وقل لمولاك إننا هنا بإرادة الشعب »
« ولن نبرح مكاننا إلا على أسنة الحراب »
ميرابو



ميرابو

لقد ترك « ميرابو » اسماً لامعاً كالمجد الأسطورى ، ولكن حظه كان أقل من نبوغه .

هكذا قال عنه « بارتو » الوزير الفرنسى الشهير الذى يعتبر خير مؤرخ لميرابو

والواقع أن هذه العبارة تلخص بدقة حياة هذا الخطيب العبقرى الذى عاصر الثورة الفرنسية فى مهدها ، وقاد خطواتها الأولى بشجاعة وحكمة واعتدال .

وفى عهود الثورات الشعبية العارمة يكون للخطابة شأن خطير فى توجيه الحوادث . فالخطباء هم الذين يقودون الجماهير ، ويثيرون حماستهم بكلماتهم النارية . وكل مطلع على تاريخ الثورة الفرنسية يعرف كيف سيطر الزعماء من خطباء الجماهير على مجرى الأمور ، ثم أمسكوا بأيديهم زمام الحوادث ، وقبضوا بعد ذلك على السلطة فى فرنسا زمنا ، وكيف كانوا يوجهون الجماهير لأغراضهم فيلهبون حماسهم بالخطب المعسولة ويحشدونهم لتنفيذ مآربهم وإرهاب خصومهم . وكم شهدت شوارع باريس وحدائقها والجمعية الوطنية الخطباء من أمثال ديمولان ، ودانتون ومارا ، وروبسبير يشبون بخطبهم نار الثورة ويذكون أوارها حتى اندلع لهبها وكأنها الجحيم قد فتح أبوابه وقذف

قذائفه . . ! ولقد دفع هؤلاء الخطباء المتطرفون الثورة فى طريق مظلم مخضب بالدماء ، وارتكبوا أفظع الجرائم باسم الحرية ، ونشروا على فرنسا ظلا كثيفاً من الرعب والإرهاب ، ثم انتهى الأمر بمعظمهم إلى المقصلة فسقطت رءوسهم تحت سكينها التى طالما تخضبت بدماء الأبرياء .

لقد دفعوا الشعب إلى الجنون ، فسكر من الدم ، ثم سقاهم من الكأس التى جرعوها الآلاف من ضحاياهم .

ولكن ميرابو لم تبتلعه الثورة المجنونة ، بل إنه سحرها ولم يخضع لسحرها ولم يجن مع الشعب بل ظل عاقلا ، وكان الوحيد بين زعماء الثورة الذى لم تسقط رأسه تحت سكين المقصلة ، بل ظلت مرتفعة فى خضم الحوادث ، يحميها بسحره الخطابى وشجاعته وجرأة بيانه ضد كل هجوم ، فلم تصل إليها يد حاقد حاسد ، ولم تتناولها سكين الجلاد .

ولد « أونوريه جابرييل ريكيتى كونت دى ميرابو » فى ٩ مارس عام ١٧٤٩ ، وعندما بلغ الخامسة من عمره عهد به أبوه إلى السيد « بواسون » الذى أخذ يلقنه مبادئ التاريخ والفلسفة ويعلمه اللاتينية واليونانية ، ثم أدخله مدرسة داخلية فى باريس حيث درس مختلف العلوم والفنون ، ثم ألحقه بعد ذلك بسلاح الفرسان . وسافر « ميرابو » مع فرقته إلى بلدة « سانت » ولكنه فى عام واحد دخل السجن خمسة أشهر . وذات مساء بعد أن خسر فى الميسر مبلغاً كبيراً ، هرب من وجه الدائنين تاركاً وراءه فتاة غرر بها بعد أن وعدها بالزواج . وأصدر وزير الحربية أمراً بنفيه فى قلعة بإحدى الجزر ، ولكنه استطاع قبل

أن يخرج من المنفى أن يحصل على رتبة ملازم ثان فى الجيش المسافر لقمع الثورة فى جزيرة « كورسيكا » . وهناك حارب بشجاعة وكتب يقول « إننى ولدت لأكون محارباً . فقد وهبتنى الطبيعة النظرة الفاحصة الخاطفة . وليس هناك كتاب فى فنون الحرب كتب بلغة حية أو ميتة لم يقع نظرى عليه . . » .

ومن مصادفات القدر أنه حينما كان « ميرابو » يحارب فى جزيرة كورسيكا عام ١٧٦٩ شهدت « أجاكسيو » عاصمة الجزيرة مولد نابليون بونابرت فى منزل متواضع ! . ولكن الأقدار كانت تدخر لهذا المحارب الشاب حياة أخرى . فكانت تلك الحملة هى المعركة الوحيدة التى اشترك فيها ميرابو ، ثم عاد إلى فرنسا ليعيش مع عمه الذى تنبأ له بمستقبل عظيم . وكان يقول عنه « سيكون هذا الفتى أهم مواطن فى أوربا . ومن المحتمل أن يصبح بابا أو وزيراً أو جنرالا أو مستشاراً . . ! » .

ولكن « ميرابو » خيب ظن عمه ، فقد اندفع إلى حياة حافلة بالمغامرات الغرامية والمشاجرات ولعب القمار ، وأسرف فى الاستدانة حتى بلغت ديونه أكثر من مائتى ألف من الجنيهات ، وأصبح الدائنون يطاردونه فى كل مكان .

وتدخل أبوه لإنقاذه ، فاستصدر من الملك أمراً بإبعاده ليكون بمأمن من الدائنين . ولكن ميرابو فر مع إحدى عشيقاته وهى المركيزة « دى مونييه » إلى هولندا . وهناك اضطر إلى احتراف الكتابة ، فنشر عدداً من الكتب والملازم والرسائل التى أذاعت صيته قبل الثورة .

وعندما اكتشف البوليس مكانه قبض عليه ، وأرسل ميرابو إلى قلعة

« فنسان » حيث ظل سجيناً نحو أربعة أعوام .

وفى هذا السجن بدأ « ميرابو » يكتشف نفسه ، وأخذت تتجلى مواهبه الخطابية . فقد عاد إلى الكتابة فوضع عدة كتب كان أشهرها كتاب « الذكريات » الذى قال عنه « سانت بوف » إن عباراته البليغة مليئة بالثورة والحركات اللاإرادية للخطيب . ومن سجنه وجه إلى أبيه وإلى عمه رسائل يشرح فيها موقفه ويدافع عن نفسه كانت بمثابة خطب ومرافعات رائعة وكأنها أرهاص بمولد الخطيب المنتظر .

وقد واجه الجمهور لأول مرة بعد إطلاق سراحه ، عندما وقف « ميرابو » يدافع عن نفسه فى ساحة المحكمة فى القضية التى رفعتها عليه زوجته تطلب الطلاق . وحولت القضية إلى البرلمان فكانت بلاغته موضع الدهشة والإعجاب ثم سافر « ميرابو » إلى إنجلترا ، وهناك شهد كيف تسير الديمقراطية الناشئة ، وكيف يستطيع أن يظفر بالحكم أكثر الناس جرأة وبلاغة ، وزار مجلس العموم ، وسمع الخطباء ، ورأى وزيراً فى الرابعة والعشرين من عمره يسيطر على أقدار بريطانيا العظمى فى ظل الديمقراطية . وعندما سمع « وليم بت » الصغير يخطب ، أدرك مقدار القوة التى يمكن أن يثيرها اسم شهير إذا وهب الفصاحة والقدرة الخطابية .

لقد عاش « ميرابو » اثنين وأربعين عاماً قضى معظمها بين نفى وسجن واغتراب ، بسبب مغامرات الشباب ، ولكنه كان حيث ذهب يدرس ويقرأ ويكتب ، وساعده على ذلك ذكاء حاد ، وذاكرة قوية جعلت أباه يقول عنه وهو فى السادسة من عمره « انه كالرمل يبتلع

كل شيء » وعندما بدأت أحداث الثورة كان فى الأربعين من عمره ، وقد استكمل عدته ليلعب دوره الكبير ، ولكنه كان يحمل على كتفيه أخطاء شبابه ونزوات صباه . وكان هذا الماضى يعرقل خطاه ، ويمنعه من إظهار قدراته كاملة ، فكان يقول فى أسف حزين : .

« أسفاه . . ! كم أساءت عثرات الشباب الى المصلحة العامة ، إذ حالت بينى وبين الكثير مما أصلح له . لو كانت لى السمعة الحسنة فكم من أقدار كنت سأضمنها لبلادى ، وكم من مجد كنت سأقرنه باسمى ! » .

* * *

عندما ساءت الحالة المالية لفرنسا ، واشتدت الضائقة المالية بالحكومة حتى أصبحت على شفا الإفلاس ، اضطر الملك لويس السادس عشر إلى دعوة مجلس الأمة ليعاونه على معالجة الأزمة المالية ، وينظر فى سياسية الإصلاح التى وضعها الوزير « نكر » .

وكان « ميرابو » فى « برلين » عام ١٧٨٨ عندما سمع بدعوة المجلس الذى لم تشهد فرنسا جلساته منذ عام ١٦١٤ ، وعلم بأن الاستعداد يجرى لانتخاب أعضائه ، فأسرع عائدا إلى فرنسا .

كان « ميرابو » بطبيعة مولده أرستقراطياً من الأشراف ، فسعى للحصول على مقعد فى المجلس بين النبلاء ، ولكنهم أعرضوا عنه وأبوا عليه هذا الشرف ، فحقد عليهم واتخذهم هدفاً لحملاته منذ ذلك اليوم .

واتجه « ميرابو » إلى الشعب فألقى بنفسه بين أحضانه ، ورشح

نفسه عن العامة فى دائرتين ، وخاض غمار المعركة الانتخابية منادياً بحقوق الشعب ، منادياً بالإصلاح ، منددا بالأشراف وامتيازاتهم وبالفساد المستشرى فى البلاد . وفتن الشعب بهذا النبيل الذى يدافع عن حقوقه ، وتحمس له ، فكان يقابله كما يستقبل الأبطال الظافرين ، حتى بلغ الأمر بالجمهور أنه كان يقبل مكان مرور عجلات عربته !

وكانت المعركة الانتخابية فرصته الكبرى ليمتحن قدرته على الخطابة ، وليكشف عن نبوغه وعبقريته فى التأثير على الجماهير . لقد استطاع أن يخلب الألباب بسحر بيانه ، وروعة بلاغته . وأن يسيطر على الجماهير فيطويها وينشرها على هواه . ويخضعها لسحره . مما جعله يقول :

– هكذا يصبح الشعب عبداً . . !

ونجح فى الدائرتين فاختار النيابة عن « أكس » ، وعندما اجتمع « مجلس طبقات الأمة » فى ٥ مايو ١٧٨٩ خلع « ميرابو » ثياب الأشراف وذهب إلى المجلس مرتدياً ثياب نواب الشعب السوداء وجلس بين صفوفهم .

وكان المجلس مكوناً من ثلاث طبقات هى الأشراف ورجال الدين والعامة .

وكان عدد نواب العامة مساوياً لمجموع عدد نواب طبقتى الأشراف ورجال الدين . وعندما افتتح الملك المجلس أعلن أن الغرض الأساسى من الاجتماع هو معالجة الحالة المالية ، ولم يشر إلى موضوع الدستور الذى كان يطالب به الشعب . وفى اليوم التالى ذهب نواب العامة إلى المجلس فلم يجدوا الأشراف أو رجال الدين ، فقد اجتمعت كل

طبقة منها فى قاعة منفردة . وأدرك نواب الشعب أن الهدف من ذلك هو حرمانهم من الانتفاع بميزة عددهم المضاعف عند أخذ الأصوات ، فيكون لهم صوت واحد . ولكل من الطبقتين الأخريين صوت مماثل . وانقضى اليوم بغير عمل ، فقد وجد نواب الشعب المنتخبون أنفسهم وحدهم . حائرين بغير برنامج أو خطة عمل ، يتساءلون أين الحكومة وممثلوها . وقد استولى عليهم الخوف والحذر .

وكان « ميرابو » ينظر إليهم فيرى خمسمائة من النكرات المتشابهة قد انتخبهم الشعب ولكنهم لا يدرون ماذا يصنعون . إن لهم أهدافاً ولكنهم لا يعرفون وسيلة لتحقيقها . وأدرك أنهم فى حاجة إلى من يقودهم ، إلى العقل المفكر ، والرأس المدبر ، والقلب الذكى الشجاع ، واللسان الذى يصول ويجول . إنها اللحظة التى كان ينتظرها ، فها هى ذى المنصة ليس أمامه إلا أن يصعد درجاتها ، وهؤلاء هم نواب الشعب يتلفتون بحثاً عن الزعيم ، فلماذا لا يتقدم ولديه كل المزايا التى تؤهله لسد الفراغ ؟ وبعد أيام من الحيرة والتردد والمفاوضات العقيمة مع الطبقات الأخرى ، أعلن « ميرابو » أنه علم أن « سييس » نائب باريس لديه اقتراح عملى . وتقــدم « سييس » باقتراحه وهو أن تستقل طبقة العامة بالعمل وتطلق على نفسها « الجمعية الوطنية » وتبدأ على الفور بوضع دستور تصان فيه حقوق الشعب .

ووافق النواب بالإجماع ، وانضم إليهم عدد من النبلاء ورجال الدين ، وانتخبت الجمعية رئيساً مؤقتاً لها من نواب الشعب .

ولكنهم عندما توجهوا فى اليوم التالى إلى قاعة الاجتماع ، وجدوا الأبواب

مغلقة بحجة إعداد القاعة لجلسة مقبلة ، فاتجهوا إلى ملعب التنس المجاور ، وهناك أقسموا على أن « نواب فرنسا قد أقسموا على ألا يتفرقوا . وأن يجتمعوا فى كل وقت ، وفى كل مكان ، حتى يضعوا لفرنسا دستوراً على أساس متين ».

وفى يوم ٢٣ يونية دعيت الطبقات الثلاث للاجتماع فى القاعة العامة ، وحضر الملك وألقى خطاباً ضمنه إلغاء القرار الذى اتخذه نواب الشعب ، وحدد الإصلاحات التى رأى بحثها لإدخالها على نظام الحكومة . ثم أعلن قراره الأخير بوجوب انفصال طبقات المجلس عند المناقشة وأخذ الأصوات . ثم غادر القاعة ومن ورائه الأشراف ورجال الدين ظافرين بما كانوا يطلبون .

وبقى نواب الشعب وقد تولاهم الذهول ، وتنازعتهم عوامل السخط والتمرد والخوف .

ودخل رئيس التشريفات يذكرهم بأمر الملك ويطلب إليهم أن يتفرقوا ، ولكنهم جمدوا فى أماكنهم وقد خيم على القاعة صمت رهيب .

وأطل عليهم التاريخ يرقب ما يصنعون .

وفجأة برز « ميرابو » من بين الصفوف الواجمة ، وتقدم نحو رسول الملك وعيناه تقدحان بالشرر ، وصوته يدوى كالرعد وكأنه صوت القضاء المحتوم ، وهو يقول :

اذهب وقل لمولاك إننا هنا بإرادة الشعب ، ولن نبرح مكاننا إلا على أسنة الحراب . .

أرسل ميرابو هذه الكلمات فاختفى رئيس التشريفات . وتشجع النواب فظلوا فى أماكنهم وتجاهلوا أمر الملك وكأنه لم يكن ، وسلم « لويس » واستسلم للأمر الواقع ، وعرفت الجمعية الوطنية زعيمها وسيدها الآمر .

وتناقل الشعب عبارات « ميرابو » فأصبح رجل الدولة ورمز الثورة .

* * *

وكان « ميرابو » قد وضع لنفسه خطة سياسية واضحة . فهو يرى الإبقاء على الملكية مع إقامتها على نظام ديمقراطى كالنظام الإنجليزى ، فيكون للشعب مجلس نيابى منتخب يضع القوانين ويفرض الضرائب . وكان ينادى بوضع دستور يفصل بين السلطات ، ويحدد اختصاص كل منها فلا تطغى إحداها على الأخرى . ولكن الجمعية الوطنية لم تكد تبدأ عملها حتى بدأ الملك يتنكر للشعب ، فاستقدم الجيش إلى « فرساى » حيث أحاطت جنوده بالجمعية لإرهاب أعضائها .

ولما يئست الجمعية من استجابة الملك لطلبها أن يسرح الجنود ، صعد « ميرابو » إلى المنبر ، وألقى خطبة ملتهبة هاجم فيها علناً لأول مرة سياسة الملك ، وندد ببطانته ، وعاب على الملك خضوعه لزوجته « مارى أنطوانيت » ولبطانة السوء ، وقال :

– هل قرءوا فى تاريخ الشعوب كيف تبدأ الثورات وكيف تسير ؟ وهل أدركوا أن الحوادث فى تفاعلها واشتباكها قد تدفع بأشد الناس اعتدالا إلى أقصى حدود التطرف . . ؟

وأدهش « ميرابو » الجمعية مرة أخرى بشجاعته وبلاغته .

وعندما جاء الملك إلى الجمعية يعرض عليها أن تنتقل إلى مدينة أخرى بعيداً عن الجنود الذين يحيطون بقصر فرساى ، قال « ميرابو » ساخراً :

– إننا لم نطلب الهرب من الجنود ، وإنما نطلب إجلاء الجنود عن العاصمة !

ولكن الملك مضى فى تدبيره الرجعى ، فعزل « نكر » الذى كان الشعب يعلق عليه الآمال فى إصلاح الحالة المالية . وهاجت الخواطر بتأثير المتطرفين من أمثال « مارا وكاميل دى مولان » الذى أسرع بنقل الخبر إلى « باريس » ووقف على إحدى الموائد فى ميدان « الباليه رويال » يخطب الجماهير التى احتشدت حوله ويقول « لقد عدت الآن من فرساى ، وقد عزل الملك « نكر » ، وعزله إيذان بوقوع مذبحة يهلك فيها الوطنيون . لقد انطلقت جنود الجيش هذا المساء لتبطش بكم ، فبادروا إلى حمل السلاح ولا تضيعوا لحظة واحدة ، واحملوا شارات نتميز بها ، احملوا الشارة الخضراء رمزاً للأمل ، أيها الإخوان . . إننى أدعوكم إلى الحرية . . « ثم لوح بمسدسه وصاح » لن ينالنى أحد حياً ، فسوف أعرف كيف أموت بشجاعة . إن مصاباً واحداً هو الذى يمكن أن ينزل بى ، ذلك أن أرى فرنسا مستعبدة . . » ثم تناول شريطاً أخضر وضعه فى قبعته ، فحمله الناس ، وانطلقوا يطلبون السلاح ، ثم اقتحموا الإنفاليد ودار الصناعة واستولوا على ما فيها من سلاح .

ووثب الشعب فى ١٤ يولية على الباستيل فسوى جدرانه بالأرض ، وانطلقت الثورة من عقالها حيواناً مفترساً متعطشاً للدماء ، وهاجم الشعب فى الأقاليم قصور الأشراف ، وسادت الفوضى فى كل مكان .

وأزعج ذلك « ميرابو » فأخذ يعلن أن استمرار دكتاتورية الشعب سوف يعرض الحرية للدمار ، وأطلق نبوءته التى تحققت بعد عشرة أعوام عندما قال :

— إن الشعب إذا اعتاد الفوضى وسفك الدماء ، فإنه بدلا من تحقيق

الحــرية . سوف يسقط فى هاوية العبودية ، وسوف يخرج من أعماق تلك الفوضى مستبد قاهر يتراءى للشعب فى ثياب المنقذ . .

وعندما ازدادت الفوضى فزع الملك من تمادى الشعب ، فاستدعى فرقة « الفلاندر » الموالية له لتكون بمثابة حرس خاص يدافع عنه فى فرساى . وانتهز المهيجون الفرصة لإثارة الشعب ضد الملك ، ولإرغامه على الإقامة فى باريس ليأمنوا جانبه ، فدبروا ثورة النساء للمطالبة بالخبز . واقتحم المتظاهرون قصر فرساى ، ولكن « لافايت » أسرع لنجدته على رأس الحرس الأهلى ، وحال بين الملك وبين الشعب الهائج على أن يعود الملك إلى باريس واضطر « لويس » إلى الاستسلام ، وعاد إلى قصر « التويلرى » بباريس وسط موكب النساء ، حاملاً على صدره شارة الثورة .

وهدأت الحالة فى فرنسا بعض الشيء وانتقلت الجمعية الوطنية إلى باريس وانصرفت إلى وضع الدستور الذى بدأته فى فرساى .

وفى هذه المرحلة تجلت عبقرية الخطيب العظيم ميرابو .

* * *

اشتركت عناصر عديدة فى تكوين شخصية الخطيب العبقرى ميرابو .

وهبته الطبيعة جسماً فريداً ، فكان طويل القامة ، عريض المنكبين ، له رأس ضخم يغطيه شعر كثيف يصففه ، وعينان تشعان بريقاً خاطفاً ، رآهما « شاتوبريان » فقال « رأيت فيهما الكبرياء والرذيلة والعبقرية ، وعندما تذبلان على طريقته الخاصة ، فحدث ما شئت عن السحر الذى لا يقاوم » .

إذا اعتلى المنبر طالعك منه وجه قبيح ، سلط الزمن عليه الجدرى فى

صباه فكساه طابع الجهامة ، فكان يبدو بشعره الهائل كمعرفة الأسد ، شيئاً مخيفاً لا يجرؤ أحد على مقاطعته . قال عنه أحد أعضاء الجمعية : « كان ميرابو وحشاً هائجاً مفترساً ، له وجه النمر ، لا تراه متكلماً إلا ثائراً منفعلا » . وكان هو يقول عن نفسه « إنهم لا يدركون ما لقبح وجهى من قوة . . ! » .

أما صوته فكان هبة الطبيعة الكبرى للخطيب . صوت موسيقى ذو جرس ورنين ، يعرف كيف ينوعه بمهارة ، تسمعه تارة عذباً رقيقاً ناعماً ، وتارة صاخباً هائجاً كقصف الرعد ، يقذف عباراته الغاضبة كالصواعق ترتج لها جنبات المجلس .

دخل المجلس فى سن الأربعين رجلا مكتمل النضج والتجربة ، مزوداً بذخيرة ضخمة من المعلومات ، قد اختلط بالفلاحين فى مقاطعته ودرس أحوالهم وتعامل مع المرابين ورجال المال فعرف أسرارهم ، وخاض غمار المحاكم فى قضاياه الخاصة فأدرك عيوب إجراءاتها ، كما عرف أسرار السياسة ودسائس البلاط وخفايا القصور ، وساعده على ذلك ذهن لماح ، وذكاء خارق ، وذاكرة واعية ، وبديهة حاضرة .

وكانت له كما قلنا خطة واضحة وسياسة مرسومة يؤمن بأنها تحقق الحرية للشعب وتعصم فرنسا من الفوضى . كان يقف بين الملك والشعب ينصب لهما الميزان ، ويمنع القوتين المتصارعتين من أن تشتط إحداهما أو تطغى على الأخرى .

وعندما لمع نجمه فى سماء الجمعية أحاطت به الأحقاد من كل جانب ، وتربص به خصوم أنكروا عليه كل فضيلة ، وأطلقوا الإشاعات والاتهامات ، ولكنه لم يعبأ بهم ، وظل فى مكانه شجاعاً جريئاً قوياً .

وكانت رباطة جأشه على المنبر تثير الدهشة ، إذ كانت له قدرة عجيبة على السيطرة على عواطفه فى أشد الأوقات وأحرجها . فكانت أمواج الحقد والغضب التى يثيرها خصومه تتحطم عند قدميه دون أن تثيره أو تحرك منه ساكناً .

كان يتكلم عن التسمية التى يقترحها للمجلس فى الدستور الجديد فقاطعه خصومه ، وانهالت عليه التهديدات والشتائم ، وظل ساكناً حتى هدأت الضجة ، وعندما ترك المنبر التفت نحو الرئيس وقال بصوت جهورى :

– لقد تركت على مكتبك ياسيدى الرئيس الجزء الذى أثار كثيراً من الهدير ، والذى أسئ فهمه . إننى أقبل أن أحاكم على أساس محتوياته على أيدى كل أصدقاء الحرية . .

وفى إحدى المرات قاطعه فريق من الأعضاء وأشبعوه سباً ، فتوقف عن الكلام ونظر إليهم فى هدوء ثم قال :

– إننى أنتظر يا سادتى حتى تنتهى تحيتكم الرقيقة . . !

ثم واصل حديثه من النقطة التى توقف عندها .

وكان وهو جالس فى مقعده يرسل العبارة الواحدة تحمل من المعانى مالا تحمل الخطبة الكاملة . قال مرة عن « روبسبير » :

– سيذهب هذا الرجل بعيداً لأنه يؤمن بكل ما يقول .

وقال عن « لا فاييت » قائد الجيش :

– إن لا فاييت له جيشه ، أما أنا فلى رأسى .

وصاح مرة موجهاً كلامه إلى فريق من الأعضاء المشاغبين :

– ليسكت الأعضاء ذو الثلاثين صوتاً .

ويقول « بارتو » إن « ميرابو » كان مزوداً بما يمكن أن نسميه بالخيال التاريخي ، وقد ساعده على ذلك اطلاعه الواسع على التاريخ ، فكان بارعاً فى بعث أحداث الماضى ليستشهد بها أو يدلل على صحة فكرته ، فيلتقط الحادثة التاريخية ويلقى بها نابضة بالحياة فى خضم المناقشة . فعندما تردد الملك فى الموافقة على « إعلان حقوق الإنسان » الذى وضعته الجمعية ، وقف « ميرابو » يحاول التوفيق بين السيادة الوطنية للجمعية وبين السلطة الملكية ، ويقول محذراً الملك .

– يبدو لى أنه فى الإمكان توجيه رد إلى الملك نكلمه فيه بتلك الصراحة التى خاطب بها مجنون يدعى « فيليب » نفسه قائلا « ماذا عساك تفعل يا فيليب إذا كان العالم كله يقول كلا ، عندما تقول أنت نعم ؟ »

وعندما طالب أحد الأعضاء من رجال الدين بإعـــلان المذهب الكاثوليكى ديناً رسمياً للدولة ، اختلفت الآراء واحتدمت المناقشة ، فلما قال أحد الأعضاء إن لويس الرابع عشر كان قد وعد بألا يسمح بقيام المذهب البروتستانتى وطالب بالوفاء بهذا الوعد ، نهض ميرابو ليحتج على هذا العمل الاستبدادى الذى يصادر حرية العبادة ولا يصلح نموذجاً لمثلى شعب حر وقال بلهجة رائعة :

– بما أنه قد ذكرت نصوص تاريخية فى الموضوع فإننى لن أذكر إلا نصاً واحـــداً . ألا فتعلموا أيها السادة أننى أرى من هنا ، ومن نفس هذا المنبر الذى أحدثكم منه ، شرفة القصر الملكى يطل منها المنحرفون الذين يمزجون مصالحهم الدنيوية بأكثر الأمور الدينية قدسية ، ويستخلصون من يد ملك ضعيف السلاح القاتل الذى أعطى الإشارة لبدء مذبحة سان بارتلمى . . !

واستولى الذهول على أعضاء المجلس . وخيم عليهم صمت عميق وكأنما صعقتهم المفاجأة . وراحوا يحدقون فى الخطيب الذى كان ما يزال يشملهم بنظراته النارية وهو يرتعد من التأثر . ثم اندفعوا يصفقون ويهتفون . وبعد بضعة أيام كان أحد الأعضاء يهنئه بانتصاره ويقول له ضاحكاً إنه كان مبالغاً فى تصوره . لأنه لم يكن يستطيع أن يرى قصر اللوفر من مكانه فوق المنبر . فرد عليه ميرابو :

– فى لحظة الإلهام هذه . كنت أرى كل ما أقوله .

والواقع أن « ميرابو » كانت تسعفه بديهة حاضرة ، ومخيلة تومض بما يشبه الإلهام فى ساعات الحرج . وقد قال يوماً لخصمه « بارناف » الخطيب الشهير :

– أتدرى ماذا ينقصك ؟ إنه لا يوجد لديك إلهام !

وكانت له سخريات لاذعة .

اتهمه خصومه بأنه شوهد يجول شاهراً حسامه بين صفوف الفرق العسكرية المرابطة فى فلاندر ، ولم يكن هذا صحيحاً . فقد خلطوا بينه وبين « جاماش » الذى يشبهه فوقف يقول ساخراً :

–وهكذا ترون أن شهادة السيد الذى اتهمنى لن يكون فيها ما يكدر حقاً إلا بالنسبة للسيد « جاماش » الذى سيجد نفسه متهماً بشدة القبح والدمامة ، لا لشئ إلا لكونه يشبهنى . . !

وعندما كان يتكلم فى المناقشة التى أثيرت حول يمين الكنيسة ، انفجر هدير حزب اليمين . فقال :

–أتوسل إلى الحزب الذى يقاطعنى فى المجلس أن يدرك جيداً أننى لا أطمع فى أسقفية .

ولقد خاض « ميرابو » أروع معاركه الخطابية عند وضع الدستور .

كانت الجمعية الوطنية تسيء الظن بالملك ، فأخذت تحرمه فى مشروع الدستور من كثير من الحقوق التى تعتبر عادة من اختصاص السلطة التنفيذية ، وثار الخلاف فى الجمعية حول حق إعلان الحرب ، فكان من رأى « ميرابو » أن يكون هذا الحق للملك ، وأخذ يدافع عن رأيه متسائلا كيف يستطيع سبعمائة من النواب أن يقطعوا برأى سليم فى موضوع إعلان الحرب . ألا يكون من أثر الحماس الملازم لكل مناقشة حول الكرامة الوطنية ، أن تندفع الجمعيات الشعبية دائماً إلى إعلان الحرب؟ أما إذا ترك الأمر للملك فإنه لن يعلن الحرب إلا بعد بحث هادئ يحيط بكل الظروف والاعتبارات . وقال :

ما الذى تخشونه من وضع هذه السلطة فى يد الملك ؟ لقد كانت روما جمهورية ومع ذلك قام فيها قيصر بحروبه ، وخرج هانيبال من صلب قرطاجنة ولم تكن ملكية ، وقد كانا من شياطين الحروب كما تعلمون . .

وصدمت الجمعية بهذه الآراء ، وأسرع زعماء نادى اليعاقبة يطلبون إلى « بارناف » أن يرد عليه ، باعتباره خطيباً شهيراً مجربا من أعضاء الجمعية ، وأشاعوا أن « ميرابو » قد خان الثورة وباع نفسه للملك ، ودعوا الشعب إلى سماع رد « بارناف » .

وألقى « برناف » خطبته فرد على ما قاله « ميرابو » وناقش أدلته وآراءه ، وهاجمه هجوماً عنيفاً ، ثم ختم خطابه فقال للتدليل على أن الملوك إذا

كانت لهم سلطة إعلان الحرب استخدموها فى غير صالح بلادهم :
– هل تعلمون أن « بركليس » عندما طالبته أثينا أن يقدم لها حساباً عن أموالها شغلها عن هذا الطلب بإعلان الحرب .

وغادر « بارناف » المنصة وسط عاصفة من التصفيق والهتاف وانتهت الجلسة وقد خيل إلى الجميع أن « ميرابو » قد انتهى .

وعلم زعماء اليعاقبة أن « ميرابو » سوف يرد فى اليوم التالى ، فحشدوا خمسين ألفاً من أهل باريس أحاطوا بالجمعية ليشهدوا خيانته للثورة ويشوشوا عليه . وعندما اعتلى « ميرابو » المنبر قوبل بالصياح والصفير ورفض النواب الاستماع إليه ، فظل مكانه محاولا أن يظفر منهم بالصمت ، ولما طال به الوقت صاح قائلاً :

– إن أصدقاء برناف إما أنهم يعتقدون أن خطبته من القوة والصدق بحيث لا يمكن الرد عليها وتفنيدها ، وإما أنهم يعتقدون أن من اليسير الرد عليها وهدمها . فإن كانت الأولى كان لى أن أتوقع من كرمهم ألا يخشوا ردى عليه ، أما إذا كانوا يعلمون أنها ليست فوق مستوى الرد فإن الواجب الوطنى يفرض عليهم بأن يفهموا الموضوع من جميع جوانبه حتى يكون قرارهم سليما .

وتهامس النواب وقد أحرجهم هذا التحدى ، ثم سمحوا له بالكلام . وبدأ كلامه هادئاً غير مكترث بما دبروه له ، فأخذ يقارن بين مظاهر التأييد المصطنعة التى أعدت لبرناف ، وبين ما دبر له من وسائل التهديد والتشهير قائلا :

– لقد أشاعوا أراجيف الرشوة والخيانة ، وتهددونى بانتقام الشعب ليقيموا دولة الآراء المستبدة . إن الذين احتفلوا بى منذ أيام وقدموا إلىّ

أكاليل المجد والفخار هم أنفسهم الذين ينادون اليوم فى الشوارع بخيانتى العظمى . . !

ثم تغير صوته وارتفع زئيره وصاح :

– أنا أعلم أن المسافة قريبة بين صخرة « تاربيان »[١] وبين الكابيتول ، بين المكان الذى رفعت لى منه راية المجد وبين الصخرة التى تنتظر الزعيم المتهم ، ولكن ذلك لن يخيفنى ، وسأخاطبكم كرجل لا يبالى بضربات الأيدى وتصفيقها ، ولا يعبأ بهمسات الألسن وإشاعاتها . إن ذلك كله لن يوقف تيار حياتى المتدفق ولن يعترض سبيلى .

ثم تناول موضوع المناقشة فقال متحدياً الجمعية :

– التزموا الصراحة وقولوا لا نريد ملكاً ، أما أن تقولوا نريد ملكاً ، ولكننا نريده عاجزاً غير نافع ، فهذا تناقض لا يمكن احتماله . هل لأن للملكية أخطاءها تريدون أن تمنعوا مزاياها عن الشعب ؟ أمن أجل أن النار قد تحرق فى بعض الأحيان تريدون أن تحرموا الناس من حرارتها وضوئها ؟ أجيبونى إن استطعتم ، ثم نادوا إن شئتم بعد ذلك بخيانتى وعارى . . !

ومضى « ميرابو » يستعرض خطاب « بارناف » ويرد على ما قاله فقرة فقرة ، وكلما انتهى من الرد على إحدى حججه قال :

أية قيمة لهذه الحجة ؟ أجيبونى . . إنكم لا تجيبون . . وإذن سأستمر .

واستمر « ميرابو » يناقش خطاب « بارناف » ويمزقه إرباً بمنطق قوى وبلاغة رائعة ، وشجاعة لا تحفل بالخطر ، ثم أنهى خطابه قائلا :

---

(١) الصخرة التى كان يلقى الرومان من فوقها الخونة بينما يحتفلون فى الكابيتول بالقائد المنتصر .

–إن « بارناف » لم يتكلم فى الموضوع ولم يمسه ، ولكنه كان يستثير عواطفكم . لقد أراد أن يثبت لكم أن الحكومات قد تحاول أحياناً الحرب من المسئولية فيعلن ملوكها الحرب ليشغل بها الناس فضرب مثلا بالحرب التى أعلنها « بركليس » حتى لا يقدم حساباً طلب منه . ولقد خيل لكم وأنتم تستمعون إليه أن « بركليس » هذا كان ملكاً من الملوك الطغاة أو وزيراً مستبداً ، ونسى الجميع أن « بركليس » كان رجلا يعرف كيف يتملق عواطف الجمهور ويظفر بتصفيقه عندما يعتلى المنبر . وبهذا أمكنه أن يظفر بالتأييد لإعلان الحرب على البليبونيز . هل تعرفون تأييد من الذى كسبه لكى يعلن الحرب ؟

وتوقف « ميرابو » وتفرس فى الوجوه المرتفعة نحوه قبل أن يقول :

أتعرفون من الذى أيده ووافقه على إعلان الحرب ؟ إنها الجمعية الوطنية لأثينا . . . !

وهنا بلغ « ميرابو » ذروة التأثير وأحس الأعضاء بالوخزة التى وجهها الخطيب إلى الجمعية ، وفهموا من عبارته أن الجمعية قد تعلن الحرب يوماً بتأثير خطيب مثل بركليس . وخرج « ميرابو » ظافراً بثقة الجمعية وأصواتها . قال « بارتو » يصف هذه الخطبة فى كتابه عن ميرابو .

–إن ما قاله ميرابو لا يمكن تلخيصه . وإذا فتشنا فى تاريخنا الخطابى عن خطبة توازى خطب الفحول القدماء من رجال أثينا وروما بل تفوقها قوة إلقاء ، وروعة أداء ، وشرف استلهام ، وحسن توفيق فى اختيار العبارات والألفاظ بلغ حد الإعجاز ، فلن نجد سوى هذه الخطبة التى تعتبر نموذجاً للكمال ، ولا تزال كلماتها ومعانيها تنبض بالحياة .

* * *

ولقد طمع الملك لويس فى أن يجتذب « ميرابو » إلى صفه ، وقابلته الملكة مارى أنطوانيت ، ودفع القصر عنه ديونه ، وتراءى للناس فى صورة من باع نفسه للقصر ، ولكن « ميرابو » لم يكن ليفرط فى عقيدته بمال فكانت آراؤه فى الجمعية الوطنية صادرة عن اقتناع وإيمان عميق بما يقول ، فقد كان يتمنى أن يقوم فى فرنسا حكم ملكى ديمقراطى على غرار النظام الإنجليزى الذى شاهده عند زيارته لبريطانيا .

وقد شعرت الجمعية الوطنية بتقرب القصر إليه ، ولكن أحداً من أعضائها لم يجرؤ على مواجهته بذلك ، غير أنها أغلقت فى وجهه الطريق إلى الوزارة ، فقررت عند وضع الدستور أنه لا يجوز أن يتولى الوزارة أحد من أعضائها .

ولقد حاول « ميرابو » عبثاً أن يمنع وضع هذا النص فى الدستور حتى لا تحرم البلاد من الكفاءات التى تضمها الجمعية ، وقال :

— إنكم تريدون إذن أن يتخذ الملك وزراءه من حاشيته وبطانته ، بدلاً من أن يختارهم من نواب الشعب الحائزين لثقته ؟ !

وقال ساخراً :

— يكفيكم أيها السادة أن تجعلوا قراركم هذا مقصوراً على كونت ميرابو .

ومع ذلك فقد عرف الشعب له فضله وآمن بإخلاصه ، فرفعه إلى أعلى مقام لديه ، فاختاره فى أواخر عام ١٧٩٠ رئيساً لنادى اليعقوبيين .

ولعل أروع وصف لميرابو الخطيب هو ما كتبه شاعر فرنسا الكبير فيكتور هيجو ، قال :

—ميرابو يتكلم . . هذا هو الماء يجرى ويتدفق ، هذا هو الموج يرغى ويزبد ، بل تلك هى النار تقدح بالشرر . لا مائدة ولا أوراق ، ولا محبرة ولا أقلام ، ولكنه الرخام يهوى عليه بضرباته ، ودرجات المنصة يهرول عليها جارياً . المنصة . . ؟ ! لا . . بل قفص من أقفاص الوحوش الضارية يروح فيه ويغدو ، ويسير ويتحرك ، ويقف ويلهث ويزأر . يشبك ذراعيه ، ويضم قبضتيه يجمل الكلام بإشاراته الموقعة ، ويضىء أفكاره بنظراته المعبرة . وجمهور حاشد يكره الخطيب ، هم أعضاء الجمعية الوطنية ، لكن يحيط بهم جمهور آخر أعظم منهم يحبه ، ذلك هو الشعب . ومن حوله عقول كبيرة ، وأرواح عظيمة ، وشهوات ومطامع وطبائع متباينة يعرفها ويضرب عليها فيخرج منها النغمة التى يريدها بيد ماهرة ، وريشة قادرة . ومن فوقه قبة الصالة الكبرى ترتفع إليها عيناه كأنه يستنزل من سمائها وحى الفكرة ، فتنزل الأفكار من تلك القبة العظمى فوق تلك الرأس العظمى . هذا هو ميرابو فى مكانه ، بل تلك هى البذرة الصالحة فى أرضها .

* * *

فى يناير ١٧٩١ انتخبت الجمعية الوطنية « ميرابو » رئيساً لها ، وظل الخطيب العظيم يعتلى المنصة ويدلى برأيه فى الموضوعات التى تبحثها الجمعية . ولكن الجهد العنيف الذى بذله خلال عامين حافلين بالأحداث ، والإرهاق المتصل الذى تعرض له خلال كفاحه ، أنهك صحته ، فسقط مريضاً فى مارس من ذلك العام ، ولم يلبث أن فارق الحياة فى الثانى من أبريل عام ١٧٩١ وفقدت الثورة رجلها

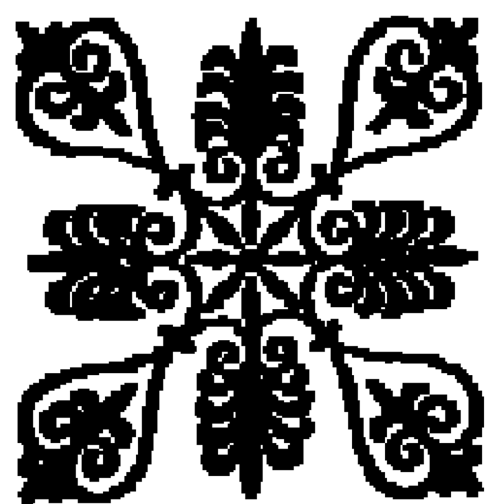
الكبير الذى كان لها بمثابة صمام الأمن يفل من غربها ويطامن من غلوائها . وفقدت الملكية نصيرها العظيم الذى كان قادراً على إنقاذها . وكان ميرابو أول من دفن فى البانثيون من العظماء .

وقد قيل عنه إنه قسم حياته شطرين ، شطراً للهوى وشطراً للثورة ، فكانت حياته ثورتين ، ثورة للشباب ، وثورة للحرية ، فقضى حياته كلها ثائراً(١) .

(١) محمد صبرى أبو علم « الخطابة والخطباء » فى البلاغ الأسبوعى .

وليم بِت الكبير

« لقد أجهدت إنجلترا نفسها وقاست كثيراً »
« ولكنها أخرجت فى نهاية الأمر للعالم رجلاً »
فردريك الأكبر



وليم بت الكبير

قال عنه « ماكولى » أكبر ناقديه : « لو فتشنا بين العظماء الذين تجاور عظامهم فى التراب عظامه فلن نجد من يفوقه نبالة اسم وطهارة ذكر . . » .

وقال عنه فردريك الأكبر : « إنه أعظم رأس فى إنجلترا » .

وقال عنه لورد بروكهام : « هو الخطيب الذى لم يعرف المنبر له مثيلا ، والسياسى عندما يصيب أكبر حظ من التوفيق . . »

ويعتبر المؤرخون « وليم بت الكبير » واحداً من بناة الإمبراطورية البريطانية فى القرن الثامن عشر .

ولد وليم بت فى نوفمبر عام ١٧٠٨ ، وكان جده لأبيه حاكماً لمقاطعة مدراس فى الهند ، فهو من أسرة غنية محترمة . وكان أبوه « روبرت » عضواً فى البرلمان ، فلما توفى ورث ابنه الأكبر « توماس » المال والعقار فلم يبق لوليم إلا الشىء اليسير .

وتلقى « بت » علومه فى مدرسة « إيتون » ثم التحق بجامعة اكسفورد ، ولكنه كان يعانى من مرض النقرس ، فنصحه الأطباء بالسفر إلى فرنسا وإيطاليا للعلاج ، فقطع دراسته قبل أن يحصل على درجة علمية .

وعندما توفى أبوه التحق فترة بالجيش ، ثم تركه ليلقى بنفسه فى خضم الحياة السياسية . وفى عام ١٧٣٥ دخل مجلس العموم وهو فى

السابعة والعشرين عن عمره .

وقضى « بت » الدورة البرلمانية الأولى وهو لايكاد يفتح فمه . ولاشك أنه كان خلال هذه الفترة يدرس الحياة السياسية ويحاول أن ينفذ إلى أسرارها وخباياها ، وأن يلم بألاعيب الأحزاب ومناوراتها ، كما يفعل المحارب الذكى عندما يدرس أرض المعركة ويتعرف إلى أبعادها وطبيعتها قبل أن يخوض غمارها .

وقد أزعج « بت » ما تبينه من فساد الحياة السياسية ، وهاله أن يرى أصوات الأعضاء تشترى بأموال المصاريف السرية ، فتحفز للنضال والهجوم على وزارة « والبول » الذى كان على رأس الحكم .

وعندما ألقى « بت » خطابه الأول فى مستهل دورة المجلس عام ١٧٣٦ أدرك الجميع أنهم أمام قوة جديدة ، واستولى على انتباه الأعضاء واهتمامهم فصاروا يصغون إليه بإعجاب وشغف كلما هم بالكلام .

وحاول « والبول » رئيس الوزراء أن يرهب الشاب الخطيب أو يكمم فمه فعمد إلى السخرية منه معيراً إياه بحداثة سنه ، فوقف « بت » وارتجل تلك الخطبة الرائعة الساخرة التى تناقلها الناس والتى قال فى مطلعها :

— مع الأحترام العظيم للشعور الرمادية التى تزين رءوس حضرات الأعضاء المحترمين . . .

وعند ذلك نزع « والبول » جديلة الشعر المستعار من فوق رأسه فظهر شعره الرمادى فضج المجلس بالضحك ، واستمر « بت » يقول :

إن جريمة حداثة السن ، هذه الجريمة الهائلة التى راق لرئيس

الوزراء أن يقذفنى بها فى خفة ورشاقة . لن أحاول إنكارها أو تخفيف أثرها . إذ يكفينى أن أتمنى لنفسى أن أكون من أولئك الأحداث الذين ينتهى حمقهم بانتهاء حداثتهم لا من أولئك الذين كلما امتدت بهم السن زاد جهلهم وكبر حمقهم برغم طول التجارب . وسواء كان الشباب جريمة يحاسب عنها المرء . فلن أشغل نفسى بالتحرى عن هذا الأمر أو تحقيقه . فلا جدال فى أن الشيخوخة تجلب السخرية إذا كانت التجارب التى ساقتها تمر من غير أن تثمر . وإذا كانت الرذيلة تتغلب عندما تنطفئ جذوة الشباب . إن من ارتكب كثيراً من الأخطاء والآثام ورأى نتائجها ولا يزال برغم ذلك يقارف كل يوم إثماً جديداً . وكلما امتد به العمر جمح إلى العناد حمقاً وغباوة . يستحق منا كل سخرية واحتقار . ولن يحميه شعره الرمادى من سخطنا . . !

وهكذا عرف الخطيب الشاب كيف يرد الصاع صاعين . ويصب غضبه وسخريته على رأس رئيس الوزراء الذى جلس يترنح من قسوة الخطيب الجرىء .

ومضى « بت » يشق طريقه صاعداً إلى ذروة الشهرة بفصاحته ومقدرته الخطابية التى نضجت بالممارسة والمران . ولم يكن ينتسب إلى حزب . فتحرر من الالتزام الحزبى الذى يفرض عليه الدفاع عن أشياء قدلا يؤمن بها . فلم يكن يتكلم إلا بوحى من ضميره واقتناعه . دفاعاً عن حق أو هجوماً على تصرف خاطئ . وكان يقول :

— لقد جئنا إلى هذا المجلس بقوة الشعب وسلطانه .

ووقف يحول بين الأحزاب ومحاولة العبث بالدستور . فعلمها

كيف تجمع على احترام الدستور وتقديسه . قال مرة لأعضاء المجلس :
— إذا كان مقدراً أن يصاب الدستور ، فأرجو ألا توجهوا إليه الطعنة في هذا الظلام الشامل وفي جوف هذا الليل الحالك .

وسرعان ما أصبح « بت » خطيب البرلمان الأول غير منازع ، تحسب الوزارة له ألف حساب ، وتتودد إليه المعارضة ، ويرهف الأعضاء أسماعهم مبهورين إذا وقف للكلام .

ولقد كان « بت » خطيباً عظيماً .

وهبته الطبيعة في سخاء كل ما يحتاج إليه الخطيب ، فكان طويل القامة ، رشيق الحركة ، يوحي منظره بالسيطرة والتحكم . أما عيناه فكانتا كعيني النسر اتساعاً وتحديقاً ، ينبعث منهما شعاع يثير الرهبة . وصوت رائع واضح النبرات ، إذا انخفض كان حلواً رقيقاً حافلاً بالأنغام ، وإذا ارتفع ملأ المجلس دوياً ، وهو في الحالين يعرف كيف يستخدمه لإحداث التأثير المطلوب .

قال عنه « ماكولي » الناقد الكبير :

عندما ظهر في البرلمان خطيباً لأول مرة ، بدا شكله رائعاً ، نبيلاً ومتحكماً ، والنار تنبعث من عينيه . وكان صوته إذا تكلم هامساً يسمع بوضوح من أقصى المقاعد الخلفية . أما إذا علا وارتفع فكان يجلجل في المجلس كأنه صوت أرغن ضخم في كاتدرائية كبيرة ، وكان يسمع في أروقة المجلس وتصل أصداؤه العالية إلى بهو وستمنستر .

وقال عنه ناقدوه بأنه كان يلجأ إلى الحركات التمثيلية في خطبه ، حتى لقد كتب « ماكولي » يقول :

–لو صعد « بت » خشبة المسرح لكان خير من يمثل دور بروتس .

والواقع أن الخطيب الناجح يحتاج إلى شيء من التمثيل الذى يعاونه على تلوين صوته وتجميل إشارته والاحتفاظ بانتباه السامعين والتأثير فيهم .

وكان « بت » خطيباً مرتجلاً ، فلم تكن خطبه خطب الأديب الذى ينمق كلامه ، بل كانت وحى الساعة ، وإلهام الظروف ، فإذا وقف منفعلا بفكرة تدفق كالسيل وتفجر كالينبوع ، وانطلق يصوغ أفكاره وخواطره فى عبارات تستعير من النار حرارتها ومن البلاغة جلالها وسحرها .

وقد قال عنه نقاده إنه لم يكن يملك زمام نفسه إذا وقف للكلام ، فلم يكن يعرف إلى أى مدى ينتهى به تدفقه الخطابي . وقال « ماكولى » :

– إن « بت لم يكن سيداً لخطابته بل كان عبداً لها » .

وقال « بت » نفسه مرة للورد شلبورن عند مناقشة موضوع حساس كان يعرف أسراره الرسمية :

– يجب أن أجلس صامتاً ، لأننى عندما أقف للكلام تتبادر إلى شفتى كل خواطرى .

وصفه اللورد « روزبرى » فقال :

– عندما قام « بت » خطيبـــاً فى المجلس استولى عليه صمت عميق . وحبس الأعضاء أنفاسهم وهم يتابعون كلامه ، وهو ينتقل من استهلال بارع مؤثر فياض بالذكريات الممتعة ، والقصص الزاهية ، إلى تهكم مر وسخرية قاتلة ، كان يهمس فإذا همساته تهديد ، ويصرخ

فيلقى الرعـــد والوعيد . وتحسب الأعضاء من فرط الانتباه فى أثنـــاء كلامه ، وقد سكتت حركاتهم وانحبست أصواتهم ، كأنما قد أصابهم الشلل أو انعقدت ألسنتهم من خمر حديثه .

وقال عنه لورد « تشسترفيلد » الخبير بأساليب الكلام :

-كانت هجماته صادقة مخيفة ، وكان إلقاؤه وأداؤه وتحفزه للنضال يخيف أكبر الخطباء استعداداً لمجادلته ، فكان خصومه يلقون أمامهم سلاحه .

* * *

ومضت أعوام ونجم الخطيب الشاب يعلو ويلمع ، على حين أخذت المتاعب والاضطرابات تهدد الإمبراطورية البريطانية فى أكثر من مكان . وبدأت الأشتباكات بين الجيوش البريطانية فى الهند وكندا وبين الجيوش الفرنسية . وأخذت أنباء الهزائم تأتي من الشرق والغرب ، وكان أفجعها فقدان بريطانيا لجزيرة « مينورقا » . واشتعلت النار فى المستعمرات البريطانية التى لاتغرب عنها الشمس ، وفرض فردريك الثاني الصلح على حليفته بريطانيا وكان صلحاً مخزياً

وأحس الجميع بضعف الحكومة وعجزها عن مواجهة الأحداث الجسام وسقطت وزارة « والبول » وجاء الملك بوزارة أخرى اشترك فيها وليم بت وزيراً وزعيماً للمجلس النيابى ، ولكنها لم تدم فى الحكم سوى خمسة شهور .

ويقول « ماكولى » فى كتابه الذى ترجم فيه لحياة بت :

— فى ذلك الوقت كان بت بغير مركز أو لقب . وبغير ثروة . وكان مكروهاً من الملك جورج الثانى . مكروهاً من الطبقة الارستقراطية والرأسمالية . ومع ذلك فقد كان يبدو أهم شخصية فى الدولة .

وكان يرى بلاده تهان وتنهال عليها الهزائم برغم مواردها العظيمة . ويعتقد أن موارد الإمبراطورية لو وجدت من يحسن استخدامها بحزم وقوة . فسوف يتغير الأمر . وكان يقول فى ثقة بنفسه وقدراته :

—إننى واثق من قدرتى على إنقاذ هذه البلاد ، وأن لا أحد سواى يستطيع ذلك .

وفى عام ١٧٥٨ وجد الملك نفسه مضطراً إلى دعوته للحكم ، حيث تولى الإشراف بنفسه على الشئون الخارجية وشئون الحرب .

وما كاد « بت » يتولى الحكم حتى قال :

—أريد أن أبعث إنجلترا من حالة العجز واليأس التى جعلتها تنهزم أمام عشرين ألف جندى فرنسى .

ومضى « بت » ينفخ من روحه فى البلاد كلها ، ويبث فى الجميع الثقة والأمل ، حتى قال عنه خصمه « والبول » :

—لقد بث الحياة فى مجالسنا ، وبعث فى نواحيها روح النشاط . وحارب الخمول واليأس ، ورفع لإنجلترا أعلام النصر .

وقال أحد القواد العسكريين :

—ما دخلت مكتب بت إلا وخرجت منه أقوى عزماً وأثبت جاشاً وأشد إقداماً .

ولم تكد تبدأ سنة ١٧٥٩ حتى تحولت هزائم بريطانيا إلى انتصارات

فى كل مكان . لقد توالت الهزائم قبله على الجيوش البريطانية فى بروسيا والهند وكندا ، ولكنه لم يكد يتسلم زمام الأمر حتى أنساها الهزائم ، وكان سقوط «كويبك» يوم اجتماع مجلس العموم فى مستهل عام ١٧٥٩ قمة الانتصار ، فقابله المجلس بمظاهرة رائعة من الهتاف والتصفيق .

وجاء عام ١٧٦٠ والانتصارات يتلو بعضها بعضاً ، فقد سقطت «مونتريال» فى يد الإنجليز ، وارتفع العلم البريطاني على جميع أرجاء كندا ، ولحقت الكوارث بالأسطول الفرنسى على الشواطئ الأوربية والأمريكية ، واستطاع «بت» أن يوطد أركان الإمبراطورية البريطانية فى الهند وأمريكا .

فى ذلك الوقت قال فردريك العظيم وقد راعته عظمة «بت» :

ـــلقد أجهدت إنجلترا نفسها وقاست كثيراً ، ولكنها أخرجت فى نهاية الأمر للعالم رجلا . .

وكان «بت» يمضى فى طريقه مؤمناً بقدرته ، يشتعل حماسة ونشاطاً برغم مرضه ، محتقراً لوسائل الرشوة والفساد التى كان يعتمد عليها الساسة فى زمانه لتحريك أداة الحكم ، عظيم الكبرياء ، شديد الترفع ، متسامياً عن المادة والأنانية الشخصية .

دعى مرة إلى القصر الملكى فقال :

ـــلن أذهب إلى القصر إلا إذا وثقت من أننى سأعود ومعى الدستور نافذاً محترماً .

وفى أكتوبر عام ١٧٦٠ توفى جورج الثانى وتولى العرش الملك الشاب جورج الثالث .

وبدأت أحداث جديدة تتوالى ، وعقدت فرنسا معاهدة سرية مع أسبانيا فأعلن « بت » أنهما يستعدان لمهاجمة بريطانيا ، واقترح إعلان الحرب فوراً على أسبانيا ، ولكن رأيه لم يؤخذ به ، فانسحب من الحكم والوزارة . وعرض عليه الملك أن يعينه حاكماً عاماً لكندا ، ولكن « بت » رفض العرض برغم مرتب المنصب الكبير .

وبرغم اعتزاله الحكم فقد ظل « بت » معبود الشعب

حدث أن أقيمت فى جيلد هول مأدبة عشاء تكريماً للملك وعروسه دعى إليها بت . ويروى « ماكولى » ما حدث فيقول :

إن الملك الشاب قد تلقى فى تلك الليلة درساً ، فقد كانت كل العيون منصرفة عنه إلى الوزير المستقيل . وعندما مرت عربة « بت » فى الشوارع انفجر هدير من الهتاف له من الجماهير المحتشدة بالطريق وعلى الشرفات . ولوحت له النساء بمناديلهن من النوافذ . واندفع الناس نحو عربته يقبلون الخيل التى تجرها . . ! وارتفع الهتاف من كل مكان « بت إلى الأبد . . » .

* * *

انسحب « بت » من الحياة السياسية الرسمية ، واشتد عليه مرض النقرس فألزمه الفراش . وتولى الحكم وزراء لم يحسنوا التدبير ، وفرضت الحكومة على مستعمرتها الأمريكية ضرائب فادحة أيقظت الفتنة النائمة فى العالم الجديد وكانت الشرارة التى أشعلت حرب الاستقلال الأمريكية . وكان من رأى « بت » أن من حق أمريكا أن تقرر بنفسها الضرائب التى تفرض عليها . وفى يناير من ١٧٦٦ ذهب إلى مجلس العموم ليشترك فى

مناقشة خطاب العرش الذى كان قد استعرض حالة أمريكا .

وقال بت فى خطبة شهيرة ارتجلها فى تلك المناقشة :

– لقد طال غيابى عن هذا المجلس الموقـر ، وكان فراش المرض يضمنى عندما صدر القرار الخاص بفرض الضرائب على أمريكا . ولوكنت أستطيع فى تلك الوقت أن أحتمل النقل من فراشى لالتمست يداً محسنة كريمة ترفعنى من فراش المرض إلى هذا المجلس لكى أسمعكم صوتى . إننى أعلم أن قراركم قد أصبح قانوناً ، ويجب أن أتكلم باحترام عن القوانين التى تصدر عن هذا المجلس ، ولكننى مع ذلك أرجو أن تسمحوا لى بالتحدث عن هذا القانون ، لأنكم تملكون مع ذلك إعادة النظر فيه إذا تبين لكم وجه الحق .

ومضى « بت » يسوق الدليل تلو الدليل على أن فرض الضرائب على المستعمرات لا يدخل فى سلطة الحكومة المركزية ، وليس من اختصاص البرلمان ، لأن الضرائب منحة يقدمها الشعب إلى الحاكم ، ولا يعقل أن يقدم الإنجليز للملك بريطانيا أموال أمريكا منحة من غير رضاها . ورد عليه رئيس الوزراء مستنكراً مهاجمة قانون أصدره المجلس ، فقال بت :

—لقد تكلم كثير من الخطباء ضد هذا القانون بحرية عدها البعض جريمة . وإنى ليؤسفنى أن تعتبر حرية القول فى مجلسكم هذا جريمة !

ولكن هذا الاتهام لن يرهبني ، لأنه يلذ لى أن أمارس هذه الحرية وأتمتع بها إلى آخر حدودها .

يقول رئيس الوزراء إن أمريكا عنيدة ، وإنها فى شبه ثورة وإنه ليسعدنى

أن أسمع أن أمريكا تقاوم . فلو أن الملايين الثلاثة الذين يقيمون فى أمريكا من الأنجلو ساكسون ماتت فيهم كل عواطف الحرية ، وقبلوا أن يساموا الخسف كالعبيد . لأصبحوا آلات صالحة لأن تجعل من بقية هذا الجنس عبيداً أذلاء .

إن العضو المحترم يتساءل متى انفصلت أمريكا عنا ؟ فليسمح لى أن أسأله بدورى : متى كانت أمريكا عبداً لنا ؟ !

لقد تحدثوا عن أمريكا وثرائها ومبلغ سعادتها ، وهذا حديث غير مأمون ، إننى أعلم أن بريطانيا تستطيع أن تقضى على أمريكا وتهزمها فى حرب شريفة ولو قدر لنا أن ننتصر فى معركة لتأييد هذه الضرائب فسيكون انتصارنا محفوفاً بالمخاطر . إن امريكا إذا سقطت فإنها تسقط كما سقط شمشون الجبار . إذ تقبض بيديها على أساس الدولة وأعمدتها ، وإذ ذاك يتداعى وينهار معها كل بنائنا الدستورى . فهل هذا هو السلام الذى تريدونه ؟ سلام يغمد فيه سيفكم ، لا فى قرابه ، بل فى صدور أبنائكم . . ؟ !

لقد ظلمنا الأمريكيين ودفعناهم إلى الجنون ، فهل تريدون أن تعاقبوهم على جنون أنتم سببه ومصدره ؟ فليسمعوا صوت العقل والحكمة والاعتدال من جانبنا ، وأنا كفيل بأن أمريكا سوف تقابلنا بالمثل » .

وقدنجح « بت » فى إلغاء القانون بعد الصراع العنيف الذى خاضه فى مواجهة الحكومة وأغلبية البرلمان .

وسقطت وزارة « روكنجهام » ودعى « بت » لتشكيل الوزارة ، ومنحه الملك لقب إيرل ، ففقد مقعده فى مجلس العموم ، وأصبح عضواً فى مجلس اللوردات باسم « إيرل شاتام » الذى عرف به فى التاريخ .

ولكن المرض عاوده واشتد عليه فتخلى عن الحكم وابتعد عن الحياة العامة أكثر من ثلاثة أعوام حتى ظن الجميع أنه قد اختفى إلى الأبد .

ولكنه عاد فجأة إلى البرلمان مرة أخرى . كانت الحكومة البريطانية قد عادت تصب غضبها على أمريكا وترسل القوات لإخضاعها ، فتحامل « شاتام » على نفسه وذهب إلى مجلس اللوردات ليقول كلمته فى سياسة الحكومة .

وصف « ماكولى » ظهوره الفجائى فقال :

عاد عودة مفاجئة وكأنما قد بعث حياً . لقد اعتاد الناس أن يتكلموا عنه كما يتكلمون عن الموتى ، فلما ظهر لهم عند افتتاح الدورة فى حاشية الملك اضطربوا كأنهم يرون شبحاً . .

وعاد « شاتام » يدافع بحرارة عن أمريكا . وكان مما قاله :

ــ سوف أقوم بواجبى حتى النهاية ، ولن يقعدنى عن ذلك إلا المرض إذا ألصقنى بالفراش ومنعنى من الحركة . وسوف أظل أدق الباب على الوزارة الغافلة المرتبكة حتى أفتح عينيها على الخطر المحدق . إننى لا أطلب لأمريكا عطفاً أو رحمة بل عدلا وإنصافاً ، ولا أطلب إلغاء قوانين بل إلغاء آلامها ومخاوفها .

ثم ألقى فى وجه اللوردات بهذه النبوءة التى تحققت بعد أعوام فقال :

ــ سادتى اللوردات .

إننا لن نقدر على غزو أمريكا وقهرها ، وسوف نضطر فى النهاية إلى الانسحاب ، فلننسحب قادرين لا مرغمين . وسنضطر إلى إلغاء هذه القوانين الظالمة ، وسوف تلغونها بأنفسكم ، وأقسم لكم على ذلك بشرفى لو كنت

أمريكيًا بقدر ما أنا بريطاني ، ورأيت جنود العدو تطأ بلادى لما وضعت سلاحى أبداً . . أبداً . . أبداً »

وكانت هذه الخطبة من أروع خطبه فى أعوامه الأخيرة وقد سمعها ابنه وليم بت الصغير الذى كان إذ ذاك فى السادسة عشرة من عمره وسمعها « لورد ستانهوب » فوصفها بقوله :

ـــ سمعت قبل اليوم الفصاحة مجردة من الحكمة ، أو الحكمة خالية من الفصاحة ، ولكنى سمعتهما اليوم وقد امتزجتا فى خطبة شاتام » .

* * *

بينما كانت وطأة المرض تشتد على « شاتام » ، كانت الأحوال تزداد سوءا فى أمريكا التى ثارت وأعلنت استقلالها عن بريطانيا . وساد الضعف والاضطراب أعضاء البرلمان والحكومة ، وتلفتت الأنظار نحو السياسى المريض تلتمس عنده الإنقاذ من الحالة السيئة .

وتقدم « لورد نورث » باستقالة الوزارة إلى الملك وأشار عليه باستدعاء شاتام .

ولكن شاتام أرسل إلى مجلس اللوردات يعلن أنه سيحضر جلسة يوم ٧ أبريل ١٧٧٨ ليدلى برأيه فى الاقتراح الخاص باستقلال أمريكا .

ويصف مؤرخه وناقده « ماكولى » عودته الأخيرة إلى البرلمان ، إلى الميدان الذى شهد مجده السياسى والخطابى ، فيقول إن أطباءه نصحوه بألا يغادر فراشه ولكنه لم يستمع إليهم ، وذهب إلى وستمنستر فى صحبة ابنه وليم بت وصهره لورد ماهون ، واستراح فى حجرة جانبية حتى بدأت المناقشة ، وعندئذ مضى يعرج إلى مقعده بالمجلس مستنداً إلى ذراعى رفيقيه . كان يرتدى

كعادته حلة من القطيفة السوداء ، وبيده عصاه ، وقد تهضم وجهه من المزال حتى لا يكاد الناظر إليه أن يتبين من ملامحه سوى أنفه العالى المقوس وعينيه اللتين ما يزال يومض منهما بريق تلك النار القديمة .

وتكلم رئيس الوزراء ثم وقف شاتام وبدأ يتكلم بصوت غير مسموع ثم أخذت نبرات صوته فى الوضوح ، والمجلس يصغى إليه فى صمت وسكون عميق ، والأعضاء يحبسون أنفاسهم كى يلتقطوا كل كلمة تخرج من شفتيه .

ورفع إيرل شاتام إحدى يديه عن عصاه واتجه بعينيه نحو السماء وهو يقول . .

ـــ أشكر الله الذى وهبنى القدرة على الحضور إليكم اليوم لأؤدى واجبى . لقد أصبحت شيخاً ضعيفاً يخطو نحو القبر ، وقد يكون اليوم آخر عهدى بكم ، ولكنى قمت من فراشى لكى أؤيد قضية بلادى .

ثم أخذ يصف الحرب الأمريكية ويتحدث عن شرورها والمسئولين عن إشعال نارها وقال :

ـــ إنها نعمة من الله أن القبر لم يطبق بعد علىّ جوانبه ، وأنه ما زالت لدى القدرة لأرفع صوتى ضد تمزيق هذه المملكة الكريمة ، وإذا كان مقدراً لنا أن نسقط . . فلنسقط رجالا .

وكان الأعضاء يصغون إليه فى سكون رهيب ، وهم يشعرون أنه لم يعد يملك قواه ، وأنه يتحدث إليهم من عالم آخر ، كما لو كان شبحاً قد نفض عنه أكفان القبر .

ورد عليه دوق ريتشموند بلطف وأدب ، ولكنه لاحظ فى أثناء كلامه أن شاتام يتململ فى ضيق وألم شديد ، وعند ذلك قام شاتام ولكنه لم يستطع

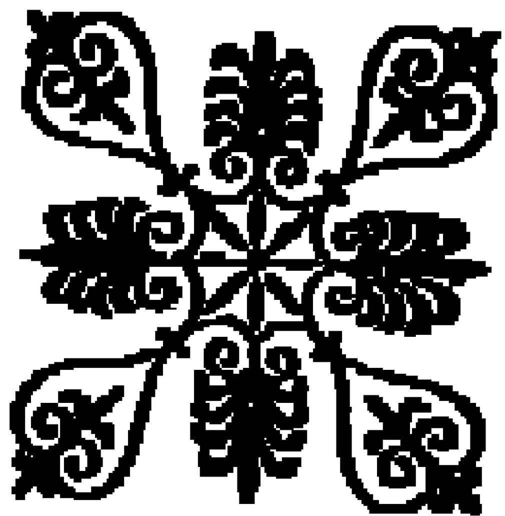
الكلام ورآه الأعضاء يضع يده على صدره ثم يسقط على مقعده . وأسرع لنجدته عدد من الأعضاء ، وانفضت الجلسة ، ونقل شاتام إلى دونج ستريت ومنها إلى قريته حيث فاضت روحه .

وهكذا سقط الخطيب العظيم كما يسقط الجندى فى ميدان القتال . وشاء القدر أن تكون نهايته على منبر البرلمان ، وهو ميدانه الذى عرف فيه النصر وحقق لنفسه مجداً خالداً على الزمان .

وليم بت الصّغير

« كنت وأنا أخطب أبحث عن الكلمة حتى »
« أجدها ، أما بت فكان يجد الكلمة المطلوبة »
« دائماً فى متناول يده ولسانه »

فوكس



وليم بت الصغير

اشتهر فى التاريخ باسم وليم بت الصغير ، تمييزاً له من أبيه وليم بت الكبير ، أو لورد شاتام الذى تحدثنا عنه فى الفصل السابق .

ولكنه لم يكن صغير القدر والمجد ، وإذا كان قد انتفع بالاسم الضخم الذى ورثه ، فقد بنى لنفسه بمواهبه وكفاحه مجداً أضخم كاد ينسى الناس مجد أبيه العظيم .

ولد فى عام ١٧٥٩ بين هالات المجد الذى تحيط بأبيه ، وفى السنة التى أسس فيها أبوه مستعمرة كندا ، وكان اسمه أرفع الأسماء وأعظمها فى بريطانيا .

وكان بت نحيلاً ضعيف الجسم ، فتلقى تعليمه فى المنزل تحت إشراف أبيه الذى أخذ يعده منذ طفولته للحياة العامة ، ويكلف بتعليمه أبرع الأساتذة ويلقنه أصول الخطابة .

وأخذ بت يطالع خطب الأقدمين من عهد ديموستين وشيشرون ، ويدرسها بعناية ، ويحفظ الكثير منها ، ويرددها أمام أبيه . وكثيراً ما كان يذهب إلى دار البرلمان ليشهد الجلسات الحافلة بالجدل الخطابى ، وليستمع إلى أعظم خطباء عصره ، وكأنه يتلقى دروساً عملية فى الخطابة والجدل البرلمانى .

ولم يدرك بت الصغير أيام والده فى مجلس العموم ، عندما كان يصول

على منبره ويجول ، ولكنه أدركه فى مجلس اللوردات ، عندما كان يعانى المرض ويقاومه بعناد .

وقد أحب وليم بت مجلس العموم وأخذ يعد نفسه ليكون من أعضائه وليشارك فى توجيه سياسة بلاده مترسماً خطى أبيه . وماذا ينقصه ؟ إن لديه الاسم اللامع والمقدرة الخطابية ، وقد قال « ماكولى » بحق: « إن إنجلترا يحكمها أقدر خطيب » .

وتوفى أبوه وهو فى التاسعة عشرة من عمره ، فلما بلغ الحادية والعشرين نجح فى الانتخاب ودخل مجلس العموم ، وكان ذلك في يناير ١٧٨١ وهكذا دخل وليم بت المجلس الذى طالما ذهب إليه متفرجاً يعجب ببلاغة الخطباء ، ليصبح خطيبه اللامع ونجمه الساطع .

دخل المجلس ووزارة « لورد نورث » تهتز تحت ضربات المعارضة القوية وتواجه الهزائم المتلاحقة فى مستعمرتها الأمريكية ، وتكلم « بت » فلفت الأنظار وبهر الأعضاء ، وأعاد إلى الأذهان مواقف أبيه حتى قال أحد زعماء المجلس :

ـ إن بت ليس شبلاً لأبيه شاتام ، ولكنه الأسد نفسه ! .

وقال أحد الأعضاء لخطيب الأحرار وزعيمهم « فوكس » :

ـ إن هذا الغلام سيكون من رجال البرلمان المعدودين .

فقال له فوكس :

ـ إنه لكذلك من اليوم .

وسقطت وزارة « لورد نورث » ، وشكل « روكنجهام » الوزارة الجديدة وعرض على بت منصب وزير إيرلندا ، وكان منصباً وزارياً لا يسمح لمن

يشغله أن يكون عضواً عاملاً فى الوزارة . وقد أدهش بت الجميع عندما رفض قبول المنصب الذى كان يعد من غنائم الحياة السياسية ، والذى تولاه أبوه نفسه فى مستقبل حياته السياسية ، وقال فى تعفف وكبرياء :

— إننى لا أقبل أن أكون مسئولاً عن أعمال وزارة لا أجلس بجانب أعضائها ولا أشترك فى مداولاتها ! . . .

وضمت الوزارة الجديدة « فوكس » و« بيرك » ، ولكن روكنجهام « توفى بعد قليل ، ودعا الملك « شلبورن » لتشكيل الوزارة الجديدة التى رفض أن يشترك فيها « فوكس » و« بيرك » فاعتمد الرئيس الجديد على تأييد « بت » له فى مجلس العموم . ولكن فوكس اتفق مع خصومه السابقين ، وقام ائتلاف بينه وبين لورد نورث ، وهاجموا الوزارة حتى أسقطوها . ووجد الملك نفسه مضطراً إلى قبول وزارة ائتلافية ، ثم انتهز أول فرصة وأقالها ، وكلف وليم بت بتشكيل وزارة جديدة .

* * *

كان تكليف بت بتشكيل الوزارة حدثاً فريداً فى تاريخ السياسة البريطانية . شاب لم يبلغ الخامسة والعشرين من عمره ، ليس له فى المجلس حزب يسنده ، ولم يسبق له أن تولى منصباً وزارياً ، يرأس وزارة بريطانيا العظمى ، بلد التقاليد المحافظة ، فى أواخر القرن الثامن عشر . . ! !

لهذا لم يكن غريباً أن يقول أحد الساسة المحترفين :

— أولاد يلعبون فى الوزارات ، وبعد قليل سوف يطردون منها ليعودوا إلى مدارسهم وتعود الحياة العامة لتجرى فى مجراها الطبيعى .

وثارت فى وجهه العواصف منذ اليوم الأول ، وكان خصومه يقابلونه

فى المجلس بالتصفير . وفى اليوم الثالث لتأليفه الوزارة استقال منها أحد كبار أركانها فهلل خصومه فرحاً وقالوا « لقد انتهينا من هذا الولد » . وعرض بت بعض المناصب الوزارية على أصدقائه فرفضوها اعتقاداً منهم بأن وزارته لن تعمر طويلاً .

ووقف « بت » وسط هذه الأعاصير صلباً رابط الجأش ، ثابت الجنان لم يفقد إيمانه وثقته بنفسه ، وهى صفات ورثها عن أبيه . واتجه نحو الشعب يتحدث إليه من فوق منبر مجلس العموم ، فيثير حماسته ، ويبث فيه الأمل فى حياة سياسية نظيفة ، ويبشره بالخلاص من ألاعيب الساسة المحترفين ، ويهاجم الفساد الذى استشرى فى أداة الحكم ، ويضرب بنفسه أروع الأمثلة العملية لما يجب أن يكون عليه السياسى المسئول . ومن خطبه فى تلك الفترة فى مجلس العموم خطبة رائعة قال فيها :

— إننى لم أكن شغوفاً بتولى الحكم أو متهالكاً عليه . ولن أتردد فى التخلى عنه إذا تراءى للشعب أن يستغنى عن خدماتى . ولقد كان أقصى غايتى فى المدة القصيرة التى قضيتها فى الوزارة أن أؤدى واجبى بكل مافى طاقتى من قدرة وقوة ، وبنزاهة وشرف كنت أستمد منهما القوة والثقة لمواجهة ما يعترضنى من عقبات . وأستطيع الآن أن أقرر بثقة تامة أنه لم تكن لى يوماً غاية لا تتعلق بمصلحة هذه الأمة .

ولكننى مع ذلك سأقلد العضو المحترم فى الصراحة التى زعم أنه اصطنعها فى كلامه ، فأعترف أن لى أيضاً أطماعى . إن المركز الكبير والنفوذ العظيم أشياء يتمناها معظم الرجال ، ولا أخجل من السعى إليها والحصول عليها . وطالما كان الحصول عليها بشرف ، والاحتفاظ بها بكرامة ،

فإنني لست أقل رغبة فى أن أكون قوياً وعظيماً مما هو طبيعى لدى أى شاب مثلى . ولكننى أتخلى عن هذه الأشياء كلها وأسحقها بقدمى فى اللحظة التى أرى فيها أن واجبى نحو أمتى يحتم على القيام بهذه التضحية . وحينئذ أنسحب إلى عزلتى ، لا خائباً بل منتصراً ، منتصراً باعتقادى أننى قد استخدمت مواهبى ، على تواضعها ، بكل قوة وحماس وبقدر ما أفهم ، فى سبيل النهوض بمصالح بلادى .

وقد اتهم بضعف الفهم ، أو الخطأ فى الحكم ، ولكن لا يمكن أن ينسب إلى أننى سعيت إلى مصلحة شخصية ، كما أنه لا يمكن أن ينسب إلىّ أى شىء يمس نزاهتى من قريب أو بعيد .

وعندما يحين الوقت الذى أتخلى فيه عن منصبى ، فلن تكون خطتى أن أزعج هذه البلاد وأهدد طمأنينتها ، فأتخذ من منبر هذا المجلس — كما يفعل غيرى الآن — ملجأ أحتمى به ، وأترائى بالغيرة على الصالح العام ، وأصيح متباكياً عليها ، وهم فى الواقع يندبون مطامعهم الخائبة .

وأحس خصومه بالوخزة القاسية فارتفع ضجيجهم فى المجلس ، ولكنه مضى فى خطبته ، وارتفع صوته مدوياً وهو يقول :

—إن من يشعر نحو أمته مثل شعورى ، ويتفانى فى خدمتها كما أفعل ، لا يهمه أن يكون فى الحكم أو خارجه ، وكل ما يهمه أن تراعى مصالح الدولة وأن تدار بحكمة ونزاهة .

إننى ألقى بمقاليد الحكم إلى من يستطيع السير بها أفضل منى ، وأخرج بغير حرب ، وبغير احتجاج . ولكنى أرجو أن يحملوا معهم إلى دور الوزارات المبادئ الوطنية الحقة التى تخلوا عنها عندما عادوا إلى صفوف

المعارضين . . ! ثم ختم خطابه موجهاً حديثه إلى الشعب خارج المجلس قائلاً :

—إننى أتجه إلى المستقلين فى هذا المجلس ، وأتجاوز حدود هذه القاعة فأتجه إلى الشعب عامة ، إذا لم يكن لطلب التأييد الذى تستحقه هذه الوزارة ، فعلى الأقل لتبرئتها من اللوم والنقد .

لقد كان كل همى أن أبذل ما فى وسعى لخدمة بلادى بشرف ونزاهة ، وكانت كل مشاعرى متجهة لخدمة الشعب ، وهذه المشاعر لا تزال تملأ نفسى وستبقى إلى الأبد تضطرم فى قلبى ، وسأعتز بها كأعظم تراث . على هذه المبادئ دخلت البرلمان وتوليت الوزارة ، وإني أشهد المجلس الآن على أننى لم أضطر يوماً إلى أن أخالف وعداً واحداً قطعته على نفسى للشعب .

إننى أضع نفسى الآن تحت تصرف هذا المجلس الموقر ، وكيفما كان قراره فإننى أقبله باغتباط . إنكم تستطيعون أن تجردوني من مظاهر السلطة وامتيازاتها لكنكم لا تستطيعون أن تحرموني من العواطف الحارة التى تجيش بها نفسى نحو مجد بريطانيا العظمى ، هذه العواطف الوطنية التى هى فخر حياتى ، والتى تكون شرفى ، وأستمد منها سعادتى ، والتى أعتقد أن الموت وحده يستطيع أن يطفئها وما دام هذا العزاء باقياً لى ، فإننى آمل أن أستطيع أن أنسى سريعاً ضياع النفوذ ، وضياع الثروة .

ومع ذلك فإن « بت » هزم مراراً فى التصويت ، وأزعج ذلك الملك الذى كان يؤيده فعاد إلى لندن وصرح له بحل مجلس العموم واستفتاء الشعب بإجراء انتخابات جديدة . ولكن « بت » رأى أن يتريث حتى يضمن كسب الرأى العام قبل الإقدام على هذه الخطوة ، ومضى يتحدى

خصومه المعارضين وفى مقدمتهم حزب الأحرار ، ويسلط عليهم نيران فصاحته . ويقدم الدليل بعد الدليل على نزاهته وطهارة يده . ومن ذلك أنه خلت وظيفة شرفية اعتاد أن يتقلدها رؤساء الوزارات لكى يستعينوا بمرتبها الكبير على التفرغ للخدمة العامة . وبرغم أن « بت » لم يكن غنياً ، بل كان مثقلاً بالديون ، فإنه تعفف عن قبول الوظيفة التى كان يقبلها غيره من الرؤساء ، وزهد فى آلافها الثلاثة وعين فيها سياسياً كان فى حاجة إلى مرتبها .

واستطاع وليم بت أن يمكن لنفسه فى قلوب الشعب ، وأن يقضى على الزوابع التى يثيرها خصومه ، فأصبح معبود الجماهير ، حتى إن مدينة لندن ، معقل حزب الأحرار ، أهدت إليه مفتاحها فى صندوق من الذهب . وذهب لتسلم الصندوق فى موكب حافل ، وأضيئت المدينة تكريماً له وهتف الشعب له فى كل مكان .

لقد وجد فيه الشعب نموذجاً جديداً لرجل السياسة والحكم لا يعتمد على المناورات الحزبية والألاعيب السياسية ، ولكنه يمضى إلى الخدمة العامة مسلحاً بنزاهة شهد بها الأعداء قبل الأصدقاء ، وصراحة لا تعرف الالتواء ، وشجاعة فى الحق تترفع عن النفاق والرياء ، فتعلق بهذا الشاب النبيل ومنحه ثقته وحبه وتأييده .

وكان لهذا التحول فى الرأى العام صداه فى مجلس العموم ، فتسربت عوامل الضعف إلى صفوف المعارضة ، وانتقل بعض أعضائها إلى مقاعد مؤيدى الحكومة ، وأخذت الأحزاب الأخرى تفاوض فى الاشتراك فى الوزارة .

ورأى « بت » أن الفرصة قد حانت ليضرب ضربته القاضية ، وليواجه خصومه فى معركة فاصلة ، فحل مجلس العموم ، ودعا الشعب إلى انتخابات جديدة ، أسفرت عن هزيمة خصومه ، فقد انتزع منهم مائة وستين مقعداً ، وضمن لنفسه الأغلبية فى مجلس العموم .

وهكذا عقد له الشعب لواء النصر ، واستطاع « الولد » الذى ظن خصومه أنهم انتهوا منه . أن يصبح رئيساً للوزارة نافذ الرأى والكلمة ، مؤيداً من الشعب والملك والبرلمان ، ولما يبلغ الخامسة والعشرين من عمره . وقدر لهذه الوزارة التى حسب خصومها أنها لن تعيش أياماً ، أن تمسك بأعنة الحكم فى بريطانيا أكثر من سبعة عشر عاماً حافلة بأشد العواصف الخارجية والداخلية .

* * *

بعد قليل اندلع لهيب الثورة الفرنسية وزمجرت عواصفها على الجانب الآخر من القنال الإنجليزى ، وأطاحت برأس ملك وملكة ، وخيف على إنجلترا من عدوى الجنون الذى يعربد فى باريس . ولكن بت وقف كالجدار بالحائل بين بريطانيا والثورة المخيفة الحمراء ، وأعلن عليها الحرب ، وظلت إنجلترا تقاتل ثمانى سنوات دون أن تظفر بنصر .

وتمخضت الثورة الفرنسية عن نابليون بونابرت الذى مضى يدفع جنود الثورة ليجوس بهم خلال أوربا ينثر التيجان ويدك العروش ويضع الممالك تحت رحمته .

وأدرك « بت » الخطر الجديد فزاده ذلك إيماناً بضرورة الوقوف فى وجه المد الثورى الذى أخذ يزحف على خريطة أوربا ، وقدر له أن يقف

حياته كلها بعد ذلك على مقاومة هذا الخطر بعزم لا يلين وإيمان لايتزعزع . كان يريد أن يؤمن الشعب البريطاني معه بفداحة هذا الخطر على مصالحه وعلى وجوده نفسه حتى يصمد فى وجهه ويكافح لتحطيمه .

وكانت عبقريته الخطابية أكبر سلاح له فى هذا المجال .

لقد أفرغت عليه الطبيعة كل مواهب الخطيب . صوت واضح مبين له رنين الفضة ، وقوام رشيق ؛ ووجه نبيل يوحى بالثقة ، وجبهة مرتفعة ، وحركاته كلها توحى بالترفع والاعتزاز بالنفس .

وقد نمت مواهبه بالدراسة والمران والممارسة . هيأه أبوه منذ صباه للبرلمان ، وشحذه للخطابة سيفاً قاطعاً . فلما أتيحت له الفرصة ظهر وبهر ، وجعل مقدرته الخطابية فى خدمة المنصب الرفيع الذى تولاه فى صدر شبابه .

دخل مجلس العموم فى عصر كان يفخر فيه بخطباء مشهورين من أمثال « فوكس » وشريدان ، وبيرك . وغيرهم ، ولكن الذين سمعوهم جميعاً يخطبون أجمعوا على أن بت كان يفوقهم ويتفوق عليهم .

قال عنه فوكس نفسه :

« كنت وأنا أخطب أبحث عن الكلمة حتى أجدها ، أما بت فكان يجد الكلمة المطلوبة دائماً فى متناول يده ولسانه » .

شهد له الجميع بأنه كان الخطيب المرتجل الذى يندفع كالسيل فى عبارة مرصعة الحواشى من غير استعداد ، لا يتوقف باحثاً عن كلمة أو مفتشاً عن عبارة بل كانت المعاني فى خدمته والألفاظ طوع لسانه .

وكان الوزير الوحيد الذى يقدم للبرلمان الميزانية من غير مذكرات

مكتوبة ، حتى قال عنه النقاد :

– إنه يستطيع أن يرتجل تلك القطعة السياسية الدقيقة المحرجة المعروفة فى النظام البرلمانى بخطاب العرش . . !

وكان إلى جانب قدرته الفائقة على الارتجال ، يعرف كيف يجعل نفسه مبهماً غامضاً ، وكيف يكون واضحاً مفهوماً عندما يريد . فعندما كان يريد أن يفهمه الناس كانت أعقد الموضوعات وأدقها وأكثرها غموضاً ، تكتسب من ذهنه الصافى وبيانه الناصع الوضوح والسهولة . أما إذا دعته الظروف إلى تعمد الغموض ، فكان يستطيع أن يخطب ساعات ولا يقول شيئاً ، ثم يغادر المنبر وقد أوهم السامعين أنه قال الكثير . اتهمه خصومه بالكبرياء والغرور ، وقال عنه « لورد روزبرى » :

– لقد كان فى طبيعته جفاء وبرود وصلابة ، يميل إلى تجنب الناس والابتعاد عنهم . ومن اللحظة الأولى التى وضع فيها قدميه فى البرلمان اعتاد أن يصعد المنبر بخطوات واسعة سريعة ثابتة ، ورأس مرتفع ، لا يتلفت يميناً أو يساراً ، ولا يلقى نظرة أو إيماء إلى أحد من الجالسين على جانبى طريقه ، وفيهم زعماء إنجلترا وأعيانها ! » .

ولكن « بت » لم يكن مغروراً ولا متكبراً ، وإنما كان يغلب عليه الكبرياء والترفع والاعتزاز بنفسه وبقدرته . كان يترفع عن المطامع والأهواء الشخصية فى نزاهة نادرة المثال . حتى ألقاب الشرف كان يترفع عنها ، فرفض قبول وسام ربطة الساق الذى كان يتهافت عليه أكبر العظماء ، وبينما كان ينثر على غيره الأوسمة والألقاب ظل حتى مات يحمل لقب « مستر بت » .

هكذا كان « بت » السياسى والخطيب ، يقود سفينة الحكم فى بحر عاصف متلاطم الأمواج . ولقد صادفته المتاعب والهزائم ، ولكنه ما يكاد يستوى على المنبر ويرفع رأسه بكبرياء وعظمة ثم يتدفق بالكلام حتى يتسلط على القلوب . ويبث فى أنصاره وخصومه روح الأمل والثبات .

وبفضل فصاحة « بت » تضاءلت المعارضة فى مجلس العموم حتى أصبحت فى عام ١٧٩٩ لا تزيد على خمسة وعشرين من الأعضاء .

* * *

بينما كان « بت » يؤلب دول أوربا على نابليون ، ويسعى إلى عقد المحالفات بينها لمواجهته ، ويمضى فى الحصار البحرى الذى فرضه على فرنسا ، كان نابليون ينتقل بسرعة من نصر إلى نصر ، وكان نجمه يعلو فى سماء فرنسا وأوربا ، فأصبح القنصل الأول بعد « انقلاب برمير » الذى دبره ليكون الحاكم الحقيقى لفرنسا . وكان نابليون يعرض الصلح على إنجلترا ، ولكن « بت » كان يعارضه ويصر على محاربته اعتقاداً منه بأن نابليون لن يتوقف حتى يخضع أوربا كلها لسلطانه . وبدأ الخلاف يدب بين « بت » والملك ، وبينه وبين مجلس العموم ، فلما قدم إلى البرلمان فى عام ١٨٠١ مشروعاً لحكم إيرلندا لم يظفر بقبول المجلس ، تخلى عن الحكم .

وكانت صحة « بت » قد ساءت ، إذ كان المرض يمد إلى صدره سهامه القاتلة منذ الصبا ، فاعتزل الحياة العامة ، وانصرف إلى علاج نفسه ، ولم يشهد جلسات المجلس عامى ١٨٠٢ , ١٨٠٣ .

وفى خلال هذه الفترة تحققت ظنون وليم بت كلها ، فقد بدا واضحاً أن أطماع نابليون لن تقف عند حد ، وأخذت أحلامه تطوف بالجزر

البريطانية نفسها ، فأعد العدة لغزوها ، وحشد على الساحل الشمالى لفرنسا ثمانين ألفاً من الجنود ، وأمر بإعداد أسطول هائل من الناقلات للغزو المنتظر .

ورأى الجميع أن « بت » هو وحده القادر على إنقاذ البلاد ، وكان الرأى السائد أنه إذا استمرت وزارة « أدنجتون » فى الحكم فإن البلاد سوف تتعرض للضياع .

وعرض عليه « أدنجتون » أن يشترك فى الوزارة فرفض ، ثم عرض عليه أن يدخل الوزارة على أن يكون رئيساً لها فلم يقبل .

وفى مايو ١٨٠٣ كانت الحرب قد أعلنت رسمياً بين إنجلترا وفرنسا ، فذهب « بت » إلى مجلس العموم بعد غياب طويل ، وخطب خطبة دامت ثلاث ساعات وسط موجة عارمة من الحماس ، ورعد قاصف من الهتاف والتصفيق .

وسقطت وزارة « أدنجتون » ليشكل « بت » وزارته الثانية فى نفس اليوم الذى أعلن فيه نابليون نفسه إمبراطوراً على فرنسا .

وبدأ بين الدولتين صراع هائل لم ينته إلا بعد اثنى عشر عاماً فى واترلو . ولكن « بت » لم يشهد من هذا الصراع غير ثلاثة أعوام كانت كل ما بقى له من حياته القصيرة . ولقد كانت أعواماً سيئة له ولبلاده ، فقد كان نابليون يحقق خلالها انتصاراته الرائعة المذهلة ، غير أن بت لم يعرف اليأس ولم تتسرب إلى نفسه روح الهزيمة .

ولقد حاول عند تشكيل وزارته الثانية أن يضم إليها كل الرءوس الكبيرة فى إنجلترا ، ولكنه لم يوفق ، فاكتفى بتشكيل وزارة ضعيفة من أنقاض

وزارة « أدنجتون » كان هو كل شيء فيها ، حتى قيل إنها مؤلفة من « ولم » و« بت » . وسرعان ما أصيبت هذه الوزارة بضربة فى الصميم عندما اتهم « اللورد ملفيل » أقرب الوزراء إلى « بت » بتهمة خطيرة وحوكم أمام مجلس العموم . وانتهزت المعارضة الفرصة فحشدت جهودها وأصواتها ضد الوزير حتى انقسمت آراء الأعضاء وتساوت عند الاقتراع . وكان على رئيس المجلس أن يدلى بصوته للترجيح ، فأعلن رأيه بالإدانة ، وخرج « بت » من المجلس تحوطه شماتة المعارضين .

ولكن المخاطر التى كانت تستهدف لها بلاده كانت تشعل فى نفسه روح النضال ، فسعى حتى عقد التحالف الثالث ضد فرنسا كى يشغل نابليون عن غزو إنجلترا ، وجمع فى هذا الحلف روسيا والنمسا والسويد . وأسرع نابليون ليضرب الحلف الجديد ضربة قاضية ، فقد هاجم النمسا بسرعة مذهلة قبل أن ينجدها حلفاؤها ، وحاصر جيشها واضطره إلى التسليم فى ساحة « أولم » ثم دخل « فينا » وهرب إمبراطور النمسا محاولا جمع فلول جيشه والاستعانة بحليفه قيصر روسيا لاسترداد عاصمة بلاده . وبدأت أخبار هذه الهزائم تخط سطور الموت على وجه « بت » الذى أنهكه المرض ، وحاول أن يتجلد ، ثم أسعفه القدر بنصر رائع أنسى الناس مرارة الهزيمة فى « أولم » . ذلك أنه فى يوم ٢١ أكتوبر ١٨٠٥ كانت موقعة الطرف الأغر البحرية التى حطم فيها « نلسن » الأسطول الأسبانى الذى كان يتجمع لمساعدة نابليون فى مشروعه لغزو بريطانيا. وقد قضى هذا النصر البحرى الحاسم على أحلام نابليون فى الغزو ، وأكد سيادة بريطانيا على البحار ، وأنقذها من أعظم الأخطار التى تعرضت لها .

ووقف « بت » فى مجلس العموم عند منتصف الليل يتلو بلاغات المعركة البحرية التى حققت فيها بريطانيا أعظم نصر بحرى ، وفقدت فى نفس الوقت أعظم قائد بحرى فى تاريخها .

وأقام محافظ لندن مأدبة غداء فى اليوم التالى لتكريم « بت » فقابله الشعب بحماس جنونى ، وجر عربته إلى « الجيلد هول » فى مظاهرة حافلة وشرب المحافظ نخبه كمنقذ لأوربا ، فرد عليه « بت » بكلمة موجزة قال فيها :

—أشكركم على ما أسبغتم على من شرف عظيم . إن أوربا لا ينقذها رجل واحد . فقد أنقذت إنجلترا نفسها بجهودها ، وسوف تنقذ أوربا بمثلها .

وكان المرض قد تمكن من جسم « بت » الضعيف ، الذى وهب حياته لبلاده ، فلم يتزوج لكى يكرس كل وقته وجهده للقضية التى وقف عليها حياته . وقف فى الميدان كالطود الراسخ فى وجه العواصف الداخلية التى تثيرها المعارضة والسياسيون المحترفون من خصومه وحاسديه ، وفى وجه التحدى الكبير الذى كان يمثله نابليون ، وبعد شهر واحد من انتصار الطرف الأغر ، كانت موقعة « أوسترلتز » التى انتصر فيها نابليون على الجيشين الروسى والنمسوى ، انتصاراً خالداً جعل قيصر روسيا يتقهقر هارباً إلى بلاده ، على حين وقع إمبراطور النمسا فى الأسر ووقع معاهدة الصلح التى فرضها عليه نابليون .

وتلقى « بت » أنباء « أوسترلتز » وهو يستجم فى قريته ، وكان يتأمل خريطة أوربا المعلقة فى حجرته ، فقال لمن حوله :

–اطووا هذه الخريطة . فلن يحتاج إليها أحد فى هذه السنوات ! . .

واشتد عليه المرض . وزاره فى القرية « ولسلى » فأدرك أنه يقترب من نهايته ، وأبلغ الأمر إلى زعيم المعارضة ، فأجل مجلس العموم جلساته . وأوقفت المنازعات الحزبية .

وفى صباح يوم ٢٢ يناير ١٨٠٧ دخل « بت » مرحلة الاحتضار ، ويروى أنه قال وهو يعانى سكرات الموت :

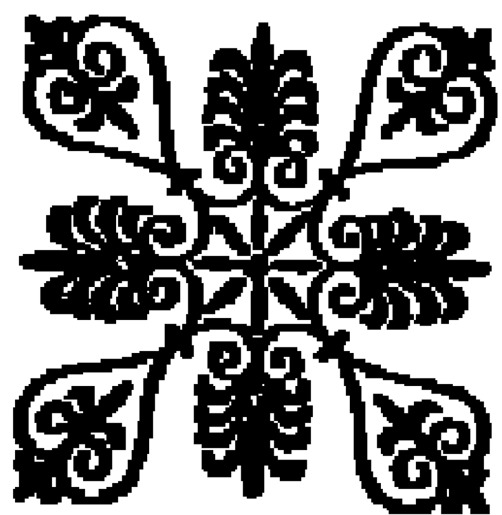
–بلادى . . . بلادى . . . ما أصعب فراقك ! .

ثم أسلم الروح .

عبد الله النديم

« رأيت رجلا فى ذكاء إياس ، وفصاحة سحبان ، وقبح الجاحظ ، أما شعره فأقل من نثره ، ونثره أقل من لسانه ، ولسانه الغاية القصوى فى عصرنا هذا » .

أحمد تيمور



عبد الله النديم

من حق عبد الله نديم أن يُعرف له مكانه من تاريخ الخطابة فى مصر . فقد كان فيها رائداً عرف فضلها ، والتفت إلى قيمتها فى الحياة العامة ، فدعا إلى الاهتمام بها ، وكان هو من فرسان حلبتها ، بل كان سيد المنابر فى عصره . عرف له رجال الثورة العرابية خطره فحشروه فى زمرتهم ، ووجد هو فيها مجالا يوافق طبيعة نفسه فأصبح خطيب الثورة ولسانها الناطق ، حتى اقترن بها أسمه ، واكتوى بنارها ، وقضى حياته مغامراً ، فكانت أيامه سلسلة من الكفاح الذى لا يعرف الهدوء ، والجهاد الذى لا يعرف الاستسلام ، وكأنما كانت نفسه ترتاح لمقارعة الخطوب ومصارعة الأحداث .

قال فى قصيدة له يتحدث عن نفسه :

إذا ما الدهر صافانا مرضنا فإن عدنا إلى خطب شفينا
إذا طاش الزمان بنا حلمنا ولكنا نهينا إن نهينا
وإنا والورى قسمان لكن إذا ماتوا بنازلة حيينا

وهكذا كان عبد الله نديم ، ثورة مضطرمة دائمة ، حتى بعد أن سكن الثوار واستسلموا للأمر الواقع ، رفض أن يستسلم أو يهدأ ، لأن الثورة كانت طبعاً أصيلاً فيه . ولم يكن عبد الله نديم غنيًّا ولا كان من بيت كبير . نزح أبوه من الشرقية إلى الإسكندرية واشتغل فترة من الزمن نجاراً بدار صناعة السفن ، ثم افتتح مخبزاً صغيراً كفل له الكفاف من العيش .

وفى عام ١٨٤٥ رزق « مصباح إبراهيم الإدريسى » بولده « عبد الله » فأدخله « كتاب » الحى ، حيث حفظ القرآن الكريم وأتمه وهو فى التاسعة من عمره .

وكانت للصبى ذاكرة عجيبة ، وقدرة نادرة على الحفظ ، فأدخله أبوه معهد « الجامع الأنور » الذى أنشأه الشيخ إبراهيم باشا بالإسكندرية لدراسة علوم الدين واللغة على نمط الدراسة بالأزهر . وظل « عبد الله » بضع سنوات يدرس على بعض أكابر الأشياخ ، ولكن لم يلبث أن ضاق بهذا اللون من الدراسة الجافة ، فهرب منها ، واتجه اتجاهاً يوافق طبيعته ومزاجه ، وأخذ يغشى مجالس الأدباء ، ويستمع إلى ما يروى من الشعر ويلقى من الأزجال والنوادر ، فهامت نفسه بهذا اللون من المعرفة ، وأحس إحساساً عميقاً بأن هذا طريقه .

ولم يكن للأدب فى ذلك الزمان دراسة منظمة ، فانصرف « عبد الله » من حلقات العلم بالجامع الأنور إلى دكاكين التجار المحبين للأدب ، يتطارح معهم الشعر ، ويستمع إلى شاعر الربابة يروى القصص والأساطير الشعرية ، ويشبع نهمه إلى فنون الأدب . وكان بين أساتذته فى الجامع الأنور شيخ يدعى الشيخ محمد العشرى ، وكان يتعشق الأدب ، فاكتشف موهبة تليمذه « عبد الله » وقدرته على النظم ، فأخذ يشجعه ويصحبه إلى ندوات الأدباء ، وبيوت الأثرياء حيث يستمع إلى المباريات الأدبية والشعر وفنون الزجل(١) .

وتفتحت مواهب الأديب الناشئ عندما وجدت المناخ الملائم ،

---

(١) عبد الله نديم للدكتور على الحديدى .

وعاونته حافظته العجيبة التى اختزنت كثيراً مما سمعت ، وساعده حسه المرهف ، فأخذ يقول الشعر والزجل ويعالج الكتابة ، ويطارح غيره فى المجالس ، حتى ذاع أمره ، وأخذ يدعى ليجالس الخاصة من هواة الأدب ، وينادم الكبراء ، فينطلق لسانه بالشعر والزجل والنوادر والفكاهات .

وعلم أبوه بأمره ، فخيره بين العودة إلى دروس الجامع والانتظام فى طلب العلم ، أو الذهاب عنه إلى حيث يكسب رزقه بنفسه .

واختار « عبد الله » الطريق الثانى ، وخرج من الإسكندرية مطوفاً فى البلاد ، وقضى ستة أشهر ينزل ضيفاً على العمد والأعيان ، يستمتع بكرمهم ، ويمتعهم بأدبه وإنشاده ، ثم عاد إلى الإسكندرية يحمل لقب « النديم » الذى عرف به طول حياته .

وضاق النديم بالإسكندرية وضاقت به ، فهاجر إلى القاهرة .

كان ذلك فى عام ١٨٦١ ، وكان فى السابعة عشرة من عمره ، فبحث عن سبيل للكسب ، وإذا به يتجه اتجاهاً غريباً ، إذ تعلم فن الإشارات التلغرافية ثم التحق بمكتب التلغراف ببنها ، ثم نقل إلى مكتب تلغراف القصر العالى حيث كانت تقيم والدة الخديو اسماعيل .

وعندما استقر عبد الله النديم بالقاهرة ، واطمأن إلى رزقه المكفول بوظيفته فى القصر العالى ، عاوده الحنين إلى الأدب ومجالسه ، فكان يمضى أوقات فراغه فى الأزهر لحضور الدروس التى يلقيها بعض كبار العلماء ، ثم اتصل بكثير من الأدباء والشعراء مثل محمود سامى البارودى وعبد الله فكرى والساعاتى وغيرهم ، فكان يحضر مجالسهم ويرتوى من مناهلهم .

وجاء جمال الدين الأفغانى إلى مصر ، وأخذ ينشر آراءه الثورية ساعياً

إلى تنبيه العقول لتتبين ما ترسف فيه البلاد الإسلامية من بؤس العبودية ، داعياً إلى التحرر ومقاومة الاستعمار فى شتى صوره . واتصل به النديم ، فاستهوته آراؤه الجريئة ، وأصبح من تلاميذه المقربين ، يحرص على لقائه وحضور مجلسه وأعجب به الأفغانى فاهتم بتوجيهه وقد توسم فيه الخير ، واكتشف مواهبه الخطابية ، فدعاه إلى تنميتها ، وأخذ يلقنه الآراء والمبادئ التى يؤمن بها ويدعو إليها .

وكان لاتصال النديم بالأفغاني أكبر الأثر فى حياته بعد ذلك ، فكما وجهه من قبل أستاذه الشيخ محمد العشرى إلى الأدب ، وجهه الأفغانى إلى الثورة وغرس بذرتها فى نفسه .

ولكن حادثاً وقع للنديم أخرجه من وظيفته ، ومن القاهرة كلها .

لقد غضب عليه « خليل أغا » كبير أغوات القصر العالى ، وكان صاحب نفوذ كبير ، فأمر بجلده بالسياط وطرده من عمله بالقصر .

وترك عبد الله النديم القاهرة كلها ومضى إلى الدقهلية ، وفى المنصورة اتخذ دكاناً لبيع الخردوات جعله ندوة للأدباء والشعراء فانتهى أمره إلى الإفلاس . وأغلق النديم دكانه ومضى يطوف بالبلاد ، ينزل ضيفاً على هواة الأدب من الكبراء والأغنياء ، حتى سمع بأمره شاهين كنج باشا مفتش الوجه البحرى ، فاستدعاه وأعجب به وأكرمه واتخذه نديماً .

وفى طنطا برزت مواهبه ، فى مجالس شاهين باشا ظهر تفوقه على من كان يحضرها من الأدباء والشعراء ، فقد رأوا بديهة حاضرة ، وخاطراً يومض فى سرعة البرق ، ومقدرة فائقة على إرسال الشعر والزجل ارتجالا ، فاعترفوا له بالسبق طائعين أو كارهين .

فى أحد هذه الاجتماعات لدى شاهين باشا دفعت الغيرة الحاضرين من الشعراء والأدباء فتحاملوا عليه . وتحداه بعضهم أن يقول شعراً يعارض به دالية المتنبى التى مطلعها :

أقل فعالى – بله أكثره – مجد   وذا الجد فيه ، نلت أو لم أنل ، جد

فغضب النديم وأمسك بالقلم وأنشأ قصيدة طويلة يقول فى مطلعها :

سيوف الثنا تصدا ومقولى الغمد   ومن سار فى نصرى تكفله الحمد
ومن عجب الأيام شهم أخو حجا   يعارضه غر ويفحمه وغد
ومن غرر الأخلاق أن تهدر الدما   لتحفظ أعراض تكفلها المجد

فأفحم الحاسدين وأسكت المعارضين :

وجرت له فى طنطا حادثة أخرى أطارت ذكره بين الناس . كان يجلس مع بعض أصحابه فى أحد المقاهى أيام المولد الأحمدى ، فأقبل اثنان من « الأدباتية » ومرا على الحاضرين حتى وصلا إلى عبد الله النديم ، فقال أحدهما :

إتعم بقرشك يا جندى   والا اكسنا أمال يا أفندى
أحسن أنا وحياتك عندى   بقى لى شهرين طول جعان

فأجابه النديم على البديهة :

أما الفلوس أنا مديشى   وانت تقول لى ما أمشيشى
يطلع على حشيشى   أقوم أملص لك لودان

فرد الأدباتى وأجابه النديم ، وظلا كذلك ساعة حتى سكت الأدباتى واعترف بالهزيمة . ونقلت القصة إلى شاهين باشا فأحضر الأدباتية والزجالين من أقطاب هذا الفن ، وعرض عليهم أن يقيم حفلاً عاماً يساجلون فيه النديم

فإن غلبوا كافأهم ، وإن غلبهم النديم ضرب كلا منهم عشرين كرباجاً . . !
وقبلوا العرض ، وأقام شاهين باشا سرادقاً أمام بيته ازدحم بالناس ، واستمرت المساجلة ثلاث ساعات ، يقولون ويرد عليهم النديم حتى غلبهم وأسكتهم .

وتفصيل هذا الحادث أو المهرجان منشور بمجلة « الأستاذ » ، ويقول النديم إن شاهين باشا عدل عن ضربهم ومنحهم خمسة جنيهات .

وفى مجلس شاهين باشا تعرف النديم على تتونجى بك وكان من الحاشية الخديوية ، فأعجب به وعينه وكيلاً لدائرته ، فهيأت له هذه الوظيفة التردد على القاهرة وهو آمن من أذى خليل أغا .

* * *

وفى القاهرة عاد إلى مجلس أستاذه جمال الدين الأفغانى فوجده أكثر ثورية فى أحاديثه . كان يدعو إلى التحرر من الظلم الاجتماعى والاستبداد السياسى والتدخل الأجنبى ، ويرى أن السبيل إلى ذلك لا يكون إلا بتكوين رأى عام مستنير وتنظيم المقاومة الشعبية . ومست كلمات الثائر الكبير شغاف قلبه فلزم مجلسه ، وانضم إلى المحفل الماسونى الذى أنشأه السيد جمال الدين . ووجهه الأفغانى إلى الإسكندرية ليكون رسول دعوته بها ؛ وليساعد فى تحرير الصحف التى يصدرها المحفل بالثغر ، فسافر النديم إلى الإسكندرية فى أوائل عام ١٨٧٩ .

ومنذ ذلك التاريخ بدأ الكفاح الحقيقى لعبد الله النديم ، وترك خلف ظهره حياته الماضية التى كان فيها مجرد نديم للكبراء يمتعهم بأدبه ونوادره وحمل رسالة الدعوة الوطنية ورفع شعلتها عالية فلم تسقط من يده حتى انطفأت جذوة حياته .

ولقد وجد النديم فى الإسكندرية شعوراً قومياً فى دور التكوين ، ووجد الناس قد أخذوا يعنون بالسياسة ويتحدثون فى تصرفات الخديو إسماعيل وتدخل الدول الأجنبية . فانضم إلى جمعية « مصر الفتاة » السرية ، التى كانت تهدف إلى القضاء على استبداد إسماعيل ، والعمل على خلعه أو قتله ، والمطالبة بحكم الشورى والدعوة إلى الإصلاح العام . واتصل بأديب إسحق محرر جريدة « التجارة » وأخذ ينشر المقالات فيها وفى جريدة « مصر » يعالج فيها الموضوعات التى تشغل الناس .

وأدرك عبد الله النديم أن الكتابة السياسية يناسبها الأسلوب السهل المتدفق ، فحرر كتابته من السجع والمحسنات اللفظية التى كانت طابع كتابته قبل ذلك . وأعجب القراء بمقالات النديم ، التى كان يدعو فيها إلى الإصلاح الاجتماعى والسياسى . وأخذ الكتاب يقلدون أسلوبه المرسل الجديد ، فذاع صيته بين الناس ، وراجت بفضله الجريدتان .

وحاول النديم إقناع أعضاء جمعية « مصر الفتاة » بتحويلها إلى جمعية علنية تعمل للإصلاح فى وضح النهار ، وبذلك يكون لها أثر فى تنبيه الرأى العام . فلما فشل فى محاولته انفصل عنها ، وكون أول جمعية مصرية فى أبريل ١٨٧٩ وهى « الجمعية[١] الخيرية الإسلامية » التى أنشأت مدرسة للتعليم على غير النمط الذى تسير عليه مدارس الحكومة ، وعين النديم مديراً لهـا ، فألقى فى حفـلة الافتتاح خطبة رائعة كان لها دوى كبير فى الإسكندرية ، ونشرتها الصحف ، وقالت عن الخطيب إنه « أول خطيب مصرى وقف بين الحكام ، وفتح فاه بالكلام فى مكان عام ، فى وقت بلغ

(١) وهى غير « الجمعية الخيرية الإسلامية » والتى أنشئت بعد ذلك فى القاهرة .

فيه الاستبداد أشده ، وجاوز الظلم حده » .

وفى هذه المدرسة ظهر حب عبد الله النديم للخطابة واهتمامه ، وإيمانه بفائدتها فى تثقيف الشعب وإيقاظ الشعور القومى وقيادة الرأى العام . فأخذ يلقن أصول الخطابة للطلاب ، ويدربهم عليها ، ويقيم الحفلات يخطب فيها هو وتلاميذه ، ولم يكتف بذلك ، بل خرج بالمدرسة إلى الحياة العامة ، فكون من تلاميذها جمعيات للخطابة والآداب والفنون والتمثيل ، وألف بعض الروايات التمثيلية فى نقد العيوب الاجتماعية ومثلها مع تلاميذه على المسارح العامة .

وبعد شهرين من إنشاء الجمعية الخيرية الإسلامية ، أجبر الخديو إسماعيل على التنازل لابنه توفيق ، وظن النديم كما اعتقد الناس أن الخديو توفيق سوف يفى بالوعود التى قطعها للشعب ولحزب الإصلاح ويحاول أن يصحح أخطاء إسماعيل ، ولكنه لم يلبث أن تنكر لوعوده ، وأمر بنفى جمال الدين الأفغانى رئيس حزب الإصلاح ، وأسلم قياده لقناصل الدول الأجنبية . ولكن ذلك لم يفت فى عضد النديم ، بل واصل السير قدماً نحو الأهداف التى أنشأ من أجلها الجمعية ، غير مبال بتحذير الناس له وتخويفهم إياه . فأعلن عن إقامة حفلة للخطابة فى ساحة المدرسة ليلة الجمعة من كل أسبوع .

ويقول الدكتور على الحديدى فى كتابه عن « عبد الله النديم » إن ساحة المدرسة كانت تغص بالوافدين عليها ، وكان عددهم يزيد على خمسمائة مستمع كل اجتماع . وأحدثت هذه الحفلات هزة فكرية فى الإسكندرية ، إذ هرع إليها الناس يستمعون إليه بما لم يسمعوه من خطيب مصرى قبله ،

فكان يخطب في موضوعات ظاهرها الإصلاح الاجتماعى والثقافى ولكنها محشوة بما ينبه الألباب إلى ما وصلت إليه البلاد من سوء الحال .

وأخذت الصحف تنشر خطب النديم كاملة فى صفحاتها الأولى ، وخلعت عليه كثيراً من الألقاب ، فسمته « خطيب الشرق » وأطلقت على محفله « سوق عكاظ » وتصف حفلاته وإقبال الجمهور عليها ، وكيف يسحر النديم مستمعيه ويأخذ بقلوبهم ويمتلك عواطفهم « ويثبت فى الأفئدة الضعيفة أنوار الحمية الوطنية ويضرم فى النفوس الهامدة نيران الغيرة والحرية » . .

وأصبحت الإسكندرية ولا حديث لها إلا خطب النديم ، واجتذب محفله الخطابى كبار القوم وسراة الإسكندرية ، وانضم إلى الجمعية كثيرون من أصحاب النفوس المشتعلة بالوطنية[١] » . .

ويقول الدكتور الحديدى فى كتابه إنه حين وقع النزاع بين الخديو توفيق ورئيس وزرائه رياض باشا على السلطة ، وتسابقا فى التقريب إلى السلطة الأجنبية ، لم يجد الخديو لديها النصير ، فعاد يتقرب إلى الشعب مرة أخرى لعله يستعيد ثقته فينصره على رياض باشا . واستغل النديم الفرصة ليحتمى بالخديو من بطش رياض ، فدعاه لزيارة مدرسة الجمعية وجعلها تحت رعاية ولى العهد ليضمن بقاءها ، وانطلق النديم يدعو إلى إنشاء الجمعيات ، واتجه بدعوته إلى المدن والقرى يطوف بها ويخطب الناس فى المساجد والمجتمعات ، فتألفت على يديه جمعيات بدمنهور وميت غمر والمنصورة ودمياط وغيرها ، وكما يقول النديم: « وقويت هذه العصابة ،

---

(١) عبد الله النديم بقلم الدكتور على الحديدى .

وتعددت محافل الخطابة ، وانتشرت الدعوة فى البقاع ، حتى ملأت القلوب والأسماع ، وانفتح باب الجمعيات ، ودخلها الناس أفواجاً وزرافات » ، وصارت جمعيات النديم مجالاً للصراع بين الخديو ورياض باشا ، يحاول كل منهما أن يتخذها وسيلة من وسائل الدعاية له ، والنديم من جانبه ، يتخذ من تأييدها وسيلة لنشر دعوته ، فقد أصبحت المعانى السياسية التى تدل عليها خطب النديم غير خافية ، إذ فهمتها النفوس ، وأصبحت حديث الناس (١) .

وقام النديم مع فريق التمثيل بالمدرسة بتمثيل روايته « الوطن وطالع التوفيق » على مسرح « زيزينيا » بحضور الخديو والوزراء ، وكانت الرواية حافلة بالأهداف السياسية . وشعر رياض باشا بخطر النديم عليه وعلى حكمه ، فتآمر مع المحافظ الذى كان رئيساً للجمعية على إخراج النديم منها وتلويث سمعته بنسبة أمور إليه تسمح بفصله ، ولكن النديم علم بالمؤامرة فأرسل إلى مجلس الإدارة استقالته من إدارة المدرسة ومن عضوية الجمعية .

واتجه النديم إلى الصحافة ، فأصدر صحيفة سماها « التنكيت والتبكيت » كانت لوناً جديداً من الصحافة لم يسبق إليه . وقد قال فى افتتاحية العدد الأول الذى صدر فى ٦ يونية ١٨٨١ « إنه لا يريد منها أن تكون منمقة بمجازات واستعارات ، ولا مزخرفة بتورية واستخدام ، ولا مفتخرة بفخامة لفظ وبلاغة عبارة ، ولا معربة عن غزارة علم وتوقد ذكاء ، ولكن أحاديث تعودناها ، ولغة ألفنا المسامرة بها . . » وفى هذه الصحيفة

(١) المصدر السابق .

الرائدة عاد عبدالله النديم يدعو إلى الاهتمام بالخطابة ، ويقول إن من أسباب غفلة الشرق ضعف الخطابة فيه وانحصارها فى خطب المساجد التى لاتمس الحياة الواقعة .

وكتب مقالاً قوياً بعنوان « ألسن الخطباء تحيي وتميت » طلب فيه أن تكتب خطب المساجد بشكل جديد بحيث تعالج شئون الحياة ، وتشرح الموقف الحاضر ، وتبين الأخطار المحيطة بالأمة ، وقال فى نهاية المقال :

« أود وجود نفر من أعيان بلادنا يتبرعون بمبلغ لنشر خطب أدبية وسياسية . وأنا أتبرع بإنشاء خطبة فى كل أسبوع تناسب أحوال الزمان ، ثم تطبع هذه الخطب وتنشر فى سائر أنحاء القطر لتنبه الأفكار وتعرف الأمة قدرها بين الأمم . . » .

ثم أردف المقال بخطبة نموذجية توضح غرضه ، وصاغها صياغة دينية تناسب صلاة الجمعة . . ومما قاله فيها :

« إن لكل أمة كلمة تجمعها ، وسيرة تسمعها ، وكلمتنا الوحيدة حسن الاعتقاد ، وسيرتنا حفظ الملة والبلاد . . وقد تأسست كلمتنا بالاتحاد واللين ، والقيام بما جاء به هذا الدين ، من ترك العقوق ، وحفظ الحقوق ، والبعد عن الظلم والبغى ، والتطهر من الرجس والغى ، والحث على الائتلاف ، والتحذير من الاختلاف . وقد دخل معنا من أهل الذمة من تعلمون ، وصاروا إخواننا فى الوطنية ، وأنتم تعلمون ما نزل به الوحى من السماء ، وما أهريق فى نشره من الدماء ، حتى بلغنا السعود ، وصرنا أمة عظيمة فى الوجود . ولولا تفرق الكلمة ما انحل عقد اجتماعنا ، ولا خرج علينا أحد من أتباعنا ، ولا ضعفت منا الهمم حتى تلاعبت بنا الأمم . . » .

ثم قال :

« أترون الدول ترحمكم إذا ملكتكم ، أو تبكى عليكم إذا أهلكتكم ، أو تعاملكم بالرفق واللين ؟ كلا والله . . ما هى إلا أسود إن دُهمت احترست وإن تمكنت افترست ، وإن ملكت أساءت السيرة ، وإن جاورت لم تحفظ الجيرة ، وإن تداخلت احتالت ، وإن رأت غرة اغتالت . . إلخ » .

* * *

نجحت مجلة « التنكيت والتبكيت » فكانت أعدادها تنفذ بمجرد صدورها ، ويتخطفها رجل الشارع الذى وجد لأول مرة جريدة تهتم به وبمشاكله ، وتعالجها فى أسلوب سهل يجمع بين القصة والنكتة ، ويحدث العامة بلغتهم تارة وبالزجل الرشيق تارة أخرى . ثم أخذ النديم يتطرق فى مقالاته إلى السياسة فيهاجم الظلم والاستبداد . ولم يكتف بالكتابة فى مجلته بل أخذ يتنقل فى البلاد ويخطب فى المساجد ، ويخاطب الفلاحين محاولاً أن يبذر فى نفوسهم بذور الثورة على الحكم الظالم وعلى الإقطاع والاستغلال .

وفى خلال ذلك كان « أحمد عرابى » يمهد مع زملائه للثورة على الأوضاع القائمة ، وقد وجد العرابيون فى عبد الله النديم خير داعية يستطيع أن ينشر دعوتهم بين صفوف الشعب ، فاتصلوا به ، وأطلعوه على خططهم ، وضموه سراً إليهم ، وكان النديم مهيأ لهذا الدور الخطير .

كان قد بلغ الأربعين من عمره ، ولكن هذه الأعوام كانت قد حفلت بالتجارب ، فنضجت رجولته كما نضج فنه ، حدث عن نفسه فقال :

« أخذت عن العلماء ، وجالست الأدباء ، وخالطت الأمراء ، وداخلت الحكام ، وعاشرت أعيان البلاد ، وامتزجت برجال الصناعة

والفلاحة والمهن الصغيرة . وأدركت ما هم فيه من جهالة ، ومم يتألمون ، وماذا يرجون . وخالطت كثيراً من متفرنجة الشرقيين . وألممت بما انطبع فى صدورهم من أشعة الغربيين . وصاحبت جماً من أفاضل الشرقيين المتعلمين فى الغرب . وعرفت كثيراً من الغربيين . ورأيت أفكارهم عالية أو سافلة فيما يختص بالشرقيين والغاية المقصودة لهم . واختلطت بأكابر التجار . وسبرت ما هم عليه من السير فى المعاملة أو السياسة وامتزجت بلفيف من الأجناس المتباينة جنساً ووطناً وديناً . واشتغلت بقراءة كتب الأديان على اختلافها ، والحكمة والتاريخ والأدب ؛ وتعلقت بمطالعة الجرائد مدة . واستخدمت فى الحكومة المصرية زمناً . واتجرت برهة . وفلحت حيناً وخدمت الأفكار بالتدريس وقتاً . وبالخطابة والجرائد آونة ؛ واتخذت هذه المتاعب وسائل لهذا المقصد الذى وصلت إليه بعناء كسانى نحول الشيخوخة فى زمن بضاضة الصبا ، وتوجنى بتاج الهرم الأبيض بدل صبغة الشباب السوداء ، فصورتى تريك هيئة أبناء السبعين ، وحقيقتى لم تشهد من الأعوام إلا تسعة وثلاثين » .

هكذا كان عبد الله النديم فى مطلع الثورة العرابية .

كان كاتباً يدعو فى مجلته إلى الإصلاح بأسلوب مبتكر ، وكان خطيباً وهبه الله قدرة عجيبة على الارتجال ، لا يكاد يفتح فمه للقول حتى تنثال عليه وتنهال الألفاظ ، فيتدفق بالكلام البليغ تدفق السيل .

ونستطيع أن نتصور مقدرته كخطيب إذا ذكرنا كيف كان يرتجل الشعر والزجل بداهة ، وكيف كان يؤلف الروايات التمثيلية ثم يعتلى المسرح فيمثلها مع تلاميذه أمام الخديو ، وكيف التفت إلى أهمية الخطابة كأداة للإصلاح وتنبيه الشعور القومى ، فدرب عليها تلاميذه ، وعلم

كثيراً من الشبان كيف يخطبون فى المحافل .

والواقع أن المقدرة الخطابية كانت أبرز نواحيه وأظهر مافيه .

كتب صديقه « أحمد سمير » يقول عنه فى ترجمة حياته :

« كان يخطب فى كل ناد ومحفـل بصوت جهورى ، ولسان أمضى من الحسام ، وقلب أجرأ من الأسد . ويعلم الله أنى ما رأيت عمرى أخطب منه على كثرة من سمعت فى الشرق والغرب من كبار الخطباء الذين تضرب ببلاغتهم وقوة براهينهم الأمثال » ثم قال أيضاً :

« وأما خطبه وتأثيرها السريع فى الأذهان فيكفينى مؤونة الكلام الطويل فيه إجماع كتاب الجرائد العربية والأجنبية على تلقيبه بخطيب الشرق ، فهو أول شرقى وقف المواقف الهائلة وخصوصاً قبل الثورة العرابية ، إذ كان يستدعى بالتلغراف إلى الإسكندرية وسواها فيرتجل من حر القول البليغ القوى القويم الحجة ما يترك الألباب سكارى من غير مدام . . » .

قدر رجال الثورة العرابية للنديم هذه المواهب فضموه إليهم ، ليصبح أول عضو مدنى ينضم إلى منظمة الجيش ، وليصبح بعد ذلك خطيبها الرسمى والمتحدث بلسانها . وانطلق عبد الله النديم ينقد فى صراحة وجرأة تصرفات حكومة رياض ، وتصرفات الخديو ، وأخذ يطوف فى كل حفل ومجتمع يلقى الخطب الرنانة يدوى صداها فى البلاد . كان يخطب فى كل مكان ، فى الأزهر وطلبته ، والجيش وجنوده ، وفى حفلات الزفاف والأفراح ، فما يكون مجتمع لغرض من الأغراض إلا ويطلع عليهم عبد الله النديم وجماعة من تلاميذه المدربين يعتلون المكان العالى ، ويخطبون فى موضوعات الساعة . وكان يتنقل فى الأقاليم والبلاد يخطب ويخطب ، لا يكل ولا يمل ،

فساعد على تكوين رأى عام يؤمن بالحكم النيابى ويتطلع إلى الإصلاح .

وبتوجيه من عبد الله النديم كتب عرابى منشوراً يعلن فيه أن رجال الجيش يطالبون بإسقاط وزارة رياض وتشكيل مجلس نواب ، ويطلب إلى الأهالى أن يوكلوه ليكون نائباً عنهم فى المطالبة بذلك وتحقيق ما فيه مصلحة البلاد .

وقد جاء فى كتاب « الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث » أن عبد الله النديم « أخذ يجوب الأقاليم ويدعو الناس إلى نصرة زعماء العصابة . وكان عبد الله هذا قوى الحجة ، فصيح اللسان قوالاً ، سهل العبارات ، عذب المنطق ، مقلقاً مهيجاً بذلاقة لسانه وقوة حجته وبيانه . وقد عرف عادات البلاد وميول أهلها ، فطفق يجوب المدن والقرى يخطب فى الناس ويقص عليهم حديث أجدادهم وأخبارهم ، ويصعد على منابر الجوامع ويخطب جهاراً وعيناه تذرفان الدمع ، فافتتن الناس ، ومال إليه خلق كثير من الأعيان والوجهاء من كل صوب وحدب . وعاد إلى القاهرة وهو يحمل فى حقيبته عرائض موقعاً عليها من الأعيان والأهالى يؤيدون فيها عرابى ومطالبه ، فاتخذها عرابي دليلا على إنابة الأمة له » .

وجاءت إلى القاهرة فى إثر النديم وفود الأعيان والفلاحين لمبايعة عرابي ، فكان يستقبلهم فى منزله ، ويقف النديم فيلقى الخطب والقصائد الحماسية .

ولا نستطيع مع الأسف أن نرجع إلى خطب النديم لنحكم على قيمتها الفنية لأنها لم تكن تدون ، وإنما كان يلقيها ارتجالا فتفعل فعلها ولا يعنى أحد بتدوينها ولم ينشر منها إلا الشيء القليل فى المجلة التى كان يصدرها .

ثم كانت مظاهرة عرابي العسكرية فى ميدان عابدين ، وكان عبد الله النديم هو المدنى الوحيد الذى اشترك فى الزحف مع الجيش إلى قصر عابدين

لتقديم مطالب البلاد إلى الخديو باسم الشعب .

وأذعن الخديو، وقبل فى النهاية مطالب عرابى ، وسقطت وزارة رياض وأعلن عن قيام الحياة الدستورية وتهيأت البلاد لانتخاب مجلس النواب . وبعد أن هدأت الخواطر واطمأن الناس وصدر المرسوم بإجراء الانتخابات عاد رجال الجيش الثائرون إلى معسكراتهم ، واستجاب زعماؤهم للأوامر التى صدرت إليهم بالابتعاد عن القاهرة حتى لا يظن أنهم يتدخلون فى السياسة ، فسافر « عبد العال حلمى » على رأس الآلاى السودانى ليعسكر فى دمياط ، وتبعه « أحمد عرابى » على رأس فرقته ليعسكر فى رأس الوادى . واحتشدت الجماهير الغفيرة فى المحطة لتودع الثائرين ، ووقف خطيب الثورة عبد الله النديم يخطب مرتجلاً موجهاً خطابه إلى الضباط والجنود يوم سفر عبد العال حلمى فيقول :

حماة البلاد وفرسانها .

إن من قرأ التاريخ وعلم ما توالى على مصر من الحوادث والكوارث أدرك مقدار ما وصلتم إليه من الشرف ، وما كتب لكم فى صفحات التاريخ من حسنات ، فقد ارتقيتم ذروة لم يسبقكم إليها سابق ، ولن يلحق بكم فى إدراكها لاحق ، ألا وهى حماية البلاد ، وحفظ العباد والضرب على يد الاستبداد ، فلكم الذكر الجميل ، والمجد الخالد ، يباهى بكم الحاضرون من أهلنا ، ويفاخر بأعمالكم الجيل الآتي من أبنائنا ، فقد أعدتم الروح إلى الوطن بعد أن بلغت الروح التراقى .

وفى يوم سفر « عرابى » طلبت الجماهير المحتشدة فى ميدان المحطة أن تسمع كلمة من « خطيب الثورة » فوقف النديم على مرتفع وقال :

ـسادتى وإخوانى :

أرونى أمة بلغت منـــاها بغير العلم أو حد اليمانى

قضت علينا الشقوة بأن نعيش فى زمن الخسف ، وعهد الاستعباد ، فرأينا المشنوق من أهلنا ، وشاهدنا المذبوح والمحروق ، والموضوع على الخازوق والمسجون والمنفى والمنهوب . والمشرد والمغلوب والمسلوب ، ولا ذنب لنا فى هذا كله إلا أننا لم نحسن المحافظة على البلاد .

ثم رأينا تسليم أمور بلادنا إلى الأجنبى ، وإذلال الوطنى وضياع حقه وتركه فى زوايا الإهمال ، فسعينا إلى تحقيق الاتحاد وجمع القلوب ، حتى نهض الجيش فأعرب عما فى ضمائرنا ، ونادى جهاراً بحقوق الأمة ، فنحن الآن ننادى بصوت يسمعه القاصى والدانى : يموت الاستبداد وتعيش الحرية . ويعدم المستبد ويبقى جيش الحمية . . » .

ثم مضى يحثهم على الاتحاد والتمسك بالنظام والحكمة ، ويقول عن سفر « عرابى » .

هذا أخوكم الجليـــل ، السيف المجرد لحماية بلاده ، يودعكم . ويسافر إلى رأس الوادى ، لا بإكراه ولا إرغام ، ولكنه يسافر ليقطع ألسن الأعداء ، ويقضى على الأراجيف ، ويعلم الصديق والعدو أن الوطن فى هدوء عظيم ، وأن أهله فى طاعة لا يشو بها عصيان فاسألوا الله له ولإخوانه السلامة ، وكونوا مثلهم فى الاتحاد والوطنية ، فكلكم وطنى وإن اختلفت المقاصد وتباينت السبيل . . » .

ورافق النديم عرابي فى سفره ، وكان يخطب الجماهير التى تجمعت فى كل محطة على طول الطريق لاستقبال بطل الثورة .

وعندما أخذت البلاد تستعد للانتخابات ، قام النديم ينشر التوعية بين الشعب ، ويحذر الناس من سوء الاختيار ، ويدعو إلى حكم الشعب بواسطة ممثليه الذين يحسون بآلامه ، ويبشر بالديمقراطية الحقيقية .

وأصبح معروفاً أن عبد الله النديم هو المتحدث بلسان الثورة ، واتفق معه عرابي على أن تصبح جريدته هى اللسان الرسمى للحركة الثورية الجديدة . وهكذا تغير اسم « التنكيت والتبكيت » ليصبح « الطائف » ، التى صدر عددها الأول فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٨١ .

* * *

لا يتسع هذا المجال لتفصيل أسباب إخفاق الثورة العرابية ، وحسبنا أن نذكر أن الثورة قد أخفقت وانتهت بالهزيمة والاحتلال البريطاني فى عام ١٨٨٢ .

وكان عبد الله النديم إلى جوار عرابي خلال الحرب التى خاضها فى مواجهة القوات البريطانية الغازية ، ينظم الدعاية ، ويستنهض الهمم ، ويرسل الخطباء والعلماء إلى البلاد يحرضون الأهالى على الحرب وإمداد الجيش بالجنود والمؤن .

كان النديم خلال تلك الحرب حركة لا تهدأ ، وشعلة لا تخمد ، يجوب البلاد فيذكى الحماسة فى قلوب الشعب ، ويخطب فى المساجد والطرقات ، وفى الحقول والمجتمعات ، محرضاً على القتال دفاعاً عن الأرض والشرف والكرامة والدين . ولنسمع إليه يقول فى إحدى خطبه التى نشرها بعد ذلك فى جريدة الطائف فهى نموذج لمئات الخُطب التى كان يرتجلها فى تلك الأيام :

يا بنى مصر

هذه أيام النزال . هذه أيام النضال . هذه أيام الذود عن الحياض ، والدفاع عن الأعراض . هذه أيام يمتطى فيها بنو مصر صهوات الحماسة وغوارب الشجاعة لمحاربة عدو مصر ، بل عدو العرب ، لا بل عدو الإسلام ، الدولة الإنجليزية خذلها الله ورد كيدها فى نحرها .

يا أهل مصر . إنما آجال الناس محدودة ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ، فاخرجوا لحرب عدوكم ولا تخشوا الموت ، فلكل أجل كتاب .

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد

يا أهل مصر . . إن الإنجليز يقولون إن مصر هى حصن البلاد العربية ، من فتحها فقد أخذ بلاد المسلمين ، فهبوا للدفاع عن وطنكم ، الذى هو حصن البلاد الإسلامية كلها ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، لتحفظوا هذا الدين العظيم ، وتدفعوا عدواً يريد أن يدخل بخيله ورجله فى بلد الله ، يريد أن يدخل الكعبة المشرفة عن طريق بلادكم ، وقد استعان على أغراضه بالخديو الذى باع الأمة إرضاء للإنجليز » . .

بهذا الأسلوب كان عبد الله النديم يستثير الأهالى ويستنفرهم للحرب المقدسة ، مستغلا الشعور الدينى . ويقول الدكتور على الحديدى فى كتابه إن النديم لم يدرس فن الإعلام أو الدعاية ولكنه كان موهوباً فى هذا الاتجاه ، خبيراً بالشعور المصرى وحساسيته للكرامة والشرف والعرض والدين ، وبأن هذه هى مفاتيح الثورة عنده وأوتار إثارة الحقد والكراهية فضرب عليها وغنى بها .

وهزمت جيوش « عرابي » فى التل الكبير بتأثير الخيانة ، واستسلم قائد الثورة ورفاقه . وطغت على البلاد موجة من الانحلال الخلقى ، فحاول كثيرون من زعماء الحركة التنصل من تبعاتها ، وتحول كثيرون من دعاتها ؛ ولكن عبد الله النديم لم يستسلم ولم يتحول ، وآثر الاختفاء هرباً من المحاكمة والعقاب .

وطال اختفاؤه عشر سنوات ، أتعب فيها نفسه وأتعب السلطات التى أخفقت جهودها فى البحث عنه ، فوضعت مكافأة مالية كبيرة لمن يرشد عنه ، وأصدرت عليه حكما غيابياً بالنفى المؤبد من البلاد .

وتنقل النديم بين البلاد متنكراً فى كل زى ، مصطنعاً كل لهجة : منتحلا مختلف الشخصيات . وكانت له فى هذا الاختفاء حوادث عجيبة ، ونوادر غريبة ، تدل على براعته ولباقته وذكائه ، وتجعل حياته فى هذه الفترة أشبه بالقصص البوليسية المثيرة .

قال عن نفسه يصف هذه الفترة من حياته :

« خرجت من مصر مختفياً فدرت فى البلاد متنكراً ، أدخل كل بلدبلباس مخصوص ، وأتكلم فى كل قرية بلسان يوافق دعواى التى أدعيها ، من قولى إنى مغربى أو يمنى أو مدنى أو فيومى أو شرقاوى أو نجدى وأصلح لحيتى إصلاحاً يوافق هذه الدعوى فأطيلها فى مكان عند دعوى المشيخة ؛ وأقصرها فى آخر عند دعوى السياحة ، وأبيضها فى بلد ، وأحمرها فى قرية وأسودها فى عزبة . . إلخ » .

ولكن هذا الاختفاء كان نعمة عليه من ناحية أخرى ، فقد أتيح له فراغ كبير فشغل نفسه بالكتابة والتأليف . ولندع له الحديث عن نفسه .

فقد كتب لأحد أصدقائه في أثناء اختفائه يصف حاله في كتاب طويل مسجوع جاء فيه :

« إن سألت عني فأنا بخير وعافية ، وحالة رائقة صافية ، لا أشغل فكري بما يأتي به الليل إذا كنت بالنهار ، ولا أتعب ذهني بتوالي الخطوب والأكدار ولا أتألم من طول المدة ، ووقع الشدة ، لاعتقادي أن لكل شدة مدة ، متى انتهت جفت الأوحال ، وحسنت الحال ، فتراني فكري كليمي ، وقلمي نديمي تارة أشتغل بكتابة فصول ، في علم الأصول ، وحيناً أشتغل بنظم فرائد في صورة قصائد ، ووقتاً أكتب رسائل مؤتلفة ، في فنون مختلفة ، وآونة أكتب في التصرف والسلوك وسير الأخبار والملوك ، وزمناً أكتب في العادات والأخلاق وجغرافية الآفاق ، ومرة أطوف الأكوان ، على سفينة تاريخ الزمان . وقد تم لي الآن عشرون مؤلفاً بين صغير وكبير . . . »

وظل هذا الخطيب الثائر على إيمانه الوثيق بقضية بلاده ، وبالرسالة الثورية التي نذر لها نفسه ، ووقف عليها جهوده وحياته . وبرغم ما كان يقاسيه من متاعب وعذاب في وحدته واختفائه الذي طال ، فقد ظل فؤاده يهفو نحو « سيلان » الجزيرة النائية التي نفي إليها « عرابي » وزملاؤه ، واستمر يمارس مهمته كداعية لعرابي ومستشار له يكتب إليه الرسائل بإمضاء مستعار يحاول بها رفع روحه المعنوي ، ناقلاً إليه الأمل في أن تثور الأمة على الاحتلال وتدعوه لقيادتها من جديد .

قال له النديم في رسالة طويلة يلتمس له العذر في الهزيمة :

« قد تكون الهزيمة لتقوية العزيمة ، وزيادة الاستبصار في الأحزاب والأنصار ، وما علينا في هزيمتنا بفعل الخائنين عار » .

ويقول له :

« لقد بعث نفسك لله ، لا للمظهر والجاه ، وقام معك الأمراء والقادة ، والعلماء والسادة ، وقام أخوك النديم ينادى بلسانك ، ويترجم عن جنانك فسرى صوتنا فى البلاد ، وتنبه الناس من الرقاد ، وتبعنا من الوطن أمشاج ، وتواردت علينا زمر وأفواج ، فكان لفيفنا العجيب ، على هذا الترتيب :

مخلص أدرك ما قصدنا ، فقام يرصد ما رصدنا .

ومتردد حائر ، مع النوازل دائر .

ومذبذب إن عظمت اللأواء ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

ومنافق ينقل عنا وإلينا ، ويحمل معنا وعلينا ، وعدو ينسب إلينا البدعة وينصب لنا شرك الخدعة . . إلخ » .

ويشرح له فى رسالة أخرى حب الشعب له فيقول :

« وقد زاد محبوك ، ممن كانوا أبغضوك عندما رأوا فساد أحوالهم ، وانعكاس آمالهم ، فهم أشد شوقاً إليك ممن كانوا يجتمعون إليك . وإذا أتى منك كتاب إلى بعض الأحباب ، دار به على الإخوان ، وهو فرحان ، فأنت فى مصر وإن كان جسمك فى سيلان ، فذكرك فى الألسن ورسمك فى الأعيان . . »

وعندما دب الخلاف بين زعماء الثورة فى المنفى ، واستفحل هذا الخلاف حتى قاطع بعضهم بعضاً وتراشقوا بالتهم ، وعلمت بأمره صحف الاستعمار فأخذت تهاجمهم وتتهمهم بأنهم لم يستهدفوا بثورتهم مصلحة الوطن وإنما أرادوا تحقيق أطماعهم الشخصية ، انزعج النديم واستولى عليه الحزن ، وكتب إليهم من مخبئه رسالة شهيرة جاء فيها :

« إذا لم تكن عهودكم وثيقة ، ورابطة جمعكم أنيقة ، وعدتم إلى الديار ، على التباعد والنفار ، ساءت بكم الظنون ، ومالت عنكم القلوب والعيون ، وصرتم عرضة للدسائس ، ومرجعاً لأهل الخسائس ، وذكركم المؤرخون بالنقائص وجردوكم من الفضل والخصائص ، وأنكرت أوربا دعوتكم الوطنية ، ورماكم عدوكم متبجحاً بتهمة الهمجية . فارجعوا إلى الإخاء والحق ، والتزموا فى المودة والصدق ، ولا تسودوا وجوهنا بين أهل مصر ، ولا تخجلونا أمام نبهاء العصر. إلخ » .

وبينما كان عبد الله النديم فى قرية « الجميزة » مركز السنطة ، تعرف عليه شرطى سابق فوشى به طمعاً فى المكافأة ، فقبض على النديم فى ٢ أكتوبر ١٨٩١ ونقل إلى السنطة ومنها إلى طنطا حيث حقق معه رئيس نيابتها « قاسم أمين » الذى أحسن معاملته وعرف له قدره .

وكان للقبض على النديم دوى أعاد إلى الأذهان ذكرى الثورة وأحداثها وأثار الجدل فى الصحف ودوائر الحكومة ، وانتهى الأمر بالعفو عنه مع نفيه من مصر إلى الجهة التى يريدها ، فاختار « يافا » لإقامته .

* * *

ولم يطل بقاء النديم بالمنفى ، فقد توفى الخديو توفيق ليخلفه ابنه « عباس » ، فعفا عنه وسمح له بالعودة إلى مصر عام ١٨٩٢ .

وعاد النديم ليرى كل شىء فى وطنه وقد تغير بفعل الاحتلال الذى كان قد مضى عليه عشر سنوات . لقد استسلم الجميع ، وران اليأس على القلوب ، ولكن الثائر العظيم لم يستسلم ولم ييأس . وكانت عودته مشروطة بعدم اشتغاله بالسياسة ، فاتجه إلى الشباب من الجيل الجديد ، يبث فيهم دعوته

كلما لقيهم، ويزودهم بنصائحه . وفى منزل لطيف سليم باشا قابل « مصطفى كامل » الطالب الشاب المتحمس ، فتوسم فيه الخير ، وخصه بالعناية والتوجيه .

ثم أصدر النديم مجلة « الأستاذ » وحصل على الترخيص باسم أخيه عبد الفتاح وأعلن أنها جريدة علمية فكاهية تهذيبية لا تتعرض للسياسة .

وبدأ النديم ينقد العيوب الاجتماعية فى مجلته الجديدة ، ثم تدرج فاتهم الأوربيين بتشجيع هذه العيوب حتى تنحل أخلاق الشرق . وانتشرت « الأستاذ » حتى أصبحت منافساً خطراً لجريدة « المقطم » التى كانت تحظى برعاية السلطات الإنجليزية والمصرية ، فأخذت « المقطم » تهاجم النديم وتتهمه بأنه يهدف بمقالاته الاجتماعية إلى غرض سياسى .

وبدأ صوت النديم يعلو شيئاً فشيئاً ، ويخوض فى أحاديث السياسة صراحة مناصراً للخديو عباس ، مناهضاً للاحتلال . ثم أخذ ينقد السياسة البريطانية فى مصر والهند بصراحة وجرأة ، فطلب اللورد « كرومر » نفيه من البلاد ، فأجيب إلى طلبه .

وودع عبد الله النديم قراءه فى آخر عدد من « الأستاذ » دون أن يذكر السبب الحقيقى ، وختم وداعه قائلاً :

أودعكم والله يعلم أننى ... أحب لقاكم والخلود إليكم
وما عن قلى كان الرحيل وإنما ... دواع تعدت فالسلام عليكم

وخرج النديم إلى « يافا » فى منتصف يونية ١٨٩٣ ، ثم انتهى به الأمر إلى الآستانة حيث أمر السلطان عبد الحميد بتعيينه مفتشاً للمطبوعات بالباب العالى جرياً على سياسته فى إرضاء أمثال جمال الدين الأفغاني والنديم

من الناقمين الأحرار .

ودخل الثائر العظيم القفص الذهبي مع أستاذه القديم ، ليكون تحت أعين جواسيس السلطان ، وليعيش حياة هادئة ، لا عزاء له فيها إلا صحبته الدائمة للأفغاني .

ولكن هذه الحياة لم تطل ، فقد أصيب بالسل ، ومات فى العاشر من أكتوبر ١٨٩٦ وكان قد بلغ الرابعة والخمسين من عمره .

* * *

كان عبد الله نديم كاتباً اتجه إلى بساطة الأسلوب وسهولة التعبير فى مقالاته السياسية والاجتماعية ، وكانت له مؤلفات كثيرة ، فقد ذكر « أحمد سمير » فى ترجمته أن له من المؤلفات ما يعد بالمئات ، ولكن معظمها ضاع فى أثناء اختفائه أو حجز بالآستانة . وكان شاعراً له ديوانا شعر يشتملان على أكثر من سبعة آلاف بيت . وكانت له آراء قيمة فى السياسة والاجتماع . وكانت له كلمات يرسلها فتجرى أمثالا . ومن كلماته قوله :

« دولة بلا قانون فوضى وإن كثر الرعاة » .

وقوله :

« مملكة يسوسها غارق فى الشهوات مقبرة تزار ولا تسكن » .

وقوله :

« إذا ساعدت الأجنبى على أخذ بلادك فلا تغضب إذا نام فى فراشك »

وقوله :

« إذا اختلفت الأحزاب فكن مع أحفظها لوطنك » .

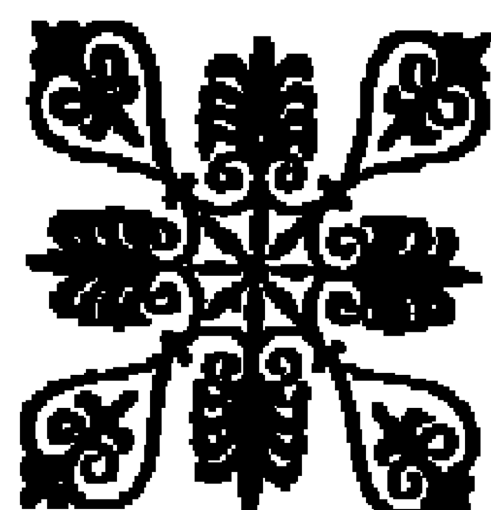
ولكن عبد الله نديم كان قبل كل شيء ، وبعد كل شيء ، خطيباً عظيماً .

قال عنه أحمد تيمور باشا :

« كان شهي الحديث ، حلو الفكاهة ، إذا أوجز ود المحدث أنه لم يوجز ، لقيته مرة فى آخر إقاماته بمصر ، فرأيت رجلا فى ذكاء إياس ، وفصاحة سحبان وقبح الجاحظ ، أما شعره فأقل من نثره ، ونثره أقل من لسانه ، ولسانه الغاية القصوى فى عصرنا هذا .

مصطفى كامل

« أريد أن أوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة »
مصطفى كامل



مصطفى كامل

شاب نحيل الجسم ، مشبوب العاطفة ، مضطرم الخيال ، يحلم بتحرير بلاده من الاحتلال الأجنبي ، فيهب وحده بغير حزب يؤيده ، أو جاه يسنده ، أو مال يعتمد عليه ، يصرخ فى وجه أعظم إمبراطورية لا تغيب الشمس عن أملاكها مطالباً بحقوق بلاده ، فيفيق مواطنوه فى دهشة على هذا الصوت الذى ارتفع بينهم وكأنما هو صوت المؤذن يسرى فى هدأة الفجر يوقظ النيام ، ويبعث فى النفوس الأمل ، فتشتعل من جديد جذوة الوطنية فى القلوب الهامدة ، ثم يقضى فى عمر الزهور وقد بعث فى قومه نهضة جديدة ، وترك وراءه حزباً فتياً يحمل رسالته ، وشعباً قوياً يطالب بحقه فى الحرية والاستقلال .

ذلك هو الزعيم الشاب مصطفى كامل الذى ظهر فى فترة مظلمة من أتعس فترات التاريخ المصرى الحديث ، بعد إخفاق الثورة العرابية واحتلال بريطانيا لمصر ، فكانت حياته القصيرة إرهاصاً بهذا البعث الجديد لشعب كاد يدركه اليأس . وعندما مات مصطفى كامل فى الرابعة والثلاثين من عمره ، كانت تربة مصر تحتضن البذور التى ألقاها وتعهدها بكفاحه الرائع ، لتنمو بعد ذلك وتتمخض عن ثورة الشعب الكبرى بعد أحد عشر عاماً من وفاته .

وإذا كنا نتحدث هنا عند مصطفى كامل الخطيب ، فذلك لأن

الخطابة كانت وسيلته الكبرى لتحقيق رسالته الوطنية ، فقضى حياته يكتب ويخطب فى مصر وأوربا ، فهو بحق خطيب البعث الوطنى الجديد الذى صنع الفجر الأول لتاريخ حركتنا الوطنية الحديثة .

ولد مصطفى كامل عام ١٨٧٤ ، وكان أبوه « على أفندى محمد » مهندساً حربياً أحيل إلى المعاش ومصطفى فى الثالثة من عمره . ويروى « على فهمى كامل » شقيق مصطفى كامل أن أباه كان يجمعهم مساء كل يوم ليسمر معهم فيروى لهم قصص التاريخ وسير الأبطال الفاتحين ، وكان أخوه الطفل « مصطفى » أكثرهم شغفاً بسماع هذه السير .

وعندما بلغ « مصطفى » الثانية عشرة من عمره توفى أبوه ، فكفله أخوه الأكبر « حسين واصف » الذى أصبح بعد ذلك وزيراً للأشغال ، وأقام « مصطفى » فى منزل جده لأمه ، وأكمل دراسته الابتدائية فى مدرسة القربية ، ثم التحق بمدرسة « الخديوية » ليتلقى دراسته الثانوية .

وفى خلال دراسته الثانوية بدأت تظهر مواهبه الخطابية وميوله الوطنية ، فأنشأ « جمعية الصليبية الأدبية » نسبة إلى الحى الذى يسكنه ، وكانت تعقد اجتماعات أسبوعية يخطب فيها مصطفى كامل . ويقول على فهمى كامل : « كان يقف خطيباً فى الجمعية فى مساء كل جمعة مرتجلا ما تملى عليه البديهة الحاضرة فيملك الأسماع والقلوب . . »

وذهب على مبارك باشا ناظر المعارف لزيارة المدرسة الخديوية ، وسمع مصطفى كامل يتحدث ويخطب فأعجب به وقال له « إنك امرؤ القيس »

وكان « مصطفى » شجاعاً شديد الاعتزاز بكرامته ، يتصرف فى هذه السن المبكرة كرجل ناضج ، ويبتعد عن العبث المألوف ممن كان فى مثل

سنه ، ويشغل نفسه بالمسائل العامة ، ويتعمق دراسة تاريخ بلاده .

وعندما أتم « مصطفى » دراسته الثانوية وحصل على شهادة « البكالوريا » كتب إلى أخيه على فهمى الذى كان ضابطاً بالسودان يقول إنه قرر أن يدخل مدرسة الحقوق « لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم ، وأنت تعلم أننى أميل إليها كثيراً ، وعزمت كذلك على تأسيس جمعية أسميها « جمعية إحياء الوطن » . . .

وفى أكتوبر عام ١٨٩١ دخل مصطفى كامل مدرسة الحقوق وهو فى السابعة عشرة من عمره ، وهناك التقى بزميله فؤاد سليم وأصبحا صديقين . وصحبه فؤاد إلى منزل أبيه لطيف سليم باشا بسوق السلاح حيث كان يجتمع طائفة من أهل الرأى والفكر والأدب ، فكان يستمع إليهم « مصطفى » وهم يتدارسون أحوال البلاد ، ويفكر فيما يسمع ، ويشارك فى الحديث .

وفى العام الثانى من دراسته بالحقوق ، التحق بالدراسة المسائية فى مدرسة الحقوق الفرنسية ، فكان يجمع بين الدراستين ، وأصدر مجلة سماها « المدرسة » جعل شعارها عبارة « حبك مدرستك . . حبك أهلك ووطنك » ومضى ينشر فى جريدتى الأهرام والمؤيد مقالات وطنية ، ويحضر الاجتماعات فى ندوة لطيف باشا سليم . وفى خلال ذلك عاد عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية من منفاه عام ١٨٩٢ فاتصل به مصطفى كامل ، وسمع منه أسرار الثورة العرابية وأسباب فشلها ، وكان لهذه الأحاديث والتوجيهات أثرها فى أسلوب كفاح مصطفى كامل بعد ذلك .

وإن الإنسان ليعجب وهو يطالع ما كتب عن سيرة مصطفى كامل وأحواله خلال سنوات الدراسة . ذلك أنه يلمح كيف كان هذا الطالب

يعد نفسه لدوره المقبل ، ويتهيأ لحمل رسالته الوطنية ، وكأنما يحركه وحي خفي يناديه ويهتف به أن قم . . فإنك أنت الزعيم المنتظر . . !

وعندما أخفق « مصطفى » فى امتحان النقل إلى السنة الثالثة ، سافر إلى باريس ليكمل دراسة الحقوق ، ثم سافر إلى تولوز لكى يؤدى الامتحان النهائى مختصراً بذلك سنة أخرى من دراسته ، فحصل من جامعتها على إجازة الحقوق فى عام ١٨٩٤ .

وكتب على الفور إلى أخيه على فهمى يقول :

« عولت بمشيئة الله على الانتظام فى سلك رجال المحاماة ، لأدافع عن حقوق الأفراد ، ولو أتيح لى الخير ، وبلغت ما أتمنى ، لكنت المدافع عن حقوق الأمة بأسرها أمام العالم أجمع ، لأن مصر وهى جنة الدنيا ، لا تستحق أن يداس شرفها بالأقدام ، ونصبح فيها نحن أبناءها الأعزاء ، ممقوتين غرباء . . . » .

ولكن مصطفى كامل لم يحترف المحاماة ، ولم يترافع فى قضية فرد أبداً ، وقرر منذ اللحظة الأولى أن يقف حياته كلها على المرافعة فى قضية واحدة ، هى قضية مصر .

ويروى أخوه على فهمى أنه عندما عاد إلى مصر أحضر معه صندوقين كبيرين مملوءين بالكتب والوثائق المتعلقة بالمسألة المصرية ، وأنه عكف على دراستها وتلخيصها وكأنه يستعد للمرافعة فى قضية كبرى .

* * *

عندما نهض مصطفى كامل برسالته ، كان الاحتلال البريطانى قد مضى عليه أكثر من عشر سنوات ، وكان اليأس قد ران على النفوس بعد إخفاق

الثورة العرابية واستسلام زعمائها ، وانصرف الناس إلى رعاية مصالحهم الخاصة ، والتمس الكثيرون رضاء المحتل ليضمنوا المنصب والجاه .

وكانت هناك مع ذلك قلة من أهل الرأى تفكر فى الحالة التى وصلت إليها البلاد ، ويجتمع بعضهم للتشاور وتبادل الرأى . كان لطيف باشا سليم مثلاً يرى كما يقول على فهمى كامل « إنه لابد من تكوين حزب منظم يعمل لصالح البلاد ويدافع عن حقها وكرامتها . . . » .

ولكن هذا الحزب ظل فكرة تراود لطيف سليم وأصحابه ، واقتصرت جهودهم على الاجتماعات والندوات يعقدونها فى الغرف المقفلة ، وهى الندوات التى كان يحضرها مصطفى كامل منذ كان يدرس الحقوق ، ولا شك أن ما سمعه فيها كان له أثره فى تحديد اتجاهه وأسلوب كفاحه .

ويقول الأستاذ فتحى رضوان فى رسالته عن مصطفى كامل إنه يمكن تقسيم المصريين بعد محنة الاحتلال إلى ثلاث طوائف . طائفة كانت ترى المقاومة والنضال ولكنها تتساءل كيف نقاوم ، وبماذا نقاوم . وطائفة ثانية اختارت الاستسلام وقبول الأمر الواقع والتعاون مع المحتل ، ويمثلها مصطفى فهمى ومحمد رياض . أما الطائفة الثالثة ، طائفة المعتدلين ، فكانت ترى من الخير أن تتوسط « فنصادق الأقوياء ونتعلم منهم ونحاكيهم ثم ننافسهم عسانا نستعيد ما فقدنا . . . وكان الشيخ محمد عبده رمز هذه الطائفة .

أما الطائفة الأولى ، طائفة المقاومة والنضال ، طائفة الفطرة السليمة والغريزة التى لم يفسدها اليأس فقد وجدت لسانها وقلبها فى مصطفى كامل . . . »

والواقع أن مصطفى كامل لم يتردد فى اختيار طريقه ، فقرر أن يجهر

بحق بلاده فى الحرية والاستقلال ، وأن يحول الأصوات الهامسة إلى زئير فى وجه الاحتلال وأن يطالب بريطانيا علناً وبأعلى صوت بالجلاء عن مصر ، وأن يقف حياته وجهوده كلها على تحقيق هذا الهدف العظيم .

ورأى أن السبيل إلى تحقيق ذلك تبدأ بمحاربة اليأس ، واستنهاض الهمم ونشر الدعوة الوطنية بين المصريين ؛ وتحريك أشواقهم إلى الحرية وإثارة كبريائهم الوطنى ، وبث الإيمان فى نفوسهم بقدرتهم على نيل حقوقهم واستعادة أمجادهم . وبذلك يخلق رأياً وطنياً عاماً يلتف حول مبادئه وينادى بها ويجاهد لتحقيقها .

وكان يرى فى نفس الوقت أن ينشر الدعوة لقضية مصر فى الخارج ، وبذلك يشرح المسألة المصرية للرأى العام الأوربى ، ويحمل الدول الأوربية على الاهتمام بها ومساعدة مصر على تحقيق أمانيها المشروعة .

وهكذا حدد مصطفى كامل طريقه وعرف دوره .

إنه دور الداعية للحركة الوطنية فى داخل بلاده وخارجها .

أما فى الداخل فقد كان عليه كما يقول الأستاذ فتحي رضوان أن يثير الروح الوطنى القائم ، وذلك بتثبيت العقيدة ، وتحريك الإيمان ، وبعث الثقة بالنفس وإيقاظ الأمل ، ثم مخاصمة العدو ، ومنازلته وعدم مسالمته أو مهادنته .

وأما فى الخارج فكان يهدف إلى بيان عدم شرعية الاحتلال ويريد أن يفضح كذب بريطانيا فى وعودها المتكررة بالجلاء ، ويثبت أحقية المصريين فى الحرية وجدارتهم بحكم أنفسهم ، ويوضح أن مصالح

الدول المختلفة فى مصر تقضى عليها بمساعدة المصريين للتخلص من الاستعمار البريطانى .

وكانت الخطابة والكتابة وسيلته وعدته الكبرى فى الجهاد الشاق . الذى وهب له حياته .

كان مصطفى كامل خطيباً موهوباً منذ صباه .

والخطابة موهبة طبيعية ، واستعداد فطرى ينمو ويصقل بالتجربة والممارسة والمران .

وقد روى أخوه على فهمى كامل فى كتابه أن نظارة المعارف أقامت حفلاً لتوزيع الجوائز على الطلبة المتقدمين عندما كان « مصطفى » تلميذاً فى مدرسة القربية الابتدائية ، وكان مصطفى هو الفائز بالجائزة من تلاميذ تلك المدرسة .

وحضر الخديو توفيق حفل توزيع الجوائز فلما جاء دور مصطفى لتسلم جائزته ، ألقى خطبة أثارت تصفيق الحاضرين وإعجاب الخديو الذى سأله عن اسمه فأجابه :

– اسمى مصطفى كامل .

فهمس فى أذنه ضابط المدرسة :

– قل عبد سموكم مصطفى كامل .

ولكن مصطفى أعرض عنه ، وسأله الخديو عن عمره ، ثم عن اسم أبيه فقال :

– المرحوم على أفندى محمد المهندس .

فعاد الضابط المذعور يهمس فى أذنه :

– قل عبد سموكم . . .

ولكن الصبي لم يفعل ، وقال له الخديو :

– فتح الله عليك .

– شكراً للأمير المعظم .

وبعد انتهاء الحفل قال مصطفى للضابط :

– ما كنت عبداً وما كان أبى عبداً لأحد ، ولو أجبت بغير الواقع لكنت كاذباً . .

وهذه القصة تبين أن مصطفى لم يكن منذ صباه الباكر يهاب مواجهة الجموع والتحدث إليها ، فما بالك بمواجهة أمير البلاد فى حفل عام ، والتحدث إليه بشجاعة تأبى النفاق وتنم عن اعتزاز بالنفس وتمسك بالكبرياء .

وفى المدرسة الثانوية أنشأ مصطفى كامل « جمعية الصليبية الأدبية » وكان يخطب فى اجتماعاتها الأسبوعية وفى غيرها من الجمعيات . ولا شك أن نشاطه الخطابى فى هذه الجمعيات قد أفاده ، وهيأ له الممارسة العملية لمواهبه ، وأكد ثقته فى نفسه كخطيب .

ومما يروى أن على مبارك باشا ناظر المعارف زار المدرسة الخديوية ودخل فصل مصطفى ، وطلب من المدرس أن يدله على أقدر التلاميذ فى كتابة الإنشاء فأشار إلى مصطفى كامل ، فطلب منه الوزير أن يرتجل خطبة فيما يريد أن يصنع بعد نيله شهادة الدراسة الثانوية ، فوقف مصطفى وارتجل كلمة ، كان مما قاله فيها :

– ولقد علمت من أحاديث المرحوم أبى ، ودروس أستاذنا الفاضل

معلم التــاريخ ، أن أعظم الرجال شأناً من يحرر بلاده وينقــذ أمته من ربقة الذل والاستعباد ، وسوف أحاول أن أكون ذلك المحرر الذى يخطب ويكتب ويضرب الأمثال ، مبشراً بما فى الحرية من العزة والحياة ، ومنذراً بما فى الذل من الموت والصغار ، وأرجو الله تعالت حكمته ، وجلت قدرته ، أن يوفقنى إلى ذلك . . . .

هذه هى إرهاصات الزعامة وبشائر الخطيب الكبير .

تلميذ فى المدرسة الثانوية يسأله الوزير عن المهنة التى يريد اختيارها بعد انتهاء دراسته ، فلا يفكر فى اختيار مهنة الطب أو الهندسة أو المحاماة ، ولكنه يقول بداهة إنه يريد أن يكون المحرر لبلاده من الاستبعاد . . . !

ويقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعى :

– يجدر بنا أن نتساءل من أين جاءت مصطفى كامل هذه الروح الوطنية فى عصر اكتنفته عوامل اليأس والقنوط ، وكيف نهض وحده وهو فى هذه السن المبكرة ؟ لا تعليل لهذه النشأة إلا أنها قبس من نور العبقرية ، وقد اتجهت هذه العبقرية إلى إحياء الوطن ، وبعث الحركة القومية من مرقدها ، ومن مداد هذه العبقرية خط التاريخ دوراً عظيماً من أدوارها ، وكان مصطفى منشئ هذا الدور ، إذ نفخ فى الأمة من روحه . . . إلخ .

وفى مدرسة الحقوق انفسح أمامه مجال الكتابة والخطابة ، فكان ينشر المقالات فى جريدتى الأهرام والمؤيد ، وأنشأ مجلة « المدرسة » ، ومارس نشاطه الخطابى فى الجمعيات التى كان على صلة بها ، وفى مدرسة الحقوق التى كان من زعمائها . ولمــا زار الخديو عباس الثانى

المدرسة خطب أمامه وألقى قصيدة من نظمه . وقد رأينا كيف سلح نفسه بعد عودته من فرنسا بدراسة الكتب والوثائق التى تتعلق بالقضية التى وهب حياته للدفاع عنها ، واستكمل بذلك عدته كخطيب . فأى نوع من الخطباء كان مصطفى كامل ؟

إن الذين كتبوا عنه من مؤرخيه أو معاصريه الذين سمعوه على المنبر لم يهتموا كثيراً بتحديد شخصيته وملامحه الخطابية ، ولم يصفوه إلا بعبارات عامة مبهمة تدل على إعجابهم ، ولكنها لا تكفى لإعطاء صورة حية لمصطفى كامل على المنبر ، قال الأستاذ عبد الرحمن الرافعى فى كتابه :

– هو أعظم خطيب أنجبته مصر الحديثة ، وأول خطيب سياسى جهر بالاستقلال فى عهد الاحتلال ، وأول زعيم اتخذ الخطابة وسيلة لبعث الحركة الوطنية ، ولا شك أن الحركة الوطنية مدينة لخطبه الجليلة الرائعة بتطورها واتساع مداها ، وكانت هذه الخطب من الحوادث الهامة فى تاريخ الحركة القومية . كان خطيباً مفوهاً يجيد الخطابة باللغتين العربية والفرنسية . والخطابة بعد الوطنية ، كانت أبرز الجوانب فى شخصيته . كان إذا جلس فى محفل وتكلم مع الحاضرين يدوى صوته كأنه يلقى على السامعين خطبة من خطبه الرنانة ، وكان جهورى الصوت يتكلم من أعماق قلبه المملوء يقيناً وإيماناً ، وكان له سلطان روحى على من حوله من السامعين .

ويقول الأستاذ فتحى رضوان :

– لقد أتاح الله لمصطفى كامل خيالاً ولساناً وقلماً وهمة جعلته الداعية القوى للوطنية المصرية فى أوائل القرن العشرين .

وكتب الأستاذ محمد مسعود فى الكلمة التى قدم بها كتاب « مصر والاحتلال الإنجليزى » الذي نشر فى عام ١٨٩٦ وكان يضم أعمال مصطفى كامل وخطبه ومقالاته وأحاديثه فى العام الأول من جهاده :

– إذا ارتقى المنبر ذلل له القول ، وسخر له الخطاب ، وتابعه الكلام متفق القرائن ، مطرد السياق : حتى يستميل إليه القلوب النافرة ، ويرد الأهواء الشاردة .

والواقع أن مصطفى كامل كان يملك كل ما يحتاج إليه الخطيب العظيم .

شاب متوسط القامة ، رشيق القوام ، بهى الطلعة ، له وجه نبيل يوحى بالثقة ، وعينان جميلتان تفيضان بالحيوية ، ينبعث منهما بريق هادئ يجذبك إليه ، وشارب طويل رقيق مفتول الطرفين كأنه علامة مميزة تشير إلى أن لصاحبه من الرجولة والنضج ما يعلو سنه . لا تكاد تجلس إليه حتى تشعر أنك أمام شخص صريح مستقيم الخلق ، واثق بنفسه فى غير غرور ، يتقد ذكاء وكبرياء .

وصوت قوى له جرس ورنين ، واضح النبرات ، فيه عذوبة ورقة ، يعرف كيف يلونه عند الخطابة . كان يبدأ كلامه بصوت هادئ فيسترعى الانتباه وتتعلق الأسماع بشفتيه ، ثم يرتفع شيئاً فشيئاً حتى تغمر نبراته الحلوة الرنانة أرجاء المكان .

وصفته إحدى الصحف الأجنبية التى كانت تصدر بالإسكندرية وهى تعلق على خطاب ألقاه عام ١٨٩٧ بمسرح زيزينيا فقالت :

– أما صوته فحسن جهورى ، ذو رنة قوية ، ولذلك كان يسمع

من كل أرجاء المسرح ، حتى استطاع كل من كان حاضراً ضمن هذا الجمع الحاشد أن يستوعب كل أقوال الخطيب ، التي كان يلقيها بعبارات فصيحة خالية من شوائب التعقيد » .

وكان مصطفى كامل أنيق الملبس ، حسن الهندام ، وكان من عاداته إذا ذهب للخطابة فى اجتماع كبير من الاجتماعات التى كان يدعو إليها فى المسارح وغيرها ، أن يرتدى « الردنجوت » فكانت أناقته تؤكد مظهره الوسيم النبيل .

ولقد قيل إن مصطفى كامل لم يكن يرتجل خطبه ، والواقع أنه كان خطيباً مطبوعاً قديراً على الارتجال ، وله خطب مرتجلة فى مناسبات كثيرة ، ارتجلها بالعربية والفرنسية تؤكد أصالته الخطابية .

ولكنه فى المناسبات الكبرى ، عندما كان يدعو لعقد اجتماع لسماع إحدى خطبه ، كان يكتب خطبته كاملة ، ثم يستوعبها فى ذاكرته القوية ، حتى إذا وقف على المنبر كان مالكاً لعناصر الموضوع ، مطمئناً إلى المرجع أمامه ، ثم ينطلق فى خطبته لا يكاد يعود إلى الورق الذى أعده ، تسعفه ذاكرته المدهشة ، وطبعه الفياض ، ووضوح الفكرة فى نفسه ، وقدرته الفائقة على التعبير .

وكان يخطب بأعصاب هادئة ، ويؤكد كلامه أحياناً بالإشارة الرشيقة ، ولم يكن مع ذلك كثير الحركة على المنبر ، وإنما هى يده يرفعها أو ينزل بها مشيراً بسبابته فى موضع التوكيد .

أما أسلوبه الخطابى فكان أسلوباً قوياً متدفقاً خالياً من زخارف الصناعة اللفظية . فأنت تقرأ خطب مصطفى كامل فلا تجد فيها سجعة

مفتعلة أو عبارة طنانة مبتذلة ، وهى مع ذلك نموذج رائع لما يمكن أن يقوله الخطيب فى مثل ظروفه . كان يحاول بعث الروح الوطنى ، وتعميق الشعور بحب مصر ، وتجميع الجهود لنوع من الثورة السلمية تطالب بالجلاء وتسعى لتحقيقه بالطرق المشروعة . كان يحاول ذلك فى مواجهة قوى عاتية تتربص به ، وتحاول النيل منه وتشويه حركته واتهامه بالتعصب الديني والتحريض على كراهية الأجانب وإثارة الفتنة والسعي لتكرار مأساة الثورة العرابية .

ولهذا كان عليه أن يتكلم فى خطبه بحماسة الزعيم وكياسة السياسى الحذر ، فلا يطلق العنان للعبارات الحماسية الجامحة ، بل يحكم لسانه بعقله الذكى ووعيه المسئول .

وليس معنى هذا أنه كان يخشى مواجهة الاحتلال بصراحة ، فقد كان يفعل ذلك بشجاعة لا تهاب شيئاً ، ولكنه كان يتحرز أن يتمسك عليه أعداؤه بشيء يسيئون به إلى الحركة الوطنية التى يتزعمها .

وكانت خطبه سهلة خالية من التعقيد لأنها صادرة من قلب يؤمن بما يقول فتجد طريقها مباشرة إلى قلوب سامعيه ، حاملة الحجة الدامغة ، والمنطق السليم ، والشعور الصادق .

وبنفس هذا الأسلوب البليغ كان يخطب بالفرنسية التى أتقنها فينتزع إعجاب من يسمعه من الأجانب فى مصر وأوربا .

* * *

ومهما حاولنا أن ننقل شيئاً من مواقف مصطفى كامل الخطابية ، فلن نستطيع أن ننقل للقارئ تلك الحياة الزاخرة التى كانت تنبعث منها وهو

يلقيها أمام جمهوره ، ولسوف تظل مجرد كلمات جامدة على الورق بعد أن فقدت تلك النبرات الرنانة التي كانت تبهر ، والنغمات الحلوة التي كانت تسحر ، والنظرات التي كانت تشع ناراً ونوراً ، وبعد أن سقط حجاب الزمن بيننا وبين الخطيب ومنصته ، والزعيم وحماسته ، ولم يبق لنا إلا النصوص تتراءى من خلال سطورها أطياف شاحبة لمظاهر عظمة الخطيب .

لم يكد مصطفى كامل ينتهي من دراسته بفرنسا حتى تفرغ على الفور لرسالته الوطنية الكبرى ، فعاد إلى فرنسا فى العام التالى ليدعو لقضية بلاده فى الخارج ، وقدم عريضته المصورة الشهيرة إلى مجلس النواب الفرنسى ، وأدلى بحديث سياسى إلى جريدة « الجورنال » ، ثم عقد اجتماعاً فى جامعة تولوز وألقى خطبة بالفرنسية شرح فيها قضية مصر واعتداء بريطانيا عليها ووعودها المتكررة بالجلاء ، وطالب فرنسا ودول أوربا بمساعدة بلاده لاسترداد استقلالها ، ثم نشر رسالة ضافية عن « أخطار الاحتلال البريطانى » وسعى مصطفى كامل إلى التعرف بمدام جوليت آدم ، فكتب لها رسالة جاء فيها :

– إننى لا أزال صغيراً ، ولكن لى آمالا كباراً ، فإنى أريد أن أوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة . هم يقولون إن وطنى لا وجود له ، وأنا أقول يا سيدتى إنه موجود ، وأشعر بوجوده بما آنس له فى نفسى من الحب الشديد الذى سوف يتغلب على كل حب سواه ، وسأجود فى سبيله بجميع قواى ، وأفديه بشبابى ، وأجعل حياتى وقفاً عليه . . . . »

يالها من رسالة تلخص برنامج مصطفى كامل وحياته كلها . . !

إنه يريد أن يوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة .

وسوف يجود بقواه كلها فى سبيل وطنه ويفديه بشبابه ، هذا الوطن الذى يحبه حباً شديداً سوف يتغلب على كل حب سواه .

وقد بر مصطفى بوعده ، ووفى بعهده ، فوقف حياته كلها على الجهاد لبعث وطنه . وطوى قلبه على حب مصر وحدها ، وعاش بغير زوجة تخفف عنه متاعب الكفاح ، ثم سقط كما يسقط الجندى فى الميدان فذهب شهيداً فى عمر الزهور .

كانت خطبه التى يلقيها فى مصر تهدف إلى تحقيق أغراض كثيرة . كان يريد أن يوقظ فى قلوب مواطنيه حب بلادهم حتى يتعلقوا بها ويجاهدوا لتخليصها من ذل الاحتلال . فهو يقول فى أول خطبة سياسية له بمصر ، ألقاها فى ٣ مارس ١٨٩٦ بالمسرح العباسى بالإسكندرية :

— ألا تحبون مصر التى خيم عليها الشقاء ، وحل بها البلاء ، تناديكم وأنتم حولها « ألا فانصروني يا أعز البنين ، ألا فارفعوا شأنى بين الأمم ، واجعلوا لى مكانا فسيحاً بين الشعوب الحية » . أجل . . إنكم تحبونها ، ويجب أن تحبوها وتحنوا عليها كما يحنو المرء على أمه إذا اعتلت ، ويسعى فى خدمتها ويبحث عن دوائها .

ولا يكن حبكم وقفاً عند الحب ، بل لتتجاوزوا ذلك إلى العمل لخيرها وإعلاء شأنها .

وإن يوماً تجتمع فيه قلوبنا على محبة بلادنا وخدمتها ، لهو يوم تحقيق الآمال ، وعندئذ يحق لنا أن نقف أمام الأمم كافة وننادى بأعلى صوتنا وبكل فخار : نحن بنو مصر الأحرار .

وفى خطبة أخرى له يتحدث عن مصر حديث العاشق الولهان فيقول :

– يقول الجهلاء إنى متهور فى حبها ، وهل يستطيع مصرى أن يتهور فى حب مصر ؟ إنه مهما أحبها فلن يبلغ الدرجة التى يدعو إليها جمالها وجلالها وتاريخها والعظمة اللائقة بها .

ألا أيها اللائمون انظروها وتأملوها وطوفوا بها ، واقرأوا صحف ماضيها واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض ، هل خلق الله وطناً أعلى مقاماً ، وأسمى شأناً ، وأجمل طبيعة ، وأجل آثاراً ، وأغنى تربة ، وأصفى سماء ، وأعذب ماء ، وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز ؟ اسألوا العالم كله يجبكم بصوت واحد إن مصر جنة الدنيا ، وإن شعباً يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب إذا أعزها ، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه إذا تسامح فى حقها .

إنى لو لم أولد مصرياً لوددت أن أكون مصرياً .

قد يرى السفهاء أن الانتساب لشعب مستعبد كالشعب المصرى مما لا يليق بإنسان ! ولكن أى شرف يطمع الحر فيه أكبر من العمل لإحياء الأمة التى سبقت الأمم كافة فى العلم والمدنية والأدب ؟ أى رفعة يسعى الشريف إليها أسمى من إنهاض شعب كان أستاذاً لشعوب البشرية ؟ أى سؤدد ترمى النفوس إليه أعلى من إخراج وطننا المصرى من الظلمات إلى النور وإحلاله المحل الأول بين الأوطان الأخرى التى كانت فى الدجنة الحالكة يوم كانت بلادنا مشرقاً للعرفان ؟ .

وفى الاحتفال بمرور مائة عام على ولاية « محمد على » يقول من خطبة طويلة :

– صبراً أيها الوطن المحبوب على بلواك ! فما ازدحم بنوك اليوم إلا

لينشدوا أكبر العصور وأعظم الأيام ، ويجمعوا أمرهم بينهم على إحيائها بالجد والعمل والوفاق والوئام . صبراً أيها الوطن العزيز صبراً ، فقد ناجت الضمائر وتفاهمت النفوس والخواطر ، وشعر كل مصرى بأنه الوارث لأفضل الأوطان وأعز البلدان .

ثم يقول مذكراً مواطنيه بالأمجاد الحربية التى حققها أجـــدادهم بقيادة إبراهيم باشا :

– ما هذا المجد الفخيم الذى يحدثنا عنه التاريخ ؟ أين ذلك المصرى الذى كان إذا جاب المدائن والممالك تحولت عن غيره الأنظار والتفتت إليه الشعوب بعيون الإعجاب والاعتبار ؟

أين ذلك الذى إذا فاخر القوم ببلادهم أعطى المقام الأول ونال الشرف الأعلى وعد وطنه فى مقدمة الأوطان ، ومصره فى الصف الأول من مصاف الأمصار والبلدان .

أين عصر نقل عنه الناقلون أن الدول غدرت بمصر وأحرقت أسطولها فى « نافارين » وأغرقت من بحارتها البواسل ستة آلاف ، وتقدم ضابط فرنسى بالخبر إلى إبراهيم باشا ، فهز رأسه ساخراً وقال « ما أنشئت السفن والبواخر إلا لتكون فريسة النار أو البحار ، فلست بآسف عليها ، وإن والذى لقادر على أن يجدد مثلها فى عام أو بعض عام » .

أين ذلك العهد البعيد ليتعزى به المصرى الحزين الأسيف ؟

أين هو ليبعث فى القلوب الميتة شيئاً من الحياة والقوة ، ويدل المصرى على حقيقة موقفه وقيمته ومكانته .

أين هو ليخطب فيكم بلسان الحال ، فيبلغ من نفوسكم مالا يبلغه لسان المقال » .

ثم مضى مصطفى كامل يحارب اليأس فى خطبه ، ويعمل على أن تثق الأمة بنفسها وبقدرتها على تحقيق آمالها فى الحرية والاستقلال . وكان يقول :

– إن ثقة الأمة بنفسها هى الأساس الذى يبنى عليه مجدها ويشاد عزها وسؤددها . ترى الأمة إذا اعتقدت الخير و القدرة فى مجموعها وأفرادها تغلبت على الحادثات والأيام ، وقهرت ألد أعدائها ، واختازت المصاعب غير هيابة ولا وجلة .

وكان شعاره الذى أطلقه فى هذا الشأن :

– لا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة .

ويقول فى إحدى خطبه :

– عجباً وألف مرة عجباً ! كيف تسىء الظن بنفسها أمة تغلبت على الأيام والحوادث ، وقاتلت الليالى وما ولدت ، وقاومت تيارات الزمان أجيالا طوالا ، وأوقفتها وهى فى منتهى قوتها . كيف يقول بعض أبناء هذه الأمة عنها إنها ماتت وزالت آثارها وأصبحت نسياً منسياً وهى التى اهتز لمجدها الشرق والغرب ، وسارت الركبان بأحاديث مفاخرها . كيف يقضى اليائسون عليها وقد كانت قبل عهد محمد على أكثر أدواء وأقل أملا فى الشفاء من الآن ثم عادت لها الحياة والقوة والجاه والعز ورفعة الشأن .

وفى أول خطبة له بالإسكندرية قال :

– إن فى مصر فئة من الناس نسيت أن الأمل داعى الأمل ، فلبست

ثياب اليأس ، وقضت بظنونها على مستقبل الوطن العزيز ، وجعلت مهمتها فى الأمة تثبيط الهمم وإقعاد العزائم ، فلا تنادى فى المحافل والأندية إلا بأنه ليس لمصر حظ فى المستقبل من الحرية والسعادة الاجتماعية ، وأن شعبها قد مات من زمن طويل .

وعندى أن الرجال اليائسين وإن كانوا أقل من القليل يضرون بلادهم أعظم الضرر ، إذ أن قتل العواطف الشريفة ، وإخماد نار الغيرة الوطنية هما أكبر جناية على الوطن وأهله . فلنترك هؤلاء اليائسين فى سفن يأسهم تصعدهم أمواج الأفكار وتهبط بهم حتى نصل بهم إلى شاطئ الخير والرفاهية فنذكرهم عندئذ بفساد مزاعمهم وخطأ آرائهم .

ويقول فى إحدى خطبه الأخيرة :

– إن العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع ، ونحن نرى من الآن هذا الاستقلال المصرى ونبتهج به وندعو له كأنه حقيقة ثابتة ، وسيكون كذلك لا محالة . فمهما تعددت الليالى وتعاقبت الأيام ، وأتى بعد الشروق شروق ، وأعقب الغروب غروب ، فإننا لا نمل ولا نقف فى الطريق ولا نقول أبداً : لقد طال الانتظار .

إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا إلى أشرف غاية اتجهت إليها الأمم فى ماضى الأيام وحاضرها ، فلا الدسائس تخيفنا ولا التهديدات تقفنا فى طريقنا ، ولا الشتائم تؤثر فينا ، ولا الخيانات ترعجنا ، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التى تصغر بجانبها كل غاية .

نعم . . إننا لو تخطفنا الموت من هذه الديار واحداً بعد واحد ، لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا « كونوا أسعد حظاً منا ، وليبارك الله فيكم

ويجعل الفوز على أيديكم ، ويخرج من الجماهير المئات والألوف بدل الآحاد للمطالبة بالحق الوطنى والحرية الأهلية والاستقلال المقدس .

بلادى . . بلادى . . لك حبي وفؤادى ، لك حياتي ووجودى ، لك روحى ونفسى ، لك عقلى ولسانى ، لك لبي وجناني ، فأنت أنت الحياة ولا حياة إلا بك يا مصر .

* * *

وكان على مصطفى كامل أن يوجه الشعور الوطنى الذى أخذ يتنبه وينمو إلى مخاصمة الاحتلال ومقاومته ، فأخذ يهاجمه فى خطبه ويدلل على عدم مشروعيته ويعدد مساوئه ، ويفند المزاعم القائلة بأنه أفاد البلاد وأنقذها من الفوضى والفساد . ولم يكن هذا بالأمر الهين فى تلك الظروف التى كانت الجنود البريطانية فيها تحتل البلاد ، واللورد كرومر هو الحاكم الفعلى ، والموظفون الإنجليز يسيطرون على المرافق والوظائف الكبرى ، والوزارة المصرية تنفذ أوامرهم فى استسلام كامل ، والانتهازيون يتملقون المحتل ليظفروا منه بالجاه والمنصب . فكان على مصطفى كامل أن يستل الخوف من القلوب ويبث فيها الشجاعة حتى تنبض بروح المقاومة ، وذلك بغير أن يدفع بها إلى عنف لم تتهيأ لها وسائله . ولهذا كانت خطب مصطفى كامل فى هذا الشأن « مزيجاً عجيباً جداً من الحماسة والاعتدال ، كما أنها جمعت بحذق ومهارة بين مخاصمة الإنجليز وتأليب المصريين على احتلالهم وبين البعد عن الألفاظ الحماسية الرخيصة الجوفاء » كما يقول الأستاذ فتحى رضوان فى كتابه الصغير القيم عن مصطفى كامل .

وقد بدأ مصطفى كامل كفاحه الرائع ضد الاحتلال بحركة سياسية

بارعة فكتب رسالة إلى « جلادستون » زعيم الأحرار الذى كان رئيساً للوزارة البريطانية عند وقوع الاحتلال والذى ألقى تصريحات سابقة أمام مجلس العموم أعلن فيها أن الاحتلال إجراء مؤقت وأن بريطانيا تبحث عن وسيلة للخروج من مصر بشرف . وجاءه رد « جلادستون » فى يناير ١٨٩٦ متضمناً قول الزعيم البريطاني الذى كان قد تخلى عن الحكم « إن زمن الجلاء على ما أعلم قد وافى منذ سنين » .

ونشر مصطفى كامل الرسالتين فى مصر وأوربا فكان لهما صدى عميق فى الدوائر السياسية والوطنية .

وفى خطبته السياسية الأولى بالإسكندرية دعا المواطنين إلى نبذ العنف والتمسك بالحكمة والاعتدال ، وأطلق شعاره المعروف « أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا . . » وقال إنه ليس من غرضه أن يندد بالأمة الإنجليزية « لأني أترفع عن أن أدافع عن بلادى بالطعن والسباب ، فضلا عما أحس به دائماً من وجوب احترام الشعب الإنجليزى » وقال :

– إن الخلاف بيننا وبين إنجليز هو : هل زمن الجلاء عن مصر قد حان أو لم يحن ، فدول أوربا ذوات المصالح فى مصر تقول معنا إن زمن الجلاء قد حان منذ أعوام ، والمستر جلادستون زعيم الأحرار وأكبر سياسى إنجليزى يقول ذلك أيضاً . . .

ومضى يقول :

– وإلا فهل يرضى أبناء إنجلترا أن يستعمل شرفهم آلة دنيئة لامتلاك بلاد حرة واستعباد أمة حرة ؟ وهل ترضى الأمة البريطانية الغيورة على

مقامها واحترامها أن يقال عنها إنها لا شرف لها ولا احترام لكلمتها العلنية وعهودها الصريحة ؟

وفى نهاية الخطبة طلب مصطفى كامل من الحاضرين أن يرفعوا أيديهم إذا كانوا يوافقونه على مطالبة بريطانيا بالجلاء ، فرفع الجميع أيديهم فى حماسة بالغة .

وكتبت جريدة « المؤيد » تقول :

– إنها الخطبة الأولى التى أقدم على إلقائها شاب مصرى غيور ، عرف واجب الوطن وضرورة التفانى فى حبه المقدس بعد أن مر على الاحتلال الأجنبي أربعة عشر عاماً . ولقد استهوى الخطيب المسامع بحسن إلقائه و بلاغة منطقه وغزارة مادته ولطيف اعتداله .

وكان لهذه الخطبة دوى عظيم فى الإسكندرية ، تردد صداه فى أرجاء مصر وظهر تأثيرها فى نفوس المواطنين يوم عودته من الإسكندرية إلى القاهرة ، فكان توديعه بالمحطة مظاهرة وطنية اشترك فيها جمع حاشد من الناس يتقدمهم أعيان الثغر ، وقدموا لمصطفى كامل وساماً من الفضة ، وأمطروه بالأزهار ، وهتفوا له عندما تحرك به القطار .

وأدركت سلطات الاحتلال خطر مصطفى كامل ودعوته إذا انتشرت ، وأرادت إرهابه والانتقام منه ، فدبرت محاكمة عسكرية لأخيه على فهمى كامل الضابط بالجيش عن تهمة وهمية ، وحكم بإنزاله إلى رتبة نفر . ثم دبروا مؤامرة أخرى لتجنيد مصطفى كامل حتى تسكت صوته ، ولكنه أحبط المؤامرة ، كما استطاع أن يحصل من الخديو على أمر بالعفو عن أخيه .

وخطب مصطفى فى مسرح زيزنيا بالإسكندية فى اجتماع ضم أعضاء

الجاليات الأوربية ، خطبة بالفرنسية ، كان مما قاله فيها :

– إذا كانوا يحسبون أنهم أوقفونى إلى الأبد ، إذ يظنون بسذاجة لا مثيل لها أن الظلم الذى أوقعوه أخيراً بأحد إخوتى يضعف قواى أو يوهن عزيمتى أو يقلل من جهادى فى سبيل سعادة بلادى ، فقد أخطأ ظنهم وخاب سعيهم ، لأن الضعف لن يعرف طريقه إلى نفسى ، وسوف أستمر فى الدفاع عن وطنى العزيز بكل ما لدى من قوة ، وسوف أمضى فى شرح قضية مصر ووصف آلامها والمناداة فى كل مكان بحقوقها المقدسة ، والمطالبة بحريتها واستقلالها ، ولن يوقفنى عن ذلك إلا الموت .

ثم شرح فى خطبته قضية الجلاء والسودان ، وكيف أن ما يطالب به لا يتعارض مع مصالح الأجانب بل يعزز هذه المصالح وقال :

– إننى أعلم جيداً أيها السادة أنكم تؤيدون الجلاء ، لأن ذلك يتفق مع مبادئ العدالة والشرف الدولى من جهة ، ولأن مصالحكم تقضى به من ناحية أخرى . أجل . . إن من مصالح الأوربيين النازلين فى مصر أن يتحقق الجلاء ، لأنه إذا صارت إنجلترا مالكة لمصر فإن حياة الأوربيين على ضفاف النيل تصبح مستحيلة ، ذلك أن إنجلترا سوف تضع يدها على كل شيء ولا تترك لغيرها شيئاً ، وتدعى عندئذ أنها الوكيلة الوحيدة للمدنية فى وادى النيل متجاهلة مصالحكم أنتم وكلاء المدنية الأوربية فى العلوم والفنون ، كما أنكم وكلاؤها فى التجارة والصناعة . .

ومضى مصطفى كامل يشدد حملته على الاحتلال ، وأخذ يجوب البلاد شرقاً وغرباً ، متنقلا بين عواصم أوربا ، يكتب ويخطب ، ويعقد المؤتمرات ، ويدلى بالأحاديث ، ولا يترك فرصة إلا انتهزها رافعاً صوته بدعوته .

وكم أرهق جسمه النحيل بالعمل المتواصل ، ولم تكن المصاعب والعقبات تثنيه عن طريقه أو تضعف من عزيمته ، بل كانت تزيده ايماناً وإصراراً .

فى عام ١٨٩٨ وقعت حادثة « فاشودة » عندما تقدم الكابتن الفرنسى « مارشان » على رأس حملة صغيرة واحتل هذا الموقع الفرنسى الهام فى السودان ورفع عليه العلم الفرنسى . وفهم المصريون أن فرنسا تهدف بذلك إلى صد التيار الإنجليزى فى قلب أفريقيا وفتح باب المسألة المصرية حتى تضطر إنجلترا لتنفيذ وعودها بالجلاء . ولكن أملهم خاب عندما أسرع « كتشنر » واضطر « مارشان » إلى إخلاء الموقع فانسحب ونفضت فرنسا يديها من الأمر كله .

كان هذا الحادث صدمة للحركة الوطنية ، وكتبت مدام جوليت آدم تقول عنها .

– « فاشودة . . . إنها الضربة القاضية ! إن غير واحد من ساسة فرنسا قد أفهم الخديو والوطنيين المصريين أن فرنسا ستتدخل لصالح مصر سريعاً وبصفة حاسمة ، وقالوا لهم إن بعثة « مارشان » هى الحاملة لراية استقلال مصر ، فصاروا جميعاً يعتقدون أن تحرير وطنهم سيأتى من السودان ، ولكن حادثة فاشودة قضت على آمال الوطنيين المصريين .

وهب مصطفى كامل يجارب موجة اليأس الجديدة ويقول :

– إننا لم نيأس ولن نيأس أبداً من مستقبل الوطن العزيز . فإننا نعلم علم اليقين أن مصر مقبرة للأمم الطاغية ، ونعرف أن حظ إنجلترا فيها سيكون كحظ الدول التى سبقتها . ولكننا إذا كنا غير يائسين من مستقبل بلادنا ، فإننا يائسون من أى تعضيد يأتينا من أوربا ، وأصبحنا

نوجه همتنا ونشاطنا لتعليم الأمة وتربيتها بإنشاء المدارس حيث ينشأ الشباب على أشرف مبادئ الوطنية . . » .

وهكذا أدرك الزعيم الشاب أن مصر يجب أن تعتمد على جهود أبنائها وجهدهم إذا أرادت أن تظفر بالاستقلال ، وأن الكفاح لتحقيق هذه الغاية سوف يطول ، فاندفع بكل قواه يمد الحركة الوطنية بمزيد من الجهد والعمل ويطارد شبح اليأس ، ويرسم طريق العمل البناء فى إحدى خطبه :

– ما هذا السم القتال الذى تناولته الأمة عن طيب خاطر ؟ ما هذا البلاء المدمر الذى حل بالبلاد وتساقط على رءوس أهلها وهم إليه ناظرون ؟ كيف تنسى هذه الأمة العزيزة أنها هى التى فتحت وقهرت وضربت وانتصرت وبهرت العالمين بقدرتها وشدة بأسها ؟ ! لا ريب أن أصل هذا البلاء وجرثومة ذلك الداء إهمال أمر التربية الوطنية . . .

ودعا مصطفى كامل إلى إنشاء المدارس الحرة التى تنشر التعليم القومى ، فأنشئت أول مدرسة تحمل اسمه فى عام ١٨٩٩ .

ثم رأى أن تكون له صحيفة يومية وطنية يتصل عن طريقها بالرأى العام ، فتكون له بمثابة منبر دائم يلقى منه آياته الوطنية ، وهكذا صدر العدد الأول من جريدة « اللواء » فى ٢ يناير ١٩٠٠ .

وعندما أبرمت إنجلترا وفرنسا « الاتفاق الودى » فى عام ١٩٠٤ وقد جاء فيه أن إنجلترا « ليس فى نيتها تغيير الحالة السياسية فى مصر » ، وتعهدت الحكومة الفرنسية من جانبها « ألا تعرقل عمل إنجلترا فى هذه البلاد لا بطلب تحديد أجل للاحتلال البريطاني ولا بأى صورة أخرى » ، وكان هذا الالتزام من جانب فرنسا يقابله التزام من بريطانيا ألا تعرقل عمل

فرنسا فى مراكش ، أدرك الجميع أن فرنسا قد تخلت نهائياً عن مساندة الحركة الوطنية ، وأنها تآمرت مع بريطانيا على تقسيم مناطق النفوذ بينهما فى الشرق .

وعاد مصطفى كامل مرة أخرى يطارد اليأس ويبث الثقة فى النفوس ، وألقى خطبة فى مسرح زيزينيا بالإسكندرية فى ٧ يونية ١٩٠٤ تحدث فيها عن الاتفاق الودى ، ومؤامرة بريطانيا وفرنسا على مراكش . وحمل على السياسة الاستعمارية الإنجليزية والفرنسية ، وهاجم سياسة الاستسلام التى يسلكها وزراء مصر ، ودعا إلى الثبات والكفاح وقال :

– إن الوطنية شعور ينمو فى النفس ويزداد لهيبه فى القلب ، ويرسخ فى الفؤاد ، كلما كبرت هموم الوطن وعظمت مصائبه واشتدت كربته .

فإذا كنا قد افتخرنا بهذا الشعور الوطنى ورمينا كل من تجاهله بالخيانة أيام كنا نؤمل الخلاص القريب والجلاء العاجل ، فخليق بنا أن نتعلق به اليوم أضعاف تعلقنا به بالأمس ، وأن نقول لهذا الوطن العزيز الأسيف : كلما تمكن العدو منك ، تمكن حبك من القلوب ، وتعددت واجباتنا نحوك ، واشتد تمسكنا بحقوقك .

إن الذى يسمع صوت ضميره منادياً فى كل لحظة بوجوب خدمة الوطن وإعلاء شأنه يشعر بأن دم آبائه الذى يجرى فى عروقه يطالبه بتضحية النفس لتلك الأرض الطاهرة التى لا شرف له إلا بها ، ولا حياة بغيرها ، ولا رفعة بدون رفعتها ، ولا مجد إذا زال مجدها . إن الذى يسمع ذلك الصوت ، ويشعر بهذا الشعور لا يخاف العقبات والموانع ، ولا يخشى السباب والمطاعن ، بل يمضى فى طريقه ناظراً إلى الغاية التى طلبها ، والبغية التى

تعلق بها ، واجداً من سهام الأعداء ما يجده الجندى فى جراح الحرب من شرف وفخار . . » .

ثم كانت حادثة دنشواى .

ويقول الأستاذ فتحى رضوان إن الداعية كقائد الجيش يبقى متربصاً بعدوه الدوائر حتى إذا آنس فى صفوفه ثغرة يستطيع أن ينفذ منها انطلق إليها بقوته جميعاً أو بأكثرها ليضمن تشتيت شمل خصمه والقضاء عليه . وكان مصطفى كامل كهذا القائد لا يزال يدور حول قلعة الإنجليز فى مصر وقلعة حكمهم ، حتى كانت حادثة دنشواى فوقعوا فى خطأ صارخ يختلف عن أخطائهم التى يرتكبونها كل يوم ، فشحذ مصطفى كامل قلمه وأطلق لسانه ، وجعل يصور المأساة فى ألوانها القاتمة . وأحست بريطانيا أنها العاصفة فأحنت رأسها كعادتها ، وسحبت اللورد كرومر طاغية قصر الدوبارة ، وعميدهم العتيد الذى يفاخرون إلى اليوم بعبقريته وطول باعه وشدة مراسه .

ذهب خمسة من الضباط الإنجليز لصيد الحمام فى قرية « دنشواى » فأصابت طلقة طائشة فلاحة كانت فى جرنها وأشعلت النار فى الجرن ، فاستغاث شقيق زوجها وهجم على الضابط يحاول انتزاع بندقيته ، وتكاثر الأهالى ، وجاء زملاء الضابط لنجدته ، وجاء فى الوقت نفسه شيخ الخفراء مع زملائه لتفريق الناس ، فتوهم الضباط الإنجليز أنهم يريدون بهم شراً ، فأطلقوا النار عليهم فأصابوا شيخ الخفراء وزميلاً له وآخر من الأهالى ، الذين ثارت ثائرتهم وهاجموا الإنجليز بالطوب والعصى فجرحوا بعضهم ، وأحاط بهم الخفراء وتحفظوا على بنادقهم وتمكنوا من حمايتهم من غضب الأهالى حتى جاء ضابط الشرطة . وفى خلال ذلك كان أحد الضباط وهو الكابتن

بول قد هرب من القرية وظل يعدو حتى سقط مغشياً عليه ، وثبت من تقرير الطبيب الشرعى البريطاني أنه مات من ضربة الشمس .

هذا هو حادث دنشواى بإيجاز ، وقد هاجت له سلطات الاحتلال ، وأراد « كرومر » أن يتخذه ذريعة ليضرب ضربة ترهب المصريين ، وتعيد هيبة الإنجليز التى زعزعتها الحركة الوطنية التى أشعلها مصطفى كامل .

وفى أيام قليلة انعقدت المحكمة المخصوصة ، وصدر الحكم بإعدام أربعة من الأهالى وبالأشغال الشاقة والحبس والجلد على سبعة عشر شخصاً آخرين ونفذ الحكم علناً فى قرية دنشواى .

وكان مصطفى كامل مريضاً فى باريس عندما علم بما حدث ، فثارت نفسه وكتب مقالاً بعنوان « إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدين » نشرته جريدة « الفيجارو » الفرنسية الشهيرة . وكان هذا المقال أروع ما كتب مصطفى كامل فى حياته السياسية . برغم مرضه ونصائح الأطباء قرر أن يهاجم الاحتلال فى عقر داره . تقول مدام جوليت آدم فى كتابها « إنجلترا فى مصر » :

— لقد طلب منى طبيبه أن أستخدم نفوذى لحمله على السفر إلى « فيشى » للراحة والاستشفاء ، ولكنى لم أستطع منعه من السفر إلى لندن عقب حادثة دنشواى ، لأن إخلاصه لبلاده ، ذلك الإخلاص المتناهى ، كان عنده فوق جميع الاعتبارات الشخصية ، وفوق الحياة نفسها .

وسافر مصطفى كامل إلى لندن فى ١٥ يولية من عام ١٩٠٦ ، واتصل برجال الصحافة والسياسة وأعضاء البرلمان ، وأدلى بالأحاديث فى الصحف ، وترجم مقاله عن حادث دنشواى ووزعه على الوزراء وأعضاء البرلمان ،

والصحف ، ونجح فى إثارة الرأى العام البريطاني حتى انبرى بعض النواب الأحرار يستنكرون تصرف اللورد كرومر ، وكتبت بعض الصحف والمجلات الإنجليزية تذكر حكومتها بوعودها لمصر منذ بدء الإحتلال ، وتطالب بمنح مصر حكومة مستقلة .

وأقام مصطفى كامل وليمة كبرى بفندق كارلتون دعا إليها عدداً كبيراً من رجال الصحافة والسياسة وأعضاء البرلمان ، وألقى فيها خطبة بالفرنسية كان مما قاله فيها :

إن الحركة الموجودة فى مصر هى حركة وطنية أصيلة لا شك فيها ، فإن الشعب المصرى متمسك باستقلال بلاده أشد التمسك . وإذا كان بعض الساسة الإنجليز يتظاهرون الآن بنسيان الوعود والعهود التى قطعها رجالكم المسئولون علناً فإننا لم ننسها نحن أبداً ، بل لا يزال كل مصرى يكررها وسوف يكررها على الدوام ، عالماً بأن العهود وكلمة الشرف لا تسقط بمضى المدة . . !

ومع ذلك فإذا فرضنا أن هذه الوعود والعهود لم تقدم فعلاً من رجال سياستكم ، فإن من حق المصريين أن يطالبوا باستقلال بلادهم . إن إنجلترا لم تفتح مصر ولم تغزها ، بل دخلتها كدولة صديقة تريد توطيد عرش الخديو ومساعدة الشعب المصرى على أن يعيش عيشة الأمم المتمدينة . فمصر لاتسأل إحساناً عندما تطالب بحريتها ، بل تطلب حقاً شرعياً لانزاع فيه ، تطلب حقها فى الحياة والوجود . وإنى على يقين أنكم لو كنتم محلنا لشعرتم بنفس شعورنا ، وسلكتم مسلكنا ، لأنه لا يوجد إلا مطلب واحد خليق بأن يشغل حياة الإنسان ، ألا وهو استقلال وطنه وعظمته .

وتروى مدام جوليت آدم فى كتابها أن السير «كامبل بانرمان» رئيس

الوزراء طلب مقابلة مصطفى كامل بعد هذه الخطبة ، وتمت المقابلة فى « داوننج ستريت » ودار بينهما حديث عن الحالة فى مصر ، وأن مصطفى كامل قال له :

– أرجو أن تكون قد لمست الآن كيف نال عمالكم بمصر من شرف إنجلترا بتلويثهم للعدالة .

وقد اعترف له رئيس الوزراء البريطانى بأن دنشواى « حادثة مؤسفة » ، ثم قال إنه لا يظن أن فى مصر رجالاً أكفاء يستطيعون حكم البلاد إذا تركتها بريطانيا ، ولكن مصطفى كامل فند هذا القول ، فعرض عليه السير كامبل بانرمان أن يشكل الوزارة المصرية برئاسته ، فرد عليه الزعيم الشاب :

– إن وطنيتى تفرض على أن أرفض كل منصب حكومى مادام الاحتلال فى بلادى .

وأدرك رئيس وزارة بريطانيا أنه أمام زعيم وطنى حقيقى لا يسعى لمنصب أو جاه ولا يستهدف مصلحة شخصية .

وكان من نتيجة كفاح مصطفى كامل بعد مأساة دنشواى أن سحبت بريطانيا عميدها كرومر من مصر ، وتم العفو عن المحكوم عليهم بالسجن ، واتجهت السياسة البريطانية إلى ملاينة المصريين .

* * *

عاد مصطفى كامل إلى مصر ليضاعف جهاده فى سبيل قضية بلاده ، وكانت صحته تسوء وتنهار تحت وطأة المجهود الشاق الذى يبذله ليل نهار . فأصدر جريدة اللواء باللغتين الإنجليزية والفرنسية ، فأصبحت له ثلاث جرائد يومية تنشر دعوته الوطنية بثلاث لغات .

ورأى أن دعوته قد فشت بين المصريين ، وكان يشعر بأن صحته تتدهور يوماً بعد يوم ، فأراد أن يطمئن إلى قيام حزب منظم يحمل اللواء من بعده إذا سقط فى الميدان . وهكذا قرر أن يدعو إلى إنشاء « الحزب الوطنى » بعد أن رأى ثمار دعوته وقد نضجت فى قلوب مواطنيه .

وفى الإسكندرية حيث كان يحب إلقاء خطبه الكبرى ، ألقى خطاباً ضافياً فى مسرح زيزينيا فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ ، وقد سمى هذا الخطاب « خطبة الوداع » . وقد بلغ عدد الذين ذهبوا لسماعه سبعة آلاف احتشد بهم المسرح وحديقته والشوارع المحيطة به .

وكأنما كان الزعيم الشاب يحس أنها خطبته الأخيرة ، وأنه يلقى إلى أنصاره بوصاياه ، فلم يترك جانباً من جوانب القضية الوطنية إلا شرحه وجلاه ، ورد على كل تهمة وسؤال ، وحدد طريق العمل وأسلوب النضال ، كل ذلك فى أسلوب متدفق وإلقاء ساحر . على أن أسلوب الخطيب وفصاحته وسحره وفتنة إلقائه لم يكن شيئاً مذكوراً بجانب الشجاعة وإنكار الذات وروح التضحية والاستهانة بالخطر والمرض والموت ، وهى العناصر التى منها نسج خطابه وخاط أثوابه .

تحدث عن الاتفاق الودى فكان مما قاله :

– ظن الساسة الإنجليز أنهم إذا اتفقوا مع فرنسا على المسألة المصرية طويت أوراق هذه القضية الخطيرة ، وخفت كل صوت ، ومات كل أمل ، وحل اليأس محل الرجاء ، وصار الشعب المصرى أثراً كتلك الآثار القديمة التى يأتى السائحون لرؤيتها فى كل عام . ولكنهم أخطأوا خطأ كبيراً ، لأن العزلة التى صرنا إليها بعثت فينا روحاً جديداً أرشدنا إلى الحقيقة التى لا قوام

لشعب بدونها ، ولا حياة لأمة بغيرها وهى أن الأمم لا تنهض إلا بنفسها ولا تسترد استقلالها إلا بجهودها .

وتكلم عن تهمة التطرف التى يرميه بها أعداء الحركة الوطنية فقال :

– نلقب بالمتطرفين ! ولماذا ؟ لأننا نطالب بحقوق مصر واستقلالها ! لأننا نذكر إنجلترا بشرفها ووعودها وعهودها ! لأننا نقول لها بصوت الحق والإيمان القوى إن المستقبل يكفل لمصر هذا الاستقلال ، وأنه خير لها ألا تقاوم سير الحوادث ؛ وألا تحاول إعدام أمة خلقها الله للحياة والعمل . متطرفون . . لأننا نعلن ثقتنا الكاملة بمستقبل بلادنا ، ونقول لهذه الأمة فى الصباح والمساء : اليوم عسر ، وغداً يسر ، اليوم أسر وغداً فخر ، اليوم احتلال وغداً استقلال ، اليوم عناء وشقاء ، وغدا رخاء وهناء . متطرفون . . لأننا نقول للأمة اعملى وحافظى على السكينة . إياك والقلاقل ! فهى تخدم العدو وتضر بالوطن ، إياك والانقسامات فإنها منشأ الخراب والدمار ، إياك وهوس العداوات الدينية فإنها آفة الآفات وجالبة المحن .

متطرفون . . لأننا نقول للأمة خذى من العلم أوفر قسط وتسلحى بأسلحته ، واملئى وادى النيل من نوره ، وردى إلى الفقير حقه ونصيبه من هذا المنهل العذب .

متطرفون . . لأننا نرد تهم العدو ، ونثبت للعالم كله أننا شعب متمدين ، وأنه ليس للتعصب بيننا وجود ، وأن الإسلام عامل قوى لترقية الأمة ونشر أنوار المدنية فيها .

متطرفون . ، لأننا رفعنا أصواتنا محتجين على فظيعة الفظائع فى دنشواى وعارضنا السياسة الإنجليزية فى دعاواها ، ووقفنا فى وجه أعدائنا والحق

سلاحنا ، والصراحة عدتنا ، والإقدام مطيتنا .

متطرفون . . لأننا نمثل مصر للأمم تتدفق حياة ، ونشخصها قوية ناهضة شريفة المقاصد ، أبية لا ترضى الذل ، ولا تعرف الكذب والخداع .

متطرفون . . لأننا لا نطلب استعمار بلاد الغير ولا استعباد شعب من شعوب الأرض ، بل نقنع بطلب الاستقلال لوطننا .

فإن كنا نعتبر متطرفين لأننا نعلن ذلك كله ، فأكرم بالتطرف ، ويا له من فخر أن نلقب بالمتطرفين !

من منكم لا يفخر بأنه متطرف ؟ وأيكم لا يريد أن يكون سائر المصريين متطرفين ؟ وهل يكون الاعتدال فى هذه الحالة شيئاً آخر سوى الخوف والجبن والرياء ، واتباع سياستين ، ومخاطبة الناس بلسانين ؟

عجباً . . عجباً ! ! أنلقب نحن بالمتطرفين لأننا نطلب استقلال وطننا من أشرف السبل ، وبأقوم الوسائل ، ولا نريد أن نتعداه بالاعتداء على أحد ، فى حين أن الإنجليز لم يكتفوا باستقلال وطنهم بل استعبدوا الأمم وتوسعوا فى الاستعمار وملكوا البحار ، ولا يزال أكثرهم يقول : هل من مزيد ؟

هل يلقبون هم بالعقلاء لأنهم إنجليز ، ونلقب نحن بالمتطرفين لأننا مصريون ؟ ! هل الوطنية التى تروق وتعجب هناك ، تؤذى وتؤلم هنا ؟ !

إن من يظن أن الإنجليز يحبون الخونة يخطئ خطأ كبيراً . نعم إنهم يستخدمونهم لأغراضهم ولكنهم يحتقرونهم أشد الاحتقار .

ولقد سمعت من يقول إننى شديد فى تقريع من خالفوا الواجب الوطنى ومالوا عن مصلحة البلاد ، فأجيبهم اليوم بأنه إذا صح التسامح فى بعض

الأمور فى ظروف معينة ، فإن التسامح فى الوطنية إعدام لها وقضاء عليها ، وأن من يتسامح فى حقوق بلاده ولو مرة واحـدة يبقى أبـد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان .

وتكلم مصطفى كامل عن حب مصر وجدارتها بهذا الحب الكبير ، ثم تكلم عن أعداء الحركة الوطنية ، وفند مغالطاتهم وحذر منها ، وتحدث عن سيئات الاحتلال ورد على الزعم القائل بأنه أصلح أحوال البلاد وأغناها وملأها عدلا ، واستشهد بما حدث فى دنشواى على بطلان دعوى العدل البريطانى ، وهاجم اللورد كرومر الذى توقح على المصريين فى الخطبة التى ألقاها عندما غادر البلاد .

ثم أشار مصطفى كامل إلى التهمة التى كان يحلو لأعدائه أن يرموه بها لكى يوهموا البسطاء بأنه صنيعة تركيا فقال فى صراحة قاطعة :

– رمانا الطاعنون أيضاً بأننا نريد أن نخرج الإنجليز من مصر لنعطيها لتركيا كولاية عادية ، أى أننا نريد تغيير الحاكمين لا طلب الاستقلال . فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال ونطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى أصواتنا ، وعلى مسمع من أمم الأرض كلها ، وأننا إذا أخلصنا الود لأمة أو لدولة فإنما نعمل كغيرنا ، ونتبع ناموس الطبيعة القاضى بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون .

ولا نستطيع أن نلخص ما قاله مصطفى كامل فى هذه الخطبة الجامعة الرائعة ، وقد ختمها بدعوة الحاضرين والمواطنين للدخول فى الحزب الوطنى الذى كان يتأهب لإعلان تشكيله رسمياً .

وقد عقدت الجمعية العمومية الأولى للحزب الوطنى في ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ وحضر الاجتماع أكثر من ألف من المؤسسين واعتذر أكثر من ثمانمائة مع تأييدهم لما يصدر من قرارات .

وافتتح مصطفى كامل الاجتماع بكلمة حدد فيها أهداف الحزب وسياسته وقال :

– إننا إذا دعونا الناس للدخول فى هذا الحزب ، لاندعوهم باسم سلطة عالية أو حاكم نافذ الكلمة ، بل ندعوهم باسم وطنيتهم ، باسم شرفهم ، باسم حقوق وطنهم باسم كرامة الإنسان ، باسم ذكريات آبائهم وأجدادهم ، باسم مصالح أبنائهم وأحفادهم .

ووافقت الجمعية العمومية بالإجماع على انتخاب مصطفى كامل رئيساً للحزب مدى الحياة ، فوقف مصطفى كامل وارتجل الكلمات التالية :

– إنكم حملتمونى طول حياتى حملاً ثقيلاً على كاهلى ، وإنى لأشكر لكم ثقتكم بى ، هذه الثقة التى كانت عوناً لى فى كل أعمالى ، وأقول لكم إنكم أنتم قوتى وساعدى يا أبناء خير أمة أوقفت على خدمتها حياتي وقواى وعقلي وقلبي وقلمى ولساني وصحتى . وكم من صديق قال لى أشفق على صحتك ، ولكن الواجب لبلادى ووطنى ينسينى هذه النصائح الثمينة . فإنا الآن إذا قبلت اختياركم لى رئيساً ، فإنما لثقتى بأن كل واجد منكم أصبح حياتى وشعورى واعتمادى ، بل صار كل منكم فى الشعور الوطنى أكبر من مصطفى كامل .

وكان هذا آخر اجتماع عام شهده الزعيم الشاب .

وكانت هذه الكلمات آخر كلام له على المنبر .

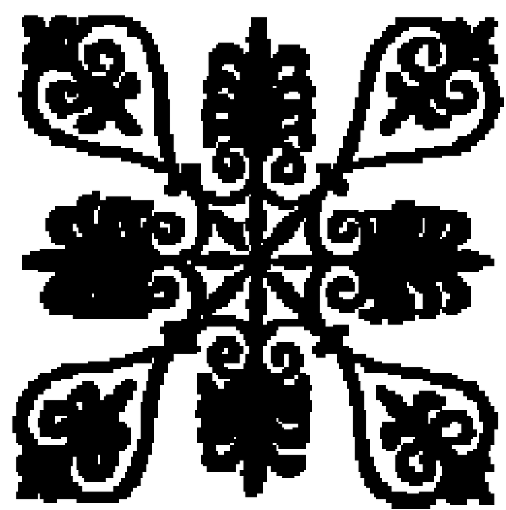
كان المرض قد حطم كيانه الرقيق ، ولكنه تحامل على نفسه ليشهد اجتماع تأسيس الحزب ويخطب فيه ، ثم عاد إلى فراش المرض حيث فاضت روحه الطاهرة يوم ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ .

وسكت إلى الأبد صوت الخطيب الذى احترق ليضيء لأمته طريق الحرية والاستقلال .

سعد زغلول

أرغن هام به وجدانها   وأذانٌ عشقته أذناها
كل يوم خطبة روحية   كالمزامير وأنغام لغاها
دلهت مصراً ولو أن بها   فلوات دلهت وحش فلاها

أحمد شوقي



سعد زغلول

إذا كان بعض الناس قد اختلفوا فى أمر سعد زغلول ، وعارضه بعضهم فى حياته ، فإن أحداً لم يختلف فى منزلته كخطيب ساحر قادر على الإقناع والتأثير . تلك ناحية يتفق فيها الخصم والنصير والمؤرح والصديق .

كتب أحد الأدباء من خصوم « سعد » يقول :

« إن كاتب هذه السطور كان من أولئك الذين يعارضون سعداً أوفر معارضة ، ويتميزون من سياسته فى إحدى مراحلها غيظاً ، حتى أتيح لى أن أذهب إليه كارهاً فى ليلة كان يخطب فيها الجماهير تمجيداً لعيد الجهاد الوطنى عام ١٩٢٣ ، فلما أن بدأ يخطب ، دلفت عواطفى المتأججة خصومة إلى الفرار ، ولما أن اكتمل سحره فى القول والتوجيه ، رأيت معارضتى له تنال من نفسى مكاناً غير محمود ، وعندما تركت الحفل وددت لو أن الأثير لا يعيد إلى أذنى تلك الكلمات التى فاض بها لسان سعد ، ذلك اللسان الذى لم تبخل المقادير عليه بما فى طوق اللغة أن تؤديه من التأثير . ووددت لو ظل « سعد » طيلة الدهر صامتاً لا يقول ، ساكتاً لا ينطق لسانه ، لأن الغيظ قد أوحى إلى نفسى أن نفوذ سعد قد هيأ له هذا السحر يزجيه من فيه ، فإذا هو لا يزيد فى خصومه وإنما يدفع إليه فى كل خطبة أنصاراً أوفياء . . »

هذه شهادة خصم لسعد ، وإذا كان الغرض الأول من الخطابة هو الإقناع والتأثير ، وكان نجاح الخطيب يقاس بمقدار ما يحقق من هذا

الغرض ، فقد كان « سعد » على هذا القياس يبلغ بخطبه من ذرى النجاح ما تنقطع دونه أنفاس كل خطيب . فقد كان يرسل فى نفوس سامعيه تياراً من الجاذبية والسحر ، يهيمن على الحاضرين ، فإذا أسماعهم وعيونهم وقلوبهم معلقة بشفتيه وكأنما يمسك بيده مطرقة سحرية يضرب بها أوتار قلوبهم فيخرج النغمة التى يريدها .

كتبت الأديبة النابغة « مى زيادة » مرة تقول :

« سمعت سعداً متكلماً على المنبر ، فأدركت ثمة كيف الوجه العادى يصبح أجمل من الجمال وأوفر إغراء ، وكيف تهزأ حيوية الشيوخ بحيوية الشبان فتجرفها جرف العاصفة لأوراق الخريف ، وكيف ينفتح الجفن الكثيف المتهدل عن بؤبؤ العين فينجلى البصر حساماً استل من غمده ، وتشيع النظرات أنصالا تشق الصدور ، وكيف يشذ خطيب أحياناً عن أصول الخطابة وهو مع ذلك ينتزع قلبك من بين جنبيك ويمضى يتقاذفه ويلهو به وأنت من نشوتك لا تفيق ، وكيف يرتفع الصوت الخافت ويتعالى ويسود حيث تعصف فيه الأنواء وتزمجر خلاله العواصف ، لتتجلى فيه إرادة شعب يقول : أنا . . . إنى موجود » .

* * *

كيف تهيأت لسعد زغلول هذه المقدرة الخطابية التى كانت آيته الكبرى وعدته فى زعامة هذه الأمة ؟

دخل سعد مكتب القرية ، حيث حفظ القرآن ، ثم تردد على دسوق حيث درس النحو والفقه ، ثم رحل إلى القاهرة حيث دخل الجامع الأزهر ، وثابر على حضور الدروس بين يدى الشيوخ النافعين من أنصار الإصلاح .

وتلمذ سعد على الإمام الشيخ محمد عبده ، واتصل بجمال الدين الأفغانى واختلف إلى مجالسه .

وعندما عهدت الحكومة إلى الشيخ محمد عبده بتحرير « الوقائع المصرية » وهى الجريدة الرسمية ، اختار « سعد زغلول » ليكون مساعداً له ، وسعى حتى عينه لتحرير القسم الأدبى بها ، فأصبحت هذه الصحيفة الرسمية ، صحيفة الثورة الفكرية فى ذلك الحين .

وفى تلك الفترة حفر القدر الخطوط الأولى لملامح سعد الخطيب ، إذ أتيحت له الفرصة ليتعرف ملكاته العقلية والبيانية ، ويتجه بها الوجهة التى تلائم مواهبه بالتعبير عنها فى صور الخطابة والبيان . كان يكتب فى صحيفة للجمهور ، ينادى بالإصلاح ، ويدعو للحرية والشورى ، فتعود مخاطبة الجماهير فى مقالات هى فى الواقع خطب مكتوبة ، وشحذ بذلك مواهبه التى كانت كامنة فيه . ونقلته هذه الوظيفة من الأزهر إلى الحكومة ، ومن العمامة إلى الطربوش ومن دراسة العلوم الدينية إلى دراسة العلوم القانونية .

ثم كانت الثورة العرابية ، فألقى سعد بنفسه فى غمارها ، فكوته بنارها ولما انقشع غبارها كان قد خسر وظيفته فأقدم على احتراف المحاماة .

وكأنما كان القدر يوجه خطوات « سعد » ليهيئه لدوره العظيم . فقد كانت المحاماة أوفى ميدان لشحذ مواهبه ، وتمرينه على الجدل الخطابى ، فلم يلبث أن ظهر وبهر ، فاختاروه قاضياً فمستشاراً فوزيراً .

وفى خلال هذه الفترة الطويلة من حياته فى القضاء والوزارة

كملت تجاربه ، ونضجت مواهبه ، حتى إذا افتتحت الجمعية التشريعية التى انتخب عضواً فيها ثم أصبح وكيلاً منتخباً لها ، عاد « سعد » الخطيب إلى الظهور ، فإذا هو قوة أزعجت الحكومة . ثم عصفت الحرب العالمية الأولى بالجمعية التشريعية ، وهدأ الخطيب العظيم ، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها ، نهضت مصر تطالب بحقوقها ، وكان « سعد » الرجل الذى ادخرته الأقدار لتلك الساعة الحاسمة ، فبرزت مواهبه الخطابية المكنونة ، ورأى الناس هذا الشيخ المهيب الذى نيف على الستين ، يتقدم الصفوف ، ويخطب المصريين فيعبر عن آمالهم بفصاحته النارية ، فألقوا إليه قيادهم ، وقد أدركوا أنه الزعيم المنتظر .

وهكذا وصل الخطيب إلى طوره الأخير ، وامتزجت شخصية الخطيب بشخصية الزعيم .

* * *

كانت الطبيعة سخية على سعد ، فحبته كل ما يتمناه الخطيب ليكون بالغ التأثير فى سامعيه .

وصفه عباس العقاد فى كتابه عنه فقال :

— تراه فترى من النظرة الأولى أنك على مقربة من رجل ممتاز فى الصورة كامتيازه فى الطبيعة . وطلعته تذكرك على الفور طلعة الأسد فى بأسه ونبله وجلالة محياه . وليس بين الوجوه الآدمية ما هو أشبه بالأسد فى قسماته ومهابته من وجه سعد زغلول . له قامة مديدة ، ووجه أقرب إلى البياض ، ورأس مستطيل فى غير ضخامة ، وجبين يميل إلى السعة وينحدر قليلاً إلى أعلى ، وعينان ثاقبتان فيهما انحراف قليل نحو اللحاظ ،

يطبقهما أحياناً عند الحماسة والغضب فلا تنفتحان إلا بمقدار ما ينطلق منهما الشعاع كأنه سهم نافذ أو إيحاء منوم جبار . وله صدغان ناتئان ، وأذنان بسطاوان ، وأنف منفرج واسع المنخرين ، وفم أهرت الشدقين كما يصف العرب أفواه الخطباء المطبوعين ، وذقنه من تحت ذلك بارزة فى غير حدة ولا استعراض كثير ، تتم ملامح البروز فى ذلك الوجه فيلوح للوهلة الأولى كأنه مفصل من زوايا حديد لا من اللحم والعظام . يحمل ذلك الوجه عنق راسخ على منكبين عريضين ، وصدر فسيح أقعس واسع التجويف . أول ما تطالعك من رؤية « سعد » مهابة بالغة تملأ ما حوله من فضاء . ويكون فى المجلس من يكون فيه من كبار أو صغار ، ومن أقوياء أو ضعفاء ، ومن كثرة أو قلة ، فلا يخطر لك وأنت تغشاه أن فى المجلس أحداً غير سعد زغلول . . »

أما صوته فقد قال عنه كاتب من خصومه :

— « كان صوته قوى النبرات ، فيه سحر وفيه أسر ، وفيه سلاسة وفيه انسجام ، وفيه جاذبية . وكان إلى ذلك صوتاً طيعاً لا ينساق عن عى ، ولا يمضى عن تلكؤ ، وإنما كان الزوبعة حين يهدد ، والعاصفة حين ينطلق ، والموج حين يدوى ، والنغمة الساحرة حين يستقر . . »

وقال عنه الأستاذ عباس العقاد :

— « صوت رقيق ، لين الوقع على الأسماع ، يخفى فيه الجهد ، ويظهر الارتفاع الذى يعم أجزاء المكان ولو كان من أرحب ميادين الخطابة . فهو صوت مرتفع لاشك فى ارتفاعه ، إلا أنك إذا نظرت إلى صاحبه وهو يهدر بالقول لم تر أوداجاً تنتفخ ، ولا ملامح تلتوى

وتتقبض ، وأحسست بسهولة القول وسهولة الصوت ، فأحسست بالقدرة التى تلازم السهولة وبالسيطرة التى تملك الأسماع ، وليس بعد السيطرة على السامعين من مطمع لخطيب . . »

ووصفه الأستاذ فكرى أباظة فقال :

– كان خريج الصحن الأزهرى أبلغ المرتجلين ، حباه الله حنجرة لو وجهها للطرب لكان أبرع المطربين ، فيها النغم الطروب والنغم الحزين ، والجرس الأجش وذو الحنين ، وذو اللين ، وفيها الرعد وفيها الأنين . تلك كانت منحة السماء ، وكانت سلاحه فى السلم وفى الهيجاء . . » .

ووصفه « مكرم عبيد » فى خطبة له فقال :

– « من منا لم تلهبه تلك الفصاحة النارية ، ولم يخترق قلبه ذلك الصوت المتهدج . صوت ذهبى حار ، ذو رنين ورجفة الحماسة الفتية لا الشيخوخة الواهنة . صوت يشترك كل أعضاء الجسم فى إخراجه من مكمنه ، فتكاد تسمع فيه أزيز نفسه ، وخفقان قلبه ، وغليان دمه ، وتساقط دموعه . تتفجر من فمه الألفاظ جارفة قوية واضحة صريحة قاطعة ، رنين التنوين فيها كرنين القضاء المحتوم ولهجته لهجة القائد الذى تعود أن ينتصر ولابد أن ينتصر ، وخطابه فصل الخطاب . »

وكان سعد خطيباً هادئ الحركة ، يستوى على منصة الخطابة بقامته المديدة المعتدلة ، تحيط به مهابة تملأ ما حوله من فضاء ، فإذا تكلم أحسست أن ستين عاماً من تجاريب الزمان تخاطبك على لسان هذا الشيخ المهيب ، وهو ثابت فى مكانه من المنصة كالطود الراسخ ، لا يكاد ينقل قدماً ، ولا يسرف فى حركة أو إشارة ، وإنما هو ذراعه

يرفعه أو يمده فى الحين بعد الحين ليستعين به على توضيح غرضه . وقد يبسط يده فى مواطن التوكيد وينزل بها كأنما هى سيف يشق الفضاء ، فيقع توكيده من نفس السامع موقع القضاء المبرم . ومع ذلك فإنك تقنع من سعد بهذا السكون فيزيدك روعة وتبجيلا ، ويغنيك بالطلعة المهيبة والنظرة الماضية عن الإفراط فى حركات الخطباء الشبان .

هذه صفات « سعد » الخطيب ، فما هى خصائص هذا الخطيب العظيم ؟

* * *

كان « سعد » خطيباً بطبعه وتكوين فكره وملكاته ، فهو إذا لم يخطب تحدث كأنه يخطب ، وكان يفضل الإملاء على الكتابة ، لأن الإملاء ضرب من الخطابة . وفى ذلك يقول « سعد » فى حديث له مع عباس العقاد :

– إن الكتابة أصبحت تتعبنى أكثر من الكلام . أما بياناتي فإننى إذا أمليتها كانت كالخطب ، وإذا كتبتها بنفسى استحضرت موقف الخطابة .

وهذا هو شأن الخطيب المطبوع الذى تمتزج الخطابة بدمه . وآية ذلك أن سعداً كان يغذى نفسه بالخطابة ، فكان يقف أحياناً فى مستهل حديثه إلى الجماهير متعباً متثاقلا ، يستأذنهم فى ألا تزيد خطبته على دقائق ، فإذا انطلق وامتزجت بنفسه حماسة الجمهور ، استطالت هذه الدقائق إلى ساعات .

عاد سعد من رحلة الصعيد فى نوفمبر سنة ١٩٢١ متعباً ، وأشار

عليه الأطباء بالتزام الدور العلوى من بيت الأمة وعدم استقبال أحد ، فلما حل موعد الاحتفال بذكرى عيد الجهاد فى ١٣ نوفمبر ، ألح فى أن يحضر الاحتفال فسمح له الأطباء على شرط ألا يخطب فيه ، فقبل ذلك . وذهب سعد إلى الحفل بادى الضعف ، وجلس يستمع إلى الخطباء من إخوانه وهتاف الجماهير يدوى فى أذنيه ويتردد صداه فى قلبه فيحرك فيه الشوق إلى الكلام ، وإذا به يندفع إلى المنبر ، ويخلع عنه معطفه ، ويلقى كوفيته ، ويرتجل خطبته التاريخية التى دامت أكثر من ثلاث ساعات ، وقد نسى تعبه ومرضه ، وعاد أتم ما يكون صحة وعافية .

وفى يوم المؤتمر الوطنى الذى تم فيه ائتلاف الأحزاب سنة ١٩٢٦ كان سعد مريضاً ، فلما حان موعد المؤتمر قام من فراشه وذهب إلى الاجتماع يتحامل على نفسه — ولكنه حين أخذ يلقى على المؤتمرين خطبة الافتتاح ، عادت إليه القوة ، حتى تهامس أولئك الذين كانوا من ساعة واحدة يغالبون دموعهم من الجزع حول فراشه . كانت هذه ظاهرة ملموسة فى سعد ، ولقدروى لى الأستاذ عباس العقاد أن أنصاره المقربين كانوا يعلمون ذلك عنه ، فكانوا إذا وجدوه ضعيفاً أو متعباً ، حاولوا أن يستثيروه ليتحدث أو يخطب كى تعود إليه قواه . . !

وروى لى الأستاذ المهندس عبد المجيد بدر أنه ذهب لزيارة سعد فى بيت الأمة مع زميلين من أعضاء اللجنة التنفيذية العليا للطلبة ، وذلك بعد فوز سعد الساحق فى الانتخابات البرلمانية الأولى عام ١٩٢٣ وقبوله تشكيل الوزارة . وكان « سعد » مريضاً معتكفاً فى الدور العلوى ، فلما علم بوجودهم ، دعاهم لمقابلته بحجرة نومه . ووجدوه فى فراشه

لا يكاد يقوى على الحركة ، ووصيفته الألمانية « فريدا » ترجوه أن يتناول الدواء ، وهو يصرفها ويأبى أن يتناول شيئاً .

وسألهم فى صوت خافت :

— ماذا يقول الناس ؟

وأجاب عبد المجيد بدر بأن الناس يقولون إن سعداً بدأ يوزع الغنائم على أنصاره ، وأن التعيينات فى الوظائف تقوم على المحسوبية . وبدأ « سعد » يتكلم مدافعاً عن تعيين بعض أنصاره فى وظائف البرلمان والحكومة ، ولم يلبث أن جلس فى فراشه ، وأخذ صوته يتعالى وكأنه يخطب ، وعادت إليه الحيوية ومظاهر العافية .

وهكذا كانت نفسه تجيش بالخطابة ، فيتحرك لسانه بالكلام وكأن قوة لا يستطيع مقاومتها تدفعه إلى الكلام دفعاً .

ذلك هو وحى الجمهور يسرى فى الخطيب المطبوع ، وهو ما أشار إليه « سعد » فى إحدى خطبه فقال :

— « ما حيرت الشعر ولكن الشعر حيرني ! هذا الجمع الكبير ، وهذا الهتاف والتهليل ، كل هذا حيرني فلا أملك من العبارات ما أستطيع به أن أصف ما يخالج قلبي من عواطف الشكر التى أريد أن أقدمها لكم . إنى ما وجدت لهذا الجمع عبارة ألقيها ، ولكن هذا الجمع يقذف فى قلبي ، ويلقى على لساني تلك العبارات التى يجرى بها فمى . . » .

وهكذا كان سعد يأخذ من جمهوره ويعطيه ، يؤثر فيه ويتأثر به ، وكانت حماسة الجمهور تسرى إلى نفسه فيتدفق بالقول ، فيذكى هذه الحماسة وكأنه يلقى على نارها وقوداً جديداً يزيد اشتعالها ويؤجج لهبها .

وفى هذا المعنى قال « مكرم عبيد » فى إحدى خطبه :

« إن خطب سعد مظهر من مظاهر عظمته ، فلا تتجلى فيها روحه فقط ، بل روح الجمهور الذى يسمعه . وإن أخطب الخطباء من خطبت الجماهير فيه قبل أن يخطب فيهم . ولم أر فى حياتى أقدر من سعد زغلول على التشرب بروح الجمهور واستكشاف شعور سامعيه بقوة غريزية . . ولذلك نرى أن أكثر خطبه العظيمة قد خطبها على البديهة . وقد قال لى الرئيس مصداقاً لهذا إن أجمل عباراته جاءته بداهة فى أثناء الخطابة . . » .

ويقول « العقاد » فى كتابه عن سعد :

— وكان أكثر ما يتدفق فى خطبه عندما يتعدى التبادل بينه وبين سامعيه حد الشعور إلى المجاذبة بالكلام . . فإذا سئل ونوقش قليلا تفتح فى القول ، وأخذ من طوالع الملتفين به ما يوحى إليه فنون المقال المناسب لذلك المقام . وكان أسرع ما يكون إلى الإفاضة إذا تكلم أمامه المتكلمون وأحسنوا التعبير والإلقاء ، فإذا أجابهم بعد ذلك جمع أغراضهم كلها وتأهب للكلام ، كما يتأهب الفرس الكريم للإيفاض فى مجال السباق » .

ولذلك كان سعد زغلول يرتجل خطبه ، ولم يكن يعد منها إلا الخطب الرسمية أو التى تضطره ظروف خاصة لإعدادها . ومع ذلك فقد كان فى بعض هذه الأحوال يغلب عليه الارتجال فينحى الورق جانباً ويندفع كالسيل جارفاً أمامه السدود والقيود .

يقول الأستاذ محمد إبراهيم الجزيرى سكرتيره الخاص : « كان تعبيره فى الارتجال أقوى من تعبيره فى الروية . وقد لاحظت ذلك كثيراً

وصرحت له به مرة فأجابني :

– صحيح . . . أنا أجد ذلك فى نفسى .

والواقع أن سعداً كان أبلغ المرتجلين ، تسعفه بديهة حاضرة ، وخاطر سريع التلبية ، هما عدة الخطيب المرتجل فى مواطن الحرج .

وما أكثر ما يمكن أن يروى عن بديهة سعد .

حدث أن أقام له الأطباء الذين عالجوه حفلة قبل مغادرته المستشفى ، ابتهاجاً بشفائه من الاعتداء الأثيم الذى وقع عليه . وخطب سعد فشكرهم بأسمائهم ، ثم التفت إلى أحدهم ولم يكن يعرف اسمه فسأله عنه ، ثم قال :

– « إني وإن كنت لم أذكر أسماءكم فإن صوركم منقوشة على صفحات قلبي ، وهى تحوط الرصاصة التى فى صدرى ، وتحفظنى منها . . » .

وحدثنى المهندس عبد المجيد بدر عن بديهة « سعد » وحسن تخلصه ، فقال إنه ذهب يزور سعداً فى بيت الأمة بعد أن تخرج من « مدرسة المهندسخانة » وعين مهندساً صغيراً فى أحد مرافق القاهرة ، وكان سعد رئيساً لمجلس النواب ، وفى مكتب « سعد » ببيت الأمة وجد عنده المهندس عثمان محرم وزير الأشغال ، والأستاذ أحمد لطفى السيد ، فلما انصرف عثمان محرم أخذ « سعد » يثنى على كفاءته كمهندس رى ، ويقول إنه يعرف كل ترعة ومسقى وقنطرة فى البلاد كلها . وكان « سعد » يتجه بحديثه إلى عبد المجيد بدر ، فقال له لطفى السيد معاتباً ومداعباً :

– ما هذا يا باشا . . ؟ ! أنا أفهم أن تزكى المهندس الصغير لدى

الوزير ، لا أن تزكى الوزير لدى المهندس الصغير .

ولم يظهر الحرج على « سعد » لهذه « القفشة » التى تبدو فى محلها ، ولكنه ابتسم وقال على الفور مخاطباً لطفى السيد :

— علمت شيئاً وغابت عنك أشياء .

وسأل لطفى السيد :

— وماذا غاب عنى ؟

وقال سعد :

— غاب عنك أن عثمان محرم نائب عن دائرة دسوق ، وأن عبد المجيد بدر ناخب فى نفس الدائرة ، فأنا أزكى النائب لدى الناخب ، ولا أزكى الناخب لدى النائب . . !

* * *

كان سعد زغلول يتدفق بالكلام المرتجل فيلهب الحماسة ويخلب الألباب ، فإذا قرأت كلامه بعد ذلك أدهشك أنك لا تقع فيه على عبارة جامحة أو كلمة نابية أو منطق سقيم . وإنما هو الكلام الموزون والأحكام المسببة كأنما هو سلسلة من القضايا المنطقية يخاطب بها العقل قبل أن يثير الشعور .

استمع إليه يخطب فى وفد مدينة طنطا الذى سعى إلى بيت الأمة يهنئه بالعيد فى ٨ يونيه سنة ١٩٢١ ، فيقول فى ختام كلامه رداً على اتهامات خصومه :

— يقولون إن لنا أغراضاً شخصية . ولكن ما هى هذه الأغراض ؟

أنطلب مالا وعندنا منه والحمد لله الكفاية ؟ أم نطلب مناصب وقد عرضت علينا الوزارة فرفضناها ؟ أم نطلب جاهاً وقد أنزلت الأمة الضعيف الماثل أمامكم منزلة لم يحلم بها حالم ؟ ليس لنا غرض إلا المصلحة العامة ، وهى فوق كل شىء، وليس لنا إلا عامل واحد هو الإخلاص للوطن . . »

واستمع إليه يقول فى خطبة مرتجلة وهو رئيس للوزارة :

« إن حرية كل واحد منكم محدودة بحرية غيره ، فكل فرد حر فى أن يفكر ويتكلم ويكتب ، بشرط ألا يسب ولا يشتم . وقد نص الدستور على ذلك بقوله إن الحرية مكفولة فى حدود القانون . أنا لست رئيس حزب ، ولكنى وكيل أمة ، قلت ذلك مراراً ، وكررته تكراراً . قلته عقب خروجى من منفاى ، وقلته بعد عودتى منه ، وسأقوله دائماً وأعمل به . فلا أحابى شخصاً لمبدئه السياسى ، ولا أتعرض لآخر لآرائه السياسية . ولكنى أحسن لمن يعمل لمصلحة الوطن وأنكل بمن يسئ إليه ، فمن عمل صالحاً فلنفسه وللأمة ، ومن أساء فعليه إثم ما فعل . ولو أجرم ابن سعد لحقت عليه كلمة العقاب . . »

وفى هذين المثالين نسمع سعداً يرتجل كلامه وكأنه يلقى طائفة من القضايا المنطقية ، وهو مع ذلك يلهب به الشعور ويشعل حماسة الجمهور .

ويقول الأستاذ العقاد فى ذلك :

« قد لاتعجبك من كل قائل تلك الكلمات الموزونة ، والأحكام المسببة والقضايا المقيسة ، ولكنك إذا وقع من نفسك توكيده موقع القضاء المبرم ، واشتعلت فى نفسك شدته كما يشتعل الحريق المضرم ، واطمأنت

بك عظمته اطمئنان الطود الأعظم ، فهنالك ليست الكلمات الموزونة كلمات موزونة ، وليست الأحكام المسببة أحكاماً مسببة ، وليست القضايا المقيسة قضايا مقيسة ، بل هى عاصفة جارفة ، كأقوى ما تكون المبالغة فى اجتراف السامع ، وكأمضى ما تكون الصرخات الجامحات فى خروجها على المنطق والتحليل والتعليل ، لأنها قطعة من نفس قوية انتقلت إليك ، فنقلت معها القوة كما هى فى جوانح صاحبها ، فلا حاجة بها إلى مبالغة المبالغين ولا جموح الجامحين . . »

والواقع أن سعداً كان يجمع بين خصلتين قلما تجتمعان لخطيب . كان يجمع بين القدرة على الإقناع ، والقدرة على إثارة الحماسة والشعور ، فهو فى خطبه وكلامه يخاطب العقل والشعور جميعاً . لهذا كان « سعد » خطيباً شعبياً ، كما كان خطيباً برلمانياً . كان بشخصيته الساحرة وروحه القوى المشتعل ، وبلاغته المتدفقة خطيباً شعبياً يعرف كيف يلهب شعور الجماهير . وكان بقوة عارضته وبراعة تدليله وروعة منطقه خطيباً برلمانياً ممتازاً ، يعرف كيف يهجم ويدفع ، ويجادل ويقنع . ولا يتسع المجال لدراسة مفصلة نستعرض فيها مواقف « سعد » الخطابية فى الجمعية التشريعية عندما كان عضواً فيها ووكيلا منتخباً لها ، أو فى البرلمان الحديث بعد إعلان دستور سنة ١٩٢٣ ، فهذا حديث يطول ، وتضيق عنه هذه الصفحات . وما أكثر المواقف الرائعة الجديرة بالتسجيل فى حياة سعد البرلمانية . وحسبنا أن نذكر هنا بعض المواقف التى تتمثل فيها خصائص « سعد » الخطابية التى أشرنا إليها .

دخل « سعد » البرلمان الأول فى سنة ١٩٢٤ رئيساً للوزارة الدستورية

الأولى ، وتقدم إلى البرلمان بخطبة العرش شارحاً برنامج وزارته . وقد جاء فى هذه الخطبة أن الحكومة مستعدة للدخول مع الحكومة البريطانية فى مفاوضات حرة من كل قيد لتحقيق الآمال القومية بالنسبة لمصر والسودان . ولم تلبث الأندية الخاصة والعامة أن امتلأت بالمناقشات فى خطبة العرش ، وأخذ بعض الناس يشككون فى معانيها ، وقال خصوم « سعد » إنه قد فترت حماسته بعد أن تولى الحكم ، فلم يعد يذكر الاستقلال التام لمصر والسودان بصراحته المعهودة . ووجدت هذه الأحاديث صدى لها بين الشيوخ ، فإذا بلجنة الرد على خطاب العرش تضع مشروعاً للرد يتضمن تفسيراً لعبارتين فى الخطاب . وكان سعد قد أعلن فى أحاديثه وخطبه قبل ذلك عندما شاعت تلك الأقاويل أنه إذا قرر النواب تعديلا فى خطبة العرش ، فإنه يعتبر ذلك طبقاً للعرف الدستورى عدم ثقة بالوزارة يفرض عليه ترك الحكم . وجاء « سعد » إلى مجلس الشيوخ فى جلسة ٢٤ مارس ١٩٢٤ لمناقشة مشروع الرد على خطاب العرش ، وتلى مشروع اللجنة الذى يتضمن تفسيراً للعبارة التى ذكرناها . وتكلم بعض الأعضاء فى الموضوع ، ثم وقف « سعد » ليدافع عن خطاب العرش ، فألقى خطبة تتمثل فيها تلك الخصائص التى ذكرناها .

بدأ كلامه يخاطب عقول الأعضاء ، فشرح لهم وجهة نظره بأسلوب منطقى ، حتى إذا اطمأن إلى أنه وصل من إقناعهم إلى ما يريد ، ألقى إليهم ببعض الجمل المشتعلة ليثير شعورهم بعد أن أقنع عقولهم ، فإذا به يلهب جو المجلس ، وإذا الأيدى تتحرك بالتصفيق ، وإذا الحناجر تنطلق بالهتاف معلنة انتصاره فى معركته الأولى للمجلس .

قال سعد فى خطبته :

— « أيها السادة . . . إنى لا أريد فى هذا الموقف أن ألقى خطاباً سياسياً ، ولا أريد أن أبين غامضاً فى خطبة العرش ، فإن خطبة العرش قد تليت عليكم يوم افتتاح المجلس ، فصفقتم لها تصفيقاً حاداً فى أكثر من موضع ، وكانت أول جملة صفقتم وهتفتم لها هى الجملة التى يُدعى بأنها مبهمة ، وهى الدخول فى مفاوضات حرة من كل قيد ، بقصد تحقيق الأماني القومية بالنسبة لمصر والسودان ، وأن المعنى الذى فهمتموه فى ذلك الوقت ، والذى استفزكم للتصفيق والهتاف ، هو المعنى الذى قصدته الوزارة من تلك الجملة .

أريد أن أقول إننا نحن الوزراء لسنا أجانب عنكم . نحن قسم من البرلمان تخصص لتنفيذ أفكاره وآرائه والتعبير عنها . فالوزارة فى خطبة العرش تعبر عن أفكار البرلمان وآرائه ، فإن كانت أحسنت التعبير عنها فبها ونعمت ، وإن لم تكن قد أحسنت التعبير ، فالبرلمان يرد بما يدل على أنها لم تحسنه . . وهذا الرد قد يكون تعديلا ، وقد يكون تفسيراً ، وقد يكون تأويلا ، وكل هذه عبارات معناها أن الوزارة التى تولت وضع هذا الخطاب وتولت التعبير عن أفكار البرلمان ، قد أساءت التعبير عنه ، فإذا كان الأمر كذلك ، فالوزارة التى تخصصت للتعبير عن أفكار البرلمان وتنفيذ آرائه لا يمكنها أن تبقى بعد هذا فى مراكزها » .

ثم يمضى « سعد زغلول » متابعاً هذه السلسلة من القضايا المنطقية فيقول :

« التفسير المراد إدخاله إما أن يكون مفهوماً من الخطبة أولا يكون

مفهوماً منها . فإن كان مفهوماً منها فهو عبث محض . لأنه إذا كان كل قارئ للخطبة يفهم منها ما يفهمه من التفسير ، فإذن لا حاجة للتفسير . وأما إذا كان لا يفهم منها المعنى الذى يراد تفسيره . ويراد أن يلقى فى ذهن السامع أو القارئ شىء جديد ، فهذا مالا تقبل معه الوزارة البقاء . لأنه يكون بمثابة لطمة لا تتحملها وزارة أجهدت نفسها فى وضع المبادئ وتحرير المعانى لخطبة العرش .

نبئونى يا حضرات الأعضاء . . . أخبرونى . . . ما الذى يراد بالأمانى القومية ؟ .

هل فهمتم من الأمانى القومية معنى آخر غير الاستقلال التام ؟

الأمانى لغة جمع أمنية . والأمنية هى ما يتمناه الإنسان ، والقومية نسبة للقوم ، والقوم هم المصريون . والمصريون ما الذى يتمنونه ؟ يتمنون الاستقلال التام . وإذن فالأمانى القومية هى عبارة عن الاستقلال التام لمصر والسودان . .

إن كان للأماني القومية معنيان ، معنى هو الاستقلال التام ، ومعنى آخر أقل من هذا الاستقلال ، كنت أفهم لهذا التفسير معنى . . ولكن إذا لم يكن هناك تعدد فى المعنى ، وكانت العبارة لا تدل إلا على معنى واحد هو الاستقلال التام ، فأنا لا أفهم معنى لتفسير هذه العبارة إلا الرغبة فى إرضاء الخصوم ، فهل ترضون بذلك ؟ إنى لا أقبل على شرفى وشرفكم أن نتطوح إلى هذا الحد ، فتجرح كرامتى إذا كنت أقبل تفسيراً لكلمة واضحة ، خصوصاً على يد مجلس أعتمد على ثقته فى إدارة شئون البلاد . كيف أقبل أن أشترك فى عمل مع مجلس يضن علىّ

بلفظة ، ويقول إني رغماً عنك ، وإرضاء للخصوم ، أفسر كلامك مع كونه واضحاً ؟ أنا لا أقبل ذلك مطلقاً ، فالواقف بين أيديكم هو الذى يصيح ، صباح مساء ، مطالباً بالاستقلال التام لمصر والسودان . . » .

ثم مضى الخطيب العظيم يمزج المنطق بالحماسة بعد أن ملك زمام الموقف ، ويقول :

« ما هى خطبة العرش ؟ إنها الخطة السياسية التى تجرى الوزارة عليها . هذه الخطة السياسية معروفة أيها السادة ، فقد كتبت بدماء الشهداء ، ونقشت على قلب كل مصرى ، وهى السعى للحصول على الاستقلال التام لمصر والسودان . هذه هى الخطة التى جرت الوزارة عليها قبل أن تتولى الحكم ، وبعد أن تولته . إنها خلاصة للخطب التى سمعتموها ، والمقالات التى قرأتموها والبيانات التى نشرت عليكم . فهل يخطر فى بال أحد أن الوزارة تريد أن تتلاعب بالأفهام ، وأن تغمض وتبهم لكى ترضى قوماً على حساب مصالح الوطن ؟ كلا وألف مرة كلا ! إنى أشكر اللجنة على أنها قالت إنها واثقة كل الثقة بالوزارة ، أشكر اللجنة وحضرة المقرر ، ولكنى أرجوه وحضرات إخوانه أن يلتفتوا إلى أن هناك فوزاً أجدر منه وأليق ، وهو التصديق على خطبة العرش دون تفسير » .

ثم التفت إلى مقرر اللجنة وهو يختم كلمته قائلا :

« تقول إنك واثق بى ولكن تأتينى بما يرضى خصومى ، وتقول كما يقول الخصوم ؟ تقول إني واثق بالوزارة ولكنى أطلب التعديل ؟ الوزارة لاتحتمل هذا . ولا يمكننى باعتبارى وطنياً ، ورئيساً للحكومة ، ومعتنقاً

للمبادئ الدستورية ، أن ألمح ولو من بعيد أن هناك عدم ثقة مهما غُطيت ، ومهما لفت ، ومهما ستِرت . لا يمكنني بعد هذا أن أبقى دقيقة واحدة فى منصة الحكم . . » .

بهذا الأسلوب المنطقى كان « سعد » يرتجل خطبه فى البرلمان ، بل كان هذا طابعه حتى فى أشد خطبه إثارة للحماسة . ولقد أدلى فى عام ١٩٢٤ بحديث إلى مراسل إحدى الصحف البريطانية ، قال فيه للمراسل :

« اقرأ جميع خطبي تجد أننى لم ألق كلاماً على عواهنه ، بل جعلت لكل كلمة مستنداً ، فقررت وقائع وقدمت أدلة » .

وهذا هو رأى سعد فى خطبه . لا يلقى الكلام على عواهنه ، بل إن أشد خطبه اشتعالا وأعظمها توهجا وإثارة للحماسة ، تثبت بعد ذلك للتحليل المنطقى والقراءة الهادئة .

حدث فى أثناء نظر الميزانية أن تكلم أحد المعارضين يحتج على عدم تقديم ميزانية مفصلة للمبلغ الذى تدفعه الحكومة للسودان . وقامت بينه وبين سعد زغلول رئيس الوزراء مناقشة قرر فيها سعد أنه يوافق العضو المعارض على اعتراضه ولكنه لا يملك إجابته ، لأن ميزانية السودان تضعها حكومة السودان التى لم تقدم ما طلبته الحكومة المصرية من بيانات فى هذا الصدد ، وقرر أنه يأمل أن تحل هذه المسألة بالمفاوضة مع الحكومة البريطانية ولكن النائب المعارض أخذ يطعن فى مبدأ المفاوضة ، ويطلب من الحكومة أن تجد طريقة أخرى . وطالت المناقشة بينه وبين سعد على غير طائل ، فقام « سعد » وارتجل خطبة قال فيها :

— يراد منا أن نقدم ميزانية السودان ، ونحن لم نضع له الميزانية ، بل السودان هو الذى يضع ميزانيته ، فنحن لا نستطيع أن نقدمها لأنها ليست تحت يدنا ولم نضعها . وأنا أقول بأنه كان يجب أن تكون ميزانية السودان معنا ، وأن نكون نحن واضعيها ، ويجب أن نسعى لذلك ؛ وأنا ساع له ، ومعتمد على قوة الأمة وعلى حقها فى هذا ، ولدى الأدلة القاطعة والحجج القوية . ولكن لمن أقدمها ؟ ألحضرتك . . . ؟ ! نحن نريد حقوقنا ، وأمامى طريق مفتوح أريد سلوكه لأصل إلى غايتى ، ولكنك لا تريد ذلك .

فماذا أصنع إذا كنت تطلب ميزانية السودان ، وتمنعنى فى الوقت نفسه من مخاطبة واضعى اليد عليه . . . ؟ ! إما أن تتبع طريقتى وإلا فدلنى على خير منها . أما أن تطلب منى أن أفعل شيئاً ولا تدعنى حراً فى أن أسلك الطريق الذى أراه موصلا لما تريد ، فذلك فوق مقدورى . وإن أردت أن تطاع ، فمر بما يستطاع . . » .

وبعد أن أفاض « سعد » فى هذا المعنى بهذا الأسلوب المنطقى ، الذى خاطب به عقول الأعضاء ، عاد يخاطب عواطفهم ، ويستثير شعورهم ، ويقول :

« المسألة جد لا هزل ، وعمل لا كلام . نحن هنا نتحمل مسئولية كل أمر نقرره ، فيجب علينا قبل أن نصدر قراراً فى هذه المسائل الهامة أن ندرسها وألا نطيع الهوى ، بل نستشير العقل والحكمة . فكر فى ذلك جيداً ولا تسع لإحراجى ، لأننى لا أريد إلا ما تريده الأمة ، فإذا أحرجت زغلولا فقد أحرجت الأمة . أجل . . إننى لا أسعى فى

سياسة غير سياسة الأمة ، والذى يرشدني ويدفعني إلى ذلك صوت فى ضميرى صرخ قبل أن يصرخ فى قلب أى إنسان ، وهذا الصوت يناديني دائماً للقيام بالواجب . اختر لك أحد أمرين إما أن تأمرني بالمفاوضة أو لا تأمرني . وفى الحالة الأخيرة يجب عليك أن تترك السودان وتكتفى بأن نتكلم معاً . . ! إننى أيضاً أعرف الخطابة والألفاظ المنمقة ، كتقوية إيمان الأمة ، وعدم توجيه مجهوداتها للخيال ، أستطيع أن أقول كل ذلك وزيادة ، وأنا أخطب منك . . » .

ثم ختم خطبته بهذه العبارة المشتعلة التى أثار بها عاصفة من التصفيق والهتاف :

نحن فى مراكزنا لا ندين بها إلا للأمة ، ولا نخشى إلا صوتها ، فإن رأيتم فينا اعوجاجاً فقوموه — لا بألسنتكم — بل بسيوفكم » .

* * *

كانت فى سعد فكاهه حاضرة على البديهة ، يستعين بها أحياناً فى خطبه ، فتكون كما يقول « العقاد » نوعاً من المنطق المختصر ، لا فرق فيه بين النكتة اللاذعة والحجة الصادعة .

كان يخطب فى نادى « سيروس » ، وتحدث عن تصريح ٢٨ فبراير الذى اعترف فيه الإنجليز باستقلال مصر مع تحفظات أربعة تهدر هذا الاستقلال ، فشبه التصريح والتحفظات بالناقة التى وضع صاحبها فى رقبتها حذاء ثم مضى بها إلى السوق . وكانت الناقة جميلة قوية ، فأراد أعرابى أن يشتريها ، فقال له صاحبها إنها بغير الحذاء المعلق فى رقبتها تساوى ديناراً واحداً ، ولكنها مع الحذاء تباع بألف دينار . ولما كان الأعرابى

إنما يريد الناقة دون الحذاء فقد عرض ذلك على صاحبها الذى قال له إنه لا يبيع الناقة بغير الحذاء ، فقال الأعرابي متحسراً :

– والله إنها لمليحة . . لولا الملعونة فى رقبتها . . !

قال « سعد » ذلك ثم ضحك ، فدوى المكان بتصفيق السامعين وضحكهم . ولقد يذكر الذين حضروا هذا الحفل أنه عندما هدأت عاصفة الضحك والتصفيق ، وسكت الناس ، كان أحد المستمعين ما يزال مسحوراً بضحكة سعد ، فما كاد « سعد » يعود إلى الكلام حتى وقف يصيح فى عصبية حادة :

– الله ياباشا . . دا انت ضحكتك حلوة . . حلوة قوى !

وهذا هو أثر « سعد » فى سامعيه . هذا الأثر الذى جعل فلاحاً من قنا يبكى وهو يسمعه يخطب فى الاحتفال بعيد النيروز ، ثم أفاق لنفسه وهو شيخ لم يتعود البكاء ، فطفق يعجب لنفسه ويسأل من حوله .

– لماذا أبكى ؟ أمات أبى ؟ أماتت أمى ؟ أغرقت مراكبي ؟ أأجدب زرعى ؟ وما لهذا الرجل يبكينى ؟ أساحر هو ؟ أفاتن هو ؟ والله لا أدرى .

وكانت لسعد قدرة كبيرة على إرسال جملة واحدة تحمل من المعانى ما تحمله الخطبة الكاملة .

كان يرتجل هذه الجمل الحاسمة ، الزاخرة بالإقناع والتأثير ، فلا تلبث أن تصبح من الجمل المأثورة فى أفواه الناس .

وقف يخطب فى ٢٥ أبريل ١٩٢١ ، وكان الخلاف قد وقع بينه

وبين حكومة عدلى يكن بشأن رياسة وفد المفاوضة مع الإنجليز . وكان « سعد » يرى أن تكون له رياسة الوفد ، باعتباره الوكيل عن الأمة التى اختارته للتحدث باسمها والمطالبة بحقوقها . أما الحكومة القائمة فى ظل الحماية البريطانية والتى لا تستطيع الاستمرار فى الحكم إلا برضاء الحكومة البريطانية وموافقتها ، فإنها لا يمكن أن تمثل الشعب المصرى فى مثل هذه المفاوضة .

أراد « سعد » أن يصور هذه المعانى كلها ، فلخص حججه فى جملة واحدة عندما قال « جورج الخامس يفاوض جورج الخامس . . »

ووقف يخطب فى الحفلة التى أقيمت لتكريم « صادق حنين » عندما فصلته وزارة « عدلى يكن » فى تلك الأيام بسبب تأييده لسعد ، فاستهل كلامه قائلا :

– لا أقول لصادق حنين إلا كلمة واحدة : كفاك شرفاً أن فصلتك الوزارة العدلية . . !

وقال فى إحدى خطبه مشيراً إلى وزراء ذلك العهد :

– « لنترك هؤلاء النفر المساكين المسجونين فى سجون وظائفهم ، فإنهم ليسوا أهلا لخصومتنا » .

وكان فى مكتبه يوماً ببيت الأمة وعلم أن رجال الشرطة يضربون الوفود الهاتفة ، فخرج إلى الشرفة مغضباً كالليث انتهك عرينه ، فرأى بعض الضباط المصريين يحملون العصى ويطاردون الناس فى فناء البيت ، فصاح فيهم قائلا :

– « أقسم بالوطن وعزته لو تركتم وشأنكم لكنتم لنا لا علينا »

فتراخت أيديهم وألقوا عصيهم وانسحبوا من الدار .

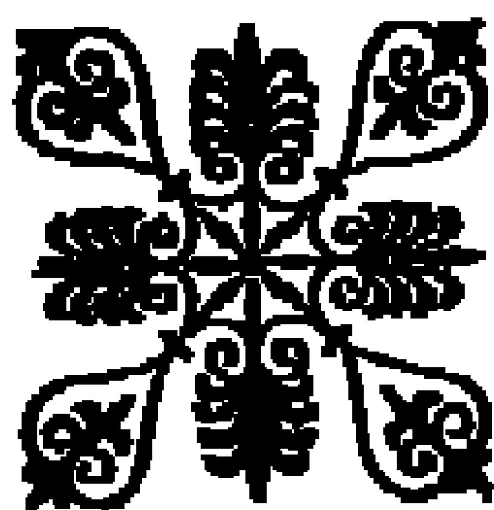
هذا هو سعد الخطيب . وصفه الكاتب الأديب أحمد حسن الزيات فقال :

– لم ير التاريخ المصرى بل الشرق قبل سعد خطيباً بليل اللسان ، ندى الصوت طلق البديهة ، دامغ الحجة ، حافل الخاطر ، رائع البيان ، أنيق اللهجة حسن السمت ، يزاوج بين المنطق والشعر ، ويعاقب بين الإقناع والإمتاع ، ويراوح بين الجد والهزل ، ويتصرف فى فنون القول تصرف الشاعر برقة الأسلوب ، والفيلسوف بدقة الفكر ، والموسيقى بجمال الإيقاع ، وكل ذلك فى هالة من الشخصية المهيمنة الجذابة تساعد بلاغة اللسان والعين واليد بشعاع إلهى باهر ، ينفذ إلى النفوس المتكبرة فتتضع ، وإلى الأذهان المكابرة فتقتنع ، وإلى القلوب اللينة فتماع .

خطباء الحروب

« إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين . . »

قرآن كريم



خطباء الحروب

قد يبدو للنظرة العابرة أن الخطابة ليس لها موضع في الحروب ، حيث الكلمة الأخيرة للقوة . وحيث لا تسمع إلا أصوات القذائف تحمل الهلاك والدمار ، وحيث :

السيف أصدق إنباء من الكتب   فى حده الحد بين الجد واللعب

ولكن الواقع أن للخطابة قديماً وحديثاً أثرها الكبير فى الحروب ، فهى الوسيلة الأولى لبث الحماسة فى نفوس المقاتلين ، وتقوية الروح المعنوى ، وهو أمر ضرورى لكسب الحرب .

أما فى الزمن القديم ، حيث كانت الحروب أقل تعقيداً وأبسط أسلوباً ، إذ كانت التحاما بين جيوش محدودة العدد ، فى رقعة محدودة من الأرض ، يحمل كل فريق أسلحة متماثلة من سيوف ورماح ونبال ، فقد كان للشجاعة أثر حاسم فى النصر ، لأن المقاتل لم يكن يخوض المعارك داخل دبابة أو مصفحة ، ولم يكن يصيب عدوه وبينهما المسافة الشاسعة ، وإنما كان يلقاه وجهاً لوجه فيكون بينهما نزال وصراع ، الغلبة فيه للكمى الشجاع .

وفى تلك الحرب لم يكن القواد يديرون المعارك من مكاتبهم وراء خطوط القتال ، بل كانوا ينزلون مع جيوشهم إلى الميدان ، ويشاركون فى القتال ، فكان اتصالهم لذلك مباشراً بالجنود . وكان من المألوف أن يخطب القائد

جنوده قبل المعركة ليشعل فيهم نار الحماسة ، لأن الجندى القوى الروح الذى يؤمن بالفكرة التى يحارب فى سبيلها أقدر على الحرب من سواه .

وقد حفظ لنا تاريخ الحروب القديمة الشواهد التى تؤكد هذه الحقيقة ، كما حفظ لنا كثيراً من الخطب الرائعة التى خطبها القواد ، والتى أصبحت جزءاً من تاريخ تلك الحروب .

وحسبنا من تلك الشواهد شاهد واحد مما نعلمه عن حروب المسلمين فى صدر الإسلام . فقد قهر المسلمون بجيوشهم القليلة الفرس والروم ، وبسطوا سلطانهم على الشام ومصر وشمال أفريقيا ، ثم عبروا البحر إلى الأندلس ، وكونوا إمبراطورية ضخمة امتدت من الهند إلى فرنسا ، وكان أكبر عامل لهم على النصر هو ذلك الإيمان القوى ، وتلك الحماسة الدينية التى كانت تدفع بالجندى منهم إلى القتال وهو يتمثل بقول الشاعر .

ولست أبالى حين أقتل مؤمنـــاً على أى جنب كان فى الله مصرعى

كانوا يؤمنون بأنهم جنود الله ، يحاربون فى سبيل دينه ، فكانوا يقبلون على القتال وهم يؤمنون بأنهم فائزون على كل حال ، فمن عاش وانتصر فله الغنيمة والفخر ، ومن استشهد فله الجنة ، فكانت جيوشهم القليلة العدة والعدد تنتصر على الجيوش الجرارة التى تساق إلى الحرب وليس لجنودها ما للعرب من حماسة وإيمان . وصدق الله تعالى حين يقول فى كتابه الكريم : «إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون» هكذا كان يحارب الجندى المؤمن ، الذى تمتلئ نفسه بالقوة ، وتفيض حماسة وإيماناً . ولقد كان لخطب القواد أثر كبير فى إشعال هذه الحماسة . فهذا خالد بن الوليد ، سيف الله المسلول

اعتاد أن يخطب جنوده خلال المعارك . هذا هو يقف بين الصفوف التى كانت تتأهب للالتحام بالروم فى فلسطين ويخطب قائلا :

– أيها الناس

« انصروا الله ينصركم ، وقاتلوا فى سبيل الله ، واحتسبوا أنفسكم فى سبيل الله ، واصبروا على قتال أعدائكم . وقاتلوا على حريمكم وأولادكم ودينكم . واعلموا أن ليس لكم ملجأ تلجأون إليه ، ومكمن تكمنون فيه . فأقرنوا المناكب . وقدموا المضارب ، ولا تحملوا حتى آمركم بالحملة . ولتكن السهام مجتمعة إذا خرجت من القسى كأنها تخرج من كبد قوس واحد ، فإنه إذا تلاحقت السهام رشفاً كالجراد لم يخل أن يكون فيها سهم صائب » . . . إلى آخر ما قال .

وهذا طارق بن زياد يعبر البحر إلى أسبانيا عند الصخرة التى سميت باسمه ، ثم يقف فى جيشه خطيباً ، فيلقى على جنوده خطبته الشهيرة التى يقول فى أولها :

– أيها الناس

أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر . واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام .

وهل ننسى الحرب الصليبية التى شغلت القرن الثانى عشر ، لقد كان الخطباء من رؤساء الأديان هم الذين يشبون نارها ، ويــذكون أوارها ، بخطبهم التى كانت تدفع إلى التعصب الدينى ، حتى لقد روى أن القديس برنار ، وكان خطيباً بارعاً ورئيساً لأحد الأديرة فى فرنسا ، كان إذا نزل

ببلدة ليخطب فيها أخفى الأمهات أولادهن ، والزوجات أزواجهن ، خوفاً من إغراء الخطيب لهم بالتطوع ، لأنه كان إذا خطب فى الحض على قتال المسلمين امتلك قلوب سامعيه .

ولكن ما هو أثر الخطابة فى الحروب الحديثة ؟

لا شك أن أسلوب الحروب قد تغير تغيراً كاملا ، فأصبحت الجيوش تحشد بالملايين ، وساعد العلم الحديث على ابتكار الوسائل الجديدة ، فعرف عصرنا الحرب الميكانيكية التى تعتمد على الدبابات والطائرات والصواريخ ، وضعفت الصلة المباشرة بين القائد وجنوده ، لأن القائد يدير المعارك بوسائل العلم الحديث وهو جالس فى مقر قيادته بعيداً عن خطوط القتال . وقد لا يرى الجند قائده إلا مصوراً فى الصحف . ومع ذلك فإن للخطابة فى الحروب الحديثة أثرها الملحوظ ، وإن تغير أسلوبها تبعاً لتغير أسلوب الحرب وظروفها . ولما كان من المستحيل أن يجمع المحاربون فى مكان واحد ، فإن الجنود تسمع الخطب مذاعة بالراديو وتتلقى النداءات الحماسية فى شكل أوامر يومية . وليس بالنادر مع ذلك أن يستعرض القائد بعض فرق جنوده ويلقى عليهم خطبة يسمعونها ويقرؤها زملاؤهم فى النشرات . إن المدفع فى حاجة إلى رجال يقومون عليه ، والدبابة تتطلب رجالا يوجهونها ويستخدمونها ، وكل آلات الحرب وأدواتها لا تعمل وحدها . فلابد لها من جنود ، وبقدر شجاعة هؤلاء الجنود وحماسهم يكون أثرها حاسماً فعالا .

وهذا هو رأى أحد أبطال الحرب العالمية الثانية . فقد وقف القائد الشهير « مونتجومرى » فى إحدى مدن إيطاليا يودع الجيش الثامن قبل سفره إلى بريطانيا ليتولى قيادة الجيوش البريطانية المعدة لغزو أوربا ، فكان

مما قاله فى خطبته :

– وإذ سألتمونى ما هو العامل الجوهرى الأول للانتصار فى الحرب ، فإنى أقول لكم إنه العامل البشرى ، إذ يجب أن نذكر أن الدبابات والسيارات المدرعة أو البوارج ليست هى التى ستكسب هذه الحرب ، بل هم الرجال الذين يحركونها ، وهذه الحقيقة مهمة جداً ، فإن العامل البشرى هو المحور الذى يدور حوله كل شىء . . »

هذا هو ما قاله « مونتجومرى » ، فإذا كانت حالة الجنود المعنوية وشجاعتهم عاملا مهما فى النصر : فإن الخطابة فى صورها المختلفة أهم وسيلة لبث الشجاعة وإثارة الحماسة فى نفوس الجنود .

ومن ناحية أخرى فإن ويلات الحرب الحديثة لم تعد مقصورة على الجنود فى ميادين القتال ، بل شملت المدنيين من غير المحاربين فى بيوتهم ، وأصبحت المدن والقرى فى خط النار الأول ، بعد أن حملت الطائرات والصواريخ إليها الموت والدمار بالليل والنهار . لذلك كان من الضرورى الاحتفاظ بالقوة المعنوية للأهالى المدنيين أيضاً ، وإلا انهار الشعب قبل أن تنهار الجيوش فى الميدان . وهنا يبدو الدور الهام الذى تلعبه الخطابة فى الحروب الحديثة . وقد عرفت الحكومات لها هذا الخطر ، فأنشأت وزارات خاصة للدعاية والإعلام ، وسمعنا نوعاً آخر من الخطب الحربية ، تلك التى يلقيها الساسة والزعماء يستنفرون بها شعوبهم للحرب ، ويبثون فيهم القوة على احتمال ويلاتها . وهل ينسى أحد الأثر الذى كان لخطب ونستون تشرشل ، رئيس وزراء بريطانيا خلال الحرب العالمية ، فى الحالة المعنوية للشعب البريطانى ؟ إننا مازلنا نذكر تلك الخطب الرائعة فى الأيام

العصبية التى تلت انهيار فرنسا ، عندما وقفت بريطانيا وحيدة فى الميدان ، وهتلر يرسل إلى سمائها مئات من طائراته أفواجا متعاقبة تمطر المدن الآمنة بالقنابل ، فتقتل المدنيين وتنشر الدمار ، وزعيم ألمانيا النازية يهدد بمحو المدن البريطانية من الوجود ، ويلوح فى الوقت نفسه للشعب البريطانى بغصن الزيتون قائلا إنه يبسط يده للشعب البريطانى لأنه لا يرى معنى لاستمرار هذه الحرب . ولعله كان يقصد بذلك إلى تحطيم روح الشعب البريطانى كى يحمل زعماءه على عقد الصلح مع هتلر .

وكان تشرشل الرجل الذى ادخرته الأقدار لتلك الساعة الحاسمة ، فوقف وسط الخرائب والموت والآلام كالجبل الراسخ ، وارتفع صوته بخطبه النارية توحى إلى الشعب بالثبات والصمود والتصميم فيقول :

– نحن نحارب بمفردنا ، ولكننا لا نحارب من أجل أنفسنا فقط ، ونقف بلا خوف ولا وجل فى انتظار المعركة المقبلة . وإذا استطاع الغزاة أن يضعوا أقدامهم فوق أرض إنجلترا ، فإنهم لن يجدوا تسليماً وإلقاء للسلاح ، ولن يجدوا شعباً مهيناً يقبل الذل ، ولكننا سنقاتل ونداقع عن كل قرية وكل مدينة ، وسيقاتل سكان لندن نفسها فى كل شارع من شوارعها حتى يلتهموا العدو فى جيشه العظيم ، وإننا لنفضل أن نرى لندن وقد تحولت أنقاضاً وأكواماً من الرماد ، من أن نراها مستعبدة فى خضوع واستكانة . . »

ويقول فى خطبة أخرى :

– ليس من الوهم أن أقول إن هذه الأمة قد عقدت النية على أن تفوز أو تموت ، فما أعظم الفوز الذى نالته روح هذه المدن المهدمة على شر ما تستطيعه النار والقنابل . إن كل واحد يفخر بأنه تعرض لنار العدو ،

وبأنه يشاطر الجنود والبحارة ما يتعرضون له من أشد التجارب فظاعة ، ولا شك فى أن هذا العهد هو عهد بطولة عظيمة فى تاريخنا ، وأن نور المجد يسطع فوق رءوسنا . . . »

ثم يقول فى خطبة أخرى :

– سنقاتل فى فرنسا ، وفى البحار ، وفى المحيطات ، وسنقاتل فى الجو بقلوب قوية ، وسندافع عن جزيرتنا مهما كان الثمن ، وسنقاتل فى الحقول ، وفى الشوارع ، وعلى رءوس الجبال ولن تلقى السلاح ، وإذا فرض – وهو مالا أعتقده لحظة واحدة – وخضعت هذه الجزيرة أو جزء منها وتضورت جوعاً ، فستواصل إمبراطوريتنا النضال فيما وراء البحار ، وتستمر فى كفاحها إلى أن يأذن الله بظهور عالم جديد . فمن أعماق المحن والتضحيات ينبعث من جديد مجد بنى الإنسان » .

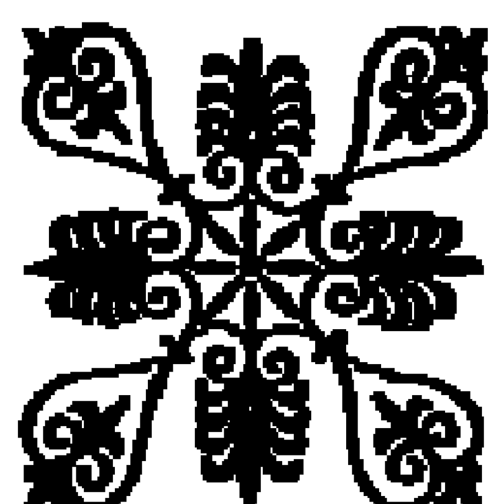
بمثل هذه الكلمات كان تشرشل يغذى روح الشعب البريطانى حتى استطاع أن يكسب الحرب .

وفى مواجهة تشرشل كان يقف « هتلر » ذلك العبقرى المجنون الذى هب على العالم كالإعصار المدمر ، وكان بدوره خطيباً من طرازفريد . وكذلك كان « موسولينى » حليفه وأستاذه السابق ، مؤسس الحركة الفاشية . ولكننا لا نتحدث فى هذا الكتاب عن الخطباء المعاصرين .

وحسبنا أن نختار من خطباء الحروب ، نابليون بونابرت ، أعظم عبقرية عسكرية ظهرت فى العصور الحديثة .

نابليون بونابرت

« لقد حول بونابرت معاركه الأولى بسحر بيانه
إلى انتصارات كبيرة فجعل لها مكاناً فى التاريخ »
إميل لودفيج



نابليون بونابرت

ليس هذا الفصل ترجمة لحياة نابليون . فإن تاريخ هذا القائد الكبير معروف مشهور . ولكننا نتحدث عنه كخطيب .

ولقد يقال ما شأن هذا القائد بالخطابة وقد قضى حياته فى الميدان ، وبنى مجده على الانتصارات الحربية ، وأقام إمبراطوريته على أسنة الحراب ؟

والواقع أن نابليون كان فى الصف الأول من خطباء الحروب ، ولعله كان أعظمهم جميعاً .

إن من يقرأ الخطب والنشرات التى كان يذيعها نابليون فى الجنود يشعر بما كان فى كلامه من بلاغة وقوة وإشراق . فكان أسلوبه يمثل ما فى الطبع الفرنسى من حماسة مشبوبة وخيال مضطرم .

تلقى نابليون علومه فى مدرسة « بريان » ، ثم فى المدرسة الحربية بباريس وكان « دومارون » أستاذه فى الأدب يشبه كتابته بحجارة الصوان المحماة فى البركان . وقد نشأ مشغوفاً بالعلوم والآداب والفنون ، يحترم أهلها ويقدرهم ، وظل يحتفظ معتزاً بلقب « عضو الجمعية العلمية الوطنية » وقد ورد فى مذكرات « دى بوريان » كاتبه وكاتم سره أنه قال له يوماً بعد أن شهد تمثيل إحدى روايات « كورنيل » :

— لو كان رجل مثل كورنيل يعيش فى أيامى هذه لاتخذته وزيرى الأول .

وكان نابليون يقرب إليه الممثل « تالما » الذى كان يستطيع أن يعد

نفسه صديقاً للإمبراطور ، وقد قيل إن « تالما » كان يعلمه الإلقاء .

على أن نابليون كان قبل كل شيء رجل حرب ، بنى لنفسه بحسامه مجداً كسف مجد « هانيبال » ، وغطى على مجد الإسكندر ، وأنسى الناس مجد قيصر ونبغ فى فنون الحرب نبوغاً لم يشهده التاريخ من قبل ، وانتصر فى ستين معركة أثار غبارها وخاض غمارها .

ومهما قيل فى العوامل والأسباب التى كانت تكفل له هذا النصر ، فلا شك أن نابليون نفسه كان العامل الأول فى هذه الانتصارات . كانت له شخصية ساحرة جعلته معبود الجنود ، ما يكاد يظهر لهم بمعطفه الرمادى الطويل ، وحذائه العالى ، وقبعته المثلثة الأركان تعلو رأسه المستدير ، وتقاطيعه التى كأنما قدت من الصخر ، وما يكاد يلوح لهم بقامته القصيرة وعينيه البراقتين الرماديتين ، وكتفيه اللتين تتمثل فيهما القوة الهائلة ، حتى تسرى فيهم حماسة جارفة تطلق ألسنتهم بالهتاف وتبعث فيهم الشوق إلى القتال .

وليس أدل على قوة تأثيره فى الجنود من أنه عندما هرب من جزيرة « إلبا » لم يكن يعتمد على شيء سوى هذا الحب الذى جعل الجنود على طول الطرق يهرعون إليه هاتفين مهللين . وقد أرسلت فصيلة لصده والقبض عليه ، فالتقت بالجنود الذين كانوا معه عند ممر « لافريه » ومنعتهم من المرور ، فأسرع نابليون وترجل عن جواده ، فصاح قائد الفصيلة يأمر جنوده بالاستعداد لإطلاق النار . ولكن نابليون تقدم إليهم وصاح فيهم قائلاً :

– ما بالكم أيها الرفاق ؟ ألا تعرفوننى ؟ أنا الإمبراطور . ألا ترون قائدكم ؟ . إذا كان بينكم من تحدثه نفسه بقتل قائده وإمبراطوره فهأنذا

أكشف له عن صدرى .

قال ذلك وكشف عن صدره فتراخت أذرع الجند ثم ارتفع هتافهم بحياة الإمبراطور ، واستأنف العاهل زحفه إلى باريس ووراءه الجيش الذى أرسل لمحاربته ، فدخلها دون أن تطلق قذيفة أو تراق نقطة دم .

وكان نابليون يعرف قوة تأثيره فى الجنود ، ويدرك قيمة ظهوره بينهم فكان دائم الاتصال بهم ، يستغل حبهم له فى إثارة حماستهم بالخطب والنشرات والكلمات المثيرة التى كان يلقيها عليهم خلال المواقع .

وكانت لنابليون كلمات قصيرة مرتجلة تقوم مقام الخطب الطويلة ، فقد يلقى جملة واحدة تحمل من المعانى والتأثير ما تحمله الخطبة الكاملة .

فى الحملة المصرية التقى بجيش مراد بك عند الأهرام ، فلما رأى ذلك الأثر الخالد الذى يمثل حضارة ترجع إلى أربعة آلاف من الأعوام ، صاح فى جنوده :

– إنكم ستقاتلون الآن المتسلطين على القطر المصرى ، ولكن اعلموا أن أربعين قرناً تطل عليكم من قمة هذه الأهرام . .

وفى إحدى المعارك اندفع نابليون وسط المعركة حيث كانت تتساقط القذائف والقنابل ، فعلت أصوات المحيطين به من قواده خوفاً عليه فصرخ فيهم قائلاً :

– لا تخافوا يا أصحابى . . فإن القنبلة المعدة لقتلى لم تصبّ بعد !

* * *

كان نابليون فى كثير من الأحيان يخطب جنوده قبل المعركة يستنفرهم للقتال . ففى حملة إيطاليا الأولى عام ١٧٩٦ وهى أول حملة هامة انتصر

فيها عندما كان قائداً صغيراً ، تولى قيادة جيش قليل العدد والمؤن والذخيرة ، ولم يكن معروفاً لدى كبار ضباطه الذين زعموا أن ذلك الشاب الصغير ذا الوجه النحيل والقامة الضئيلة ، والذى أبرز لهم صورة عروسه مفاخراً بها ، لا يمكن أن يكون تعيينه إلا نتيجة المحاباة . ويقول « مسينا » أحد قواده فى تلك المعركة : « ولكنه بعد أن وضع على رأسه قبعة القيادة ، ظهر كأنما زاد فى الطول قدمين وبدأ يناقشنا فى مراكز فرقنا ، وفى الروح المعنوى ورسم لنا الخطة التى نسير عليها ، ثم أعلن أنه سيقوم فى الغد باستعراض الجيش ويبدأ مهاجمة العدو فى اليوم التالى ، وكان يتكلم بتؤدة وروية وثقة حتى أقنع كل من سمعه بأنه جدير بقيادة الأبطال . . » .

وفى الصباح استعرض الجيش وخطب فى جنوده قائلاً :

أيها الجنود

والله إنكم لجياع عراة ، وإن الوطن مدين لكم بالكثير ، ولكنه عاجز عن إمدادكم بشىء . وإن الصبر والبأس الذى ظهر منكم بين هذه الصخور ليدعو إلى العجب والإعجاب ، وسأمضى بكم إلى أخصب بقاع الأرض ، وستقع فى أيدينا أغنى الأقاليم والمدن ، فأمامكم الثروة الواسعة والمجد الأثيل ، وإن صبركم وتجلدكم لن يجدياكم غير الشرف . . . فيا جنود فرنسا ، هل تنقصكم فى ذلك الشجاعة . . . ؟ !

ويقول إميل لودفيج فى كتابه الرائع عن نابليون : .

– وحول بونابرت المعركة الأولى بسحر بيانه إلى انتصارات كبيرة ، وجسم أهمية هذه الانتصارات فجعل لها مكاناً فى التاريخ ، وأدخل فى روع الأمة أنها أصبحت حرة ، وفى روع الجيوش أنها حققت كل شىء ،

وأن كل شيء أصبح لها . ولقد جاء فى بلاغه للجيش بميلانو : « أيها الجنود . لقد تدفقتم كالسيل من أعالى جبال الأبنين فاستوليتم على ميلانو . نحن أصدقاء جميع الأمم ولا سيما أحفاد بروتس وسبيون وأولئك العظماء الذين اتخذناهم قدوة لنا . من ثمرات انتصاراتكم التى ستبهر الأجيال المقبلة سوف يعاد بناء الكابيتول وتنصب فيه تماثيل الأبطال التى اشتهر بها ، ويحرر الشعب الرومانى الذى لم يذق غير الاستعباد منذ قرون . ولسوف تعودون إلى بلادكم فيقول أبناء الوطن حينما يشيرون إلى الرجل منكم : « لقد كان هذا فى جيش الحملة الإيطالية » .

ثم يتساءل لودفيج :

– من هو القائد الذى يخاطب الجنود بمثل هذه الكلمات المغرية ؟ ومن ذا الذى يخاطب الخيال والمشاعر بدلاً من الدعوة إلى الطاعة كبونابرت ؟ وعندما أعد الحملة المصرية وسافر معها إلى طولون فى طريقه إلى مصر خطب فى جنوده قبل الرحيل فقال :

– منذ سنتين توليت قيادتكم ، وكان الشقاء مخيماً عليكم ، وقد أنفقتم كل شيء حتى ساعاتكم لابتياع ماتسدون به رمقكم ، فوعدتكم بإزالة شقائكم ، وسرت بكم إلى إيطاليا حيث توفر لكم كل شيء. فهل حققت وعودى لكم ؟

فصاح الجنود : أجل .

فاستأنف خطابه قائلاً :

– ولكن اعلموا أنكم لم تصنعوا حتى الآن شيئاً مذكوراً للوطن ، كما أن الوطن لم يفعل شيئاً لكم . وهأنذا الآن أمضى بكم إلى بلاد تسجلون فيها

لكم مجداً يزرى بكل مجد أحرزتموه من قبل ، وتؤدون للوطن خدمات نتوقعها من أبطال الحرب الذين لا يشق لهم غبار . إنكم ستتعرضون لمخاطر جديدة مع إخوانكم البحارة ، فكونوا معهم على متن السفن شاعرين بالعواطف التي يمتاز بها الأشخاص الذين تهمس فى قلوبهم أصوات الواجب الـوطنى . تعودوا أعمال الملاحة وأنتم على المراكب ، واقذفوا الذعر على أعدائكم فى البحر والبر ، وكونوا كجنود الرومان الذين دوخوا قرطاجنة فى البحر وظفروا بها وهم فى سفنهم فى عرض اليم . . » .

وعندما احتاجت حملته فى أسبانيا إلى مدد جديد ، قرر أن يقذف فى المعركة بكتائبه القديمة التي تعودت الظفر بالأعداء ، واستعرض هذه القوات وخطب فيها قائلاً :

أيها الجنود

إنكم بعد أن جررتم أذيال النصر على ضفاف الدانوب والفستول عدتم فعبرتم ألمانيا . والآن أرى أن الشرف الوطنى يضطرني أن أجتاز بكم فرنسا دون أن أمنحكم دقيقة واحدة من الراحة .

– أيها الجنود

إننى محتاج إلى شجاعتكم ، فإن الفهد الكريه الذى يقبع فى أرض أسبانيا والبرتغال يلوث تربتهما . فليفر مذعورا عندما يراكم . هلموا بنا نبلغ بأعلامنا المظفرة أعمدة هرقل ، ونثأر للإهانات التى أرادوا أن يلحقوها بنا . وستنالون جزاء على أعمالكم سلاماً طويل الأجل ، ويسراً مقيماً . إن الفرنسى الحقيقى لا ينبغى له أن يذوق طعم الراحة قبل أن يحطم الحصار البحرى فتفتح فى وجهه البحار وتصبح حرة .

أيها الجنود

إن كل ما فعلتموه ، وكل ما تفعلونه فى سبيل سعادة الشعب الفرنسى ومجده سيخلد فى قلبي إلى الأبد . . » .

ولنستمع اليه يخطب الجنود قبل أن يهاجم جيوش النمسا التى انتهزت فرصة غيابه وانقضت عليه :

– إن أرض المحالفة قد انتهكت حرمتها ، وإن القائد النمسوى يريد أن نفر هاربين من وجه جيوشه وأن نترك نصرة حلفائنا ، ولكنى قدمت بسرعة البرق .

أيها الجنود

لقد كنتم تحفون بى حين جاء عاهل النمسا إلى فى « مورافيا » وقد سمعتموه يلتمس شفقتى ، ويقسم على أن يحفظ لى صداقة ثابتة . ولما كنا قد ظفرنا بالنمسا فى ثلاث حروب ، فلنا الفضل عليها فى كل شىء ، أما هى فقد نقضت عهدها ثلاث مرات متوالية . ولكن ما أصبناه من النصر فى الماضى يضمن لنا ما نتوقعه من نصر فى المستقبل . سيروا بنا ، وليعلم العدو عندما تقع عينه علينا أننا المنتصرون . . » .

وفى معركة « أوسترلتز » حيث ظفر نابليون بإمبراطورين ، وهزم جيشين عظيمين ، خاطب جنوده وهو يستعرض الكتائب المصطفة للقتال قائلاً :

– أيها الجنود

ينبغى لنا أن نختم هذه الحروب بصاعقة لا تبقى ولا تذر .

فرفع الجنود قبعاتهم على رءوس الحراب وصاحوا هاتفين بحياة الإمبراطور. وكان تاريخ المعركة يوافق ذكرى تتويج نابليون إمبراطوراً ، فكان الجنود

يعتبرون أنفسهم فى احتفال بذكرى التتويج . وفى الليلة السابقة للمعركة تفقد نابليون المعسكر متنكراً فعرفه الجنود ، والتفوا حوله ، ورفعوا المشاعل على رءوس الأوتاد ، ودنا منه فارس من أقدم الفرسان فخاطبه قائلاً :

– مولاى . . . إنك لست فى حاجة إلى تعريض حياتك غداً للخطر ، فأنا أعدك باسم فرسان الجيش ألا نجعلك تقاتل إلا بعينيك ، وسنأتيك غداً بأعلام الجيش البروسى ومدافعه لنحتفل بتذكار تتويجك . .

وقد بر الجيش العظيم بوعده للإمبراطور ، ووقف نابليون يخطب جنوده بعد المعركة ويوجه إليهم هذا الكلام البليغ الرائع :

– أيها الجنود

إنى راض عنكم ، لقد كنتم عند ظنى فيكم فخلعتم على ألويتكم حللاً لا تبلى من المجد . فى أقل من أربع ساعات حطمتم جيشاً يربو على مائة ألف مقاتل بقيادة إمبراطورين . أربعون علماً ، ومائة وعشرون مدفعاً ، وعشرون قائداً ، وثلاثون ألفاً من الأسرى ، تلك هى نتيجة هذا اليوم المشهود . لقد أصبح السلم قريباً ، ولكنى لا أريده إلا كما وعدتكم قبل عبورى الراين ، أى سلماً أكيداً يكون فيه الضمان لنا والمكافأة لحلفائنا .

أيها الجنود

عندما وضع الشعب الفرنسى هذا التاج على رأسى كان كل اعتمادى عليكم لتحفظوا له مجده اللامع الذى بدونه لا قيمة له فى نظرى .

أيها الجنود

سأعيدكم إلى فرنسا بعد أن نحقق كل ما يكفل الهناء للوطن ولكم ، فتكونوا موضع الإعجاب والتكريم ، وتستقبلكم الأمة بسرور وفخر ،

وحسبكم يومئذ أن يقول الواحد منكم « لقد شهدت أوسترلتز » ليسمع من حوله يقولون : « إنه لبطل . . » .

وفى أثناء إقامة نابليون فى « شنبرون » بعد معركة أوسترلتز عرض الجيش فلما وصل إلى الفصيلة الأولى من الفرقة الرابعة ، وكان قد تمزق شملها فى المعركة وأضاعت علمها ، وقف نابليون وخاطبهم قائلاً :

– أيها الجنود . ماذا فعلتم بالراية التى سلمتكم إياها ؟ ! لقد أقسمتم على أن تبذلوا أرواحكم فى سبيل الدفاع عنها ، فكيف وفيتم بعهودكم ؟ .

فأجابه قائد الفصيلة بأن حامل الراية قتل فى المعركة فلم يبصره أحد بسبب الدخان الكثيف ، وأن الفصيلة لم تقصر فى أداء الواجب ، فإنها مزقت شمل فرقتين وغنمت علمين قدمتهما لجلالته . فصمت العاهل برهة ، ثم طلب من الضباط والجنود أن يقسموا على أنهم لم يبصروا حامل الراية مجندلاً ، فأقسموا على ذلك جميعاً ، فانبسطت أساريره الجامدة ، وقال لهم مبتسماً :

– وإذن أعيد إليكم رايتكم .

* * *

هكذا كان نابليون يخطب جنوده قبل المعارك ليبث فيهم الحماسة ويستنفرهم للقتال ، كما كان يخطب فيهم أحياناً بعد المعارك ليثنى عليهم ويشكر لهم حسن بلائهم ويعدهم لقتال جديد .

وكان نابليون يصدر نداءات ونشرات تفيض بلاغة وقوة . فعندما فر من جزيرة إلبا وعاد إلى فرنسا ، أعد نشرات للشعب والجيش ، ومما قاله فى نشرته للجيش :

– أيها الجنود

إننا لم نقهر . لقد سمعت نداءكم وأنا فى المنفى فأقبلت إليكم غير مكترث بالمهالك . إن قائدكم الذى اختارته الأمة للجلوس على العرش ، وكنتم ساعده الأيمن ، وعماد عرشه ، قد عاد إليكم فهلموا إليه . انزعوا هذه الأعلام التى نبذتها الأمة ، وانشروا الراية المثلثة الألوان التى حملتموها فى أيامنا العظيمة . لقد تجرع جنود الجيش العظيم كؤوس المهانة ، وامتهنت ندوبهم المقدسة ، واعتبرت انتصاراتهم جرائم ، وبطولتهم تمرداً .

أيها الجنود

تعالوا واجتمعوا تحت لواء زعيمكم وسيسعى إليكم النصر مسرعاً ، وسيطير النسر بألوانه الوطنية من قبة إلى قبة ، حتى يبلغ أبراج كنيسة نوتردام ، وحينئذ تستطيعون أن تفاخروا بإظهار ندوبكم . وعندما تدرككم الشيخوخة ، ويحيط بكم مواطنوكم ليسمعوا منكم باحترام وإعجاب رواية ما كان من مجد ، يستطيع الواحد منكم أن يقول بفخر « وأنا أيضاً كنت من رجال ذلك الجيش العظيم الذى دخل مرتين فينا وروما وبرلين ومدريد وموسكو ، وأنقذ باريس من الوصمة التى لطختها بها يد الخيانة . . » .

وقد ذكرنا كيف نجح نابليون فى إثارة حماسة الشعب والجنود ، فانضمت إليه على طول الطريق الفصائل التى أرسلت لصده ، ودخل باريس دون أن تراق قطرة من الدم ، وعاد إلى قصر التويلرى محمولاً على أكتاف ضباطه القدماء . وفى الصباح عرض الجنود الذين كانوا فى العاصمة وخطب فيهم قائلاً :

– إننى قدمت إلى فرنسا فى تسعمائة رجل معتمداً على محبة الشعب

والجنود فلم يخب أملى .

أيها الجنود . اقبلوا شكرى العميق ، فإن الفخر الذى جنيناه من أعمالنا مرجعه إليكم . إن عرش البوربون غير شرعى ، فقد أقامته أيدى الأجانب بعد أن هدمته الأمة ووافقت على هدمه المجالس الوطنية ، وليس فيه ضمان إلا لمصالح فريق يسير من المدعين المتعجرفين . إننا سنزحف لنطرد من أرضنا أولئك الأمراء الموالين للأجانب . نحن لا نبتغى التدخل فى شئون الأمم الأجنبية ، ولكن الويل لمن يتدخل فى شئوننا . . » .

وعلت أصوات الجنود بالهتاف للإمبراطور ، واتفق فى هذه اللحظة أن وصل جنود الفرقة التى كانت معه فى جزيرة إلبا ، فلما رآهم نابليون صاح قائلاً :

– هؤلاء هم ضباط الفرقة التى صحبتنى فى الضراء ، فكلهم أصدقائى وأعزائى . هؤلاء الشجعان أشخاص من جميع الفيالق يذكروننى بالأيام العظيمة التى لا يزال ذكرها عزيزاً لدى ، وجميعهم تزين أجسامهم ندوب شريفة أصابتهم فى المعارك الخالدة ، وقد أعادوا إليكم راية النسر التى ألقت عليها الخيانة والأحوال السيئة غشاء محزناً ، ولكنها عادت بفضلكم إلى الظهور . فأقسموا على أن تجعلوها دائماً فى المكان الأسمى الذى تدعو إليه مصلحة الوطن ، وليعجز عن النظر إليها الخونة ومن تحدثهم النفس بغزو بلادنا . . . »

وأقبلت إليه وفود من المتطوعين تطلب السلاح للدفاع عن الوطن ، فخطب فيهم قائلاً :

– قدمت وحدى معتمداً على سكان المدن والقرى وجنود الجيش ،

ولقد حققتم جميعاً ثقتي فيكم ، وأقبل ما تقدمونه لي ، وس
وسأجعل عليكم ضباطاً لا تزال آثار الجروح بادية عليهم ، وهم الذين تعودوا أن يروا العدو هارباً أمامهم . .

وهكذا أخذ نابليون يستنهض فرنسا للسير معه من جديد ، وأعلنت الدول الأوربية التي باغتها فراره أنها لن تضع السلاح حتى تقضي عليه .

وأسرع نابليون إلى لقاء أعدائه على أرض بلجيكا ، وخاطب جنوده للمرة الأخيرة فقال لهم :

– أيها الجنود

اليوم تذكار معركتي « مارنجو » و« فريد لاند » اللتين قررتا مصير أوربا مرتين . وقد أظهرنا حينئذ من كرم الخلق مثل ما أظهرناه بعد معركتي أوسترلتز ، ووجرام ، ووثقنا في أقسام وعهود الملوك الذين أبقيناهم على عروشهم ، ولكنهم قد خانوا عهودهم وتألبوا علينا ، وأرادوا العبث بسيادة فرنسا وحقوقها المقدسة . فلنزحف لملاقاتهم . أولسنا نحن وهم كما كنا عليه من قبل؟

أيها الجنود

أمامنا سير عنيف ، ومعارك ضارية ، ومتالف لا مندوحة لنا عن اقتحامها ، ولكننا سنظفر بالنصر إن نحن ثبتنا . لقد دنت الساعة التي يكون فيها شعار كل فرنسي في صدره قلب : إما أن أنتصر أو أموت .

وألقى نابليون بنفسه في أتون المعركة ، ولكن آماله تحطمت في سهل واترلو ، وعاونت الطبيعة على فشل نابغة الحروب ، فتخلى النصر عنه لآخر مرة وللأبد .

وترك نابليون جيوشه المهزومة في الميدن ، وألقى بنفسه في غمرة القضاء

والقدر ، فطوحت به الأقدار إلى جزيرة سانت هيلانة .

ولم تكن له فرصة لتوديع جيوشه التي أحبها ، ولكنه كان قد ودع هذا الجيش قبل ذلك عندما تنازل عن العرش في المرة الأولى قبل نفيه إلى جزيرة إلبا . ففي يوم رحيله من « فونتنبلو » اصطف جنود الحرس الإمبراطوري ليودعهم قبل الرحيل . ورفع نابليون يده مشيراً إلى أنه يريد أن يتكلم فساد سكون رهيب ، وأرهف الجميع آذانهم لتلتقط الكلمات الأخيرة التي يوجهها الإمبراطور إلى رجاله الشجعان . وقال نابليون :

– يا ضباط وجنود حرسي القدماء ، أستودعكم الله فقد سعدت بكم عشرين عاماً ، وكنتم دائماً موضع فخري . إن الدول المتحالفة قد جندت أوربا كلها ضدي . وقد خان قسم من الجيش واجبه ، وشاءت فرنسا لنفسها حظاً آخر . إنني أستطيع أن أخوض بكم وبالشجعان الباقين على ولائي حرباً أهلية تدوم ثلاثة أعوام ، ولكن ذلك يكون وخيماً على فرنسا ويخالف الغاية التي أريدها .

لا ترثوا لحالي ، فإني أكون سعيداً جداً حين أعلم أنكم سعداء . لقد كان الموت مستطاعاً لي ولا شيءأسهل علي من ذلك ، ولكني أسير دائماً في طريق الشرف . وقد بقي علي أن أكتب تاريخ ما فعلنا .

أيها الضباط والجنود

لا تتسنى لي معانقتكم جميعاً ، ولكني أعانق قائدكم ، تعال يا جنرال .

وعانق نابليون قائد الحرس ، ثم طلب راية الحرس فقبلها وقال :

– أيتها الراية العزيزة . فليكن لهذه القبلة دوي في أفئدة جميع الشجعان . الوداع يا أولادي ، ولتصحبكم دائماً تمنياتي الطيبة ، فاحفظوا ذكراي .

بعض مراجع الكتاب

١ – خطباء اليونان تأليف ج . ف . دبسون ترجمة أمين سلامة .
٢ – قصة الحضارة تأليف ويل ديورانت ترجمة محمد بدران .
٣ – دائرة المعارف البريطانية .
٤ – ديموستين – من سلسلة أعلام الحرية تأليف قدرى قلعجى .
٥ – نهج البلاغة .
٦ – الكامل لابن الأثير .
٧ – تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى .
٨ – العقد الفريد لابن عبد ربه .
٩ – البيان والتبيين للجاحظ .
١٠ – عبقرية الإمام لعباس محمود العقاد .
١١ – سيف بنى مروان لعبد الرازق حميدة .
١٢ – الحجاج – حياته وخطابته لعلى صافى حسين .
١٣ – ميرابو تأليف الوزير الفرنسي « بارتو » .
١٤ – دراسات تاريخية تأليف لوردماكولى .
١٥ – عبد الله النديم للدكتور على الحديدى .
١٦ – سلافة النديم لأحمد سمير .
١٧ – مصطفى كامل بقلم عبد الرحمن الرافعى .

١٨ – تاريخ مصطفى كامل بقلم على فهمى كامل .
١٩ – مصطفى كامل بقلم فتحى رضوان .
٢٠ – سعد زغلول بقلم عباس محمود العقاد .
٢١ – مصطفى كامل بقلم أحمد رشاد .
٢٢ – إنجلترا فى مصر بقلم مدام جوليت آدم .
٢٣ – آثار الزعيم فى عهد وزارة الشعب بقلم محمد إبراهيم الجزيرى .
٢٤ – مجموعة خطب سعد زغلول .
٢٥ – تاريخ نابليون الأول بقلم إلياس الحويك .
٢٦ – نابليون تأليف إميل لودفيج وترجمة عادل زعيتر .
٢٧ – مجموعة البلاغ الأسبوعى ، والرسالة ، والصحف اليومية .

كتب صدرت للمؤلف

١ – اللهب المقدس	مجموعة قصص قصيرة	١٩٥٦
٢ – نساء خالدات		١٩٦٥
٣ – التوعية الاجتماعية		١٩٦٦

الفهرس

	صفحة
هذا الكتاب	٧
ديموستين	٩
الإمام على	٢٧
زياد بن أبيه	٤٧
الحجاج	٥٧
عبد الله بن الزبير	٧٣
ميرابو	٨٣
وليم بت الكبير	١٠٧
وليم بت الصغير	١٢٣
عبد الله النديم	١٣٩
مصطفى كامل	١٦٧
سعد زغلول	٢٠٥
خطباء الحروب	٢٣١
نابليون بونابرت	٢٣٩

رقم الإيداع	١٩٧٦/٣٦٧١
الترقيم الدولى ٦ — ٣١٥ — ٢٤٦ — ٩٧٧	ISBN

١/٧٦/٢١٢ مطابع دار المعارف—١٩٧٦

ص

٢٠

